

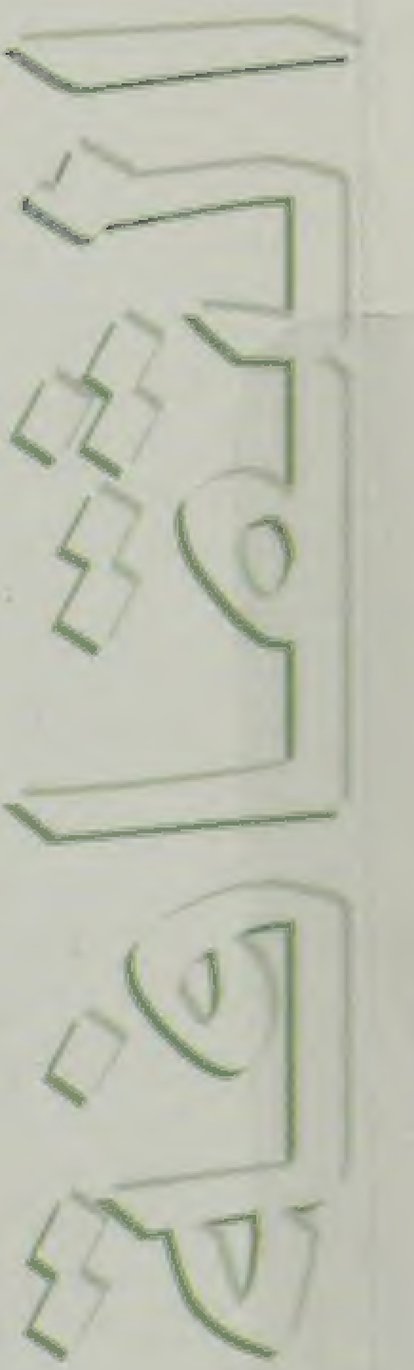




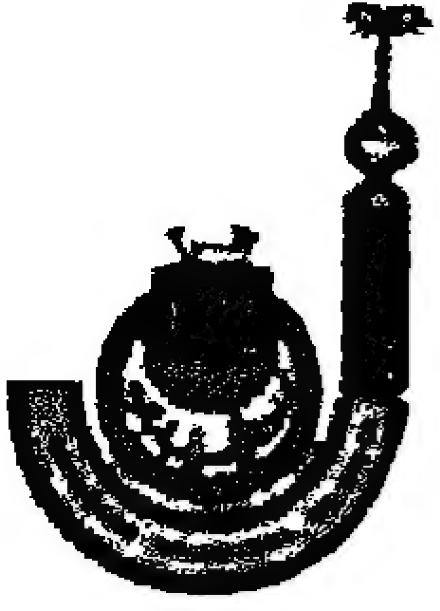
من أجل أدب إسلامي فاعلٍ ومتفاعلٍ

أعمال الندوة الأدبية الدولية
التي نظمت في الجامعة الإسلامية بالنيجر

(من 5 إلى 7 صفر 1423هـ، الموافق 18-20 أبريل 2002م)



1425هـ/2004م





من أجل أدب إسلامي فاعل ومتفاعل

أعمال الندوة الدولية التي نظمت
بالجامعة الإسلامية بالنيجر

من 5 إلى 7 صفر 1423 هـ، الموافق 18-20 أبريل 2002 م

منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1425هـ/2004م

التصفيف والتوضيب
وتركيب ألوان الغلاف في الإيسيسكو

رقم الإيداع القانوني : 2004/1937
ردمك 2-367-26-9981

السحب : مطبعة المعارف الجديدة
الرباط - المملكة المغربية



تقديم

تمثل الفنون والآداب عناصر رئيسة من مجموع مكونات الهوية الذاتية لأي أمة متحضرة، فهي نتاج عقول أبنائها وثمرة قرائحهم، وهي إلى ذلك أبرز مظاهر تأثيرها الحضاري والفكري في الحضارات الأخرى، ومقياس وعائها الإنساني، وتجاربها الذاتية، وهي المكون الأقوى والأهم لشخصيتها الثقافية ولكيانها الحضاري.

ولا شك أن اللغة هي لسان الإبداع الفني والأدبي غالبا، وبذلك كانت العناية بها محافظةً على أهم وسائل التواصل الإنساني! ورعايةً للوعاء الثقافي الذي تمثله الحضارة في جانبها الفكري.

ولما كانت اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم الذي ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وهي لغة التراث الإسلامي الذي اشتركت الشعوب الإسلامية على اختلاف أجناسها ولغاتها في تدوينه وإغنائه، وحفظته خزائن مخطوطاتها بالحرف القرآني، فإن الاهتمام بالعربية وآدابها بات مطلبا إسلاميا عاما، تتوق إلى تعميمه جموع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتحاول الجهات المتخصصة في هذا المجال أن تنهض بهذه الرسالة بما تخططه من أنشطة وبرامج تعنى بالعربية وآدابها.

ولما كان الأدب يمثل انعكاسا للحياة الاجتماعية والعقلية للأمم والشعوب، فإن الاهتمام به يعني المحافظة على هويتها وذاتيتها الثقافية، وهو ما تحرص المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية على ترسيخه، ولذا فقد اتفقت المنظمة والجمعية مع الجامعة الإسلامية بالنيجر، على طباعة أعمال ندوة (**من أجل أدب إسلامي فاعل ومتفاعل**) التي عقدت بمقر الجامعة في جمهورية النيجر، أيام 5-7 من صفر 1423هـ، الموافق 18-20 أبريل 2002م.

ولقد عقدت هذه الندوة بهدف التذكير بقضايا الأدب الإسلامي ودوره في تعزيز ثقافة العدل والسلام بصفة عامة، وبقصد التعريف بالأدب الإسلامي المكتوب

بالعـربية في منطقـة جنوب الصـحـراء الكبرى بصفـة خـاصـة، وذلك انطلاقـا من الإحساس بضرورة الاهتمام بماضي الأدب والثقافة الإسلاميين وبحاضرهما، في تلك المنطقة التي استهدف الاستعمار شخصيتها الإسلامية، وبيئتها الثقافية التي زخرت بأسماء العديد من الفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والمؤلفين والمبدعين الذين جعلوا من لغة القرآن والحرف العربي أداة لتواصلهم، ووسيلة لتعبيرهم، إلا أن حظهم من الدراسة والمتابعة والتعريف قليل، ولذلك كانت هذه الندوة بمثابة التفاتة ضرورية نحو هذا الإقليم العزيز من أقاليم العالم الإسلامي.

ولقد عكست التوصيات الصادرة عن هذه الندوة حرص المشاركين فيها على ضرورة العناية بالثقافة وبالبحث في العالم الإسلامي، وركزت على الاهتمام بالأدب وتطويره، باعتباره وعاء للمشاعر، وأحد عوامل الوحدة الثقافية والتضامن الإسلامي، وخصت بالعناية الأدب الإسلامي الإفريقي المكتوب بالحرف العربي، لما فيه من معاني المحافظة على هوية الشعوب الإسلامية القاطنة بهذه المنطقة، وحثت الهيئات العلمية ومراكز البحث والجامعات في العالم الإسلامي على فتح مجال أكبر للأدب الإسلامي المكتوب بالعربية في دراساتها الجامعية والعليا وإصداراتها.

ونظراً إلى أهمية عدد من البحوث التي قدمت لهذه الندوة، وتعميما لفائدتها وإعمالا لإحدى توصيات الندوة، بادرت الجهات المتعاونة إلى نشر هذه الأبحاث في هذا الكتاب، لتكون في متناول الدارسين والباحثين والقراء، ولتصبح لبنة أولى من اللبنات التي سيقام على أساسها جهد متواصل لإعادة تأسيس صرح الأدب الإسلامي الإفريقي المكتوب بالعربية والذي سيكتب بها مستقبلا بمشيئة الله.

ونحن حريصون في ختام هذا التقديم، على أن نشكر رابطة الأدب الإسلامي العالمية صاحبة فكرة الندوة، وكل من شارك فيها بجهد فكري أو مادي.

والله ولي التوفيق.

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية
والعلوم والثقافة. إيسيسكو.

د. محمد أحمد الشريف
أمين جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

د. عبد العلي الودغيري
رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر

المحتوى

الشعر العربي في بعض الأقطار الإفريقية

أعلام من الشعر العربي الإسلامي في غرب إفريقيا

التوصيات

كلمة رئيس الجامعة

أ. د . عبد العلي الودغيري

معالي وزير التعليم الثانوي والعالي والبحث العلمي والتكنولوجيا.

سعادة حاكم ساي.

أصحاب السعادة السفراء وممثلي البعثات الدبلوماسية.

سعادة الأخ ممثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

سعادة الأخ ممثل جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

سعادة الأخ ممثل الرابطة العالمية للأدب الإسلامي.

حضرات السادة الضيوف.

حضرات السادة الأساتذة المشاركين.

يسعدني في صبيحة هذا اليوم الأغر، أن أرحب بكم جميعا في رحاب هذه الجامعة التي شاءت إرادة الله تعالى أن تقام في هذه البقعة الطيبة بمبادرة من ملوك الدول الإسلامية ورؤسائها، لتكون منارة من منارات الدعوة إلى الله، ومورداً للعلم والثقافة لا تنضب ينابيعه، ولا يجف معينه، وها نحن نجتمع اليوم لنفتتح أعمال ندوة دولية من سلسلة الندوات واللقاءات والحلقات الدراسية التي ما فتئت مؤسستنا هذه تقيمها وتنظمها بين الحين والآخر، متعاونة في ذلك مع عدد من الهيئات والمنظمات الإسلامية الشهيرة، في مواضيع مختلفة، وجوانب متعددة.

وإذا كان عنوان ندوتنا اليوم هو: **نحو أدب إسلامي فاعل ومتفاعل**، وإذا كانت الجهات المشاركة في تنظيم هذه الندوة قد اختارت مقر الجامعة الإسلامية بالنيجر لإقامة هذا الملتقى الفكري والأدبي الهام، فلذلك دلالتان على الأقل:

الأولى: أن أدبنا الإسلامي المعاصر في حاجة إلى دفع وتوجيه حتى يكون أدبا فاعلا في حياة الأمة الإسلامية، ملتزما بقضاياها، ومتجاوبا مع مشاكلها،

وعاكساً لهمومها ومعاناتها، ومعبراً عن آمالها وتطلعاتها في النهوض وتجاوز مرحلة التخلف والعجز والانهيار، ومرحلة الاستلاب والانبهار.

أما الثانية : فهي التفاتة خاصة نحو الأدب العربي الإسلامي في هذه المنطقة من إفريقيا باعتباره جزءا لا يتجزأ من أدب الأمة الإسلامية جميعا، ولطالما تشوّفت نفوسنا، وتطلّعت آمالنا نحو هذه اللحظة التي يلتفت فيها أدباؤنا ومؤرخونا ومثقفونا من الأقطار العربية والإسلامية الأخرى نحو هذا الأدب الإفريقي المنسي والمهمَّش، وإيلائه ما يستحقه من عناية ودراسة واهتمام، ولاسيما أن فيه من النماذج والنصوص والكتابات ما يستحق كل عناية وتشجيع وتكريم. إنه في حاجة إلى تعريف، وفي حاجة إلى نشر، وفي حاجة إلى دراسة وتحليل ومقارنة، ولا أبالغ إذا قلت إن كثيراً من نماذجه لفي حاجة لأن يحتل مكانته التي يستحقها في صفحات الكتب المدرسية، والمقررات الجامعية التي تدرس في الجامعات والمعاهد بالعالمين العربي والإسلامي.

هناك أدب الجهاد والمقاومة، وأدب الدعوة، وأدب الإصلاح الديني والاجتماعي، أدب التأملات، والأدب التعليمي، والأدب الوصفي، وأدب المراسلات، وغيرها من ضروب القول، ومجالات شتى للإبداع والتعبير.

ولا شك عندي في أن هذه الندوة ستكون فاتحة خير للتعرف على شيء من هذا الإنتاج الأدبي العربي الإسلامي الإفريقي، وقد تتبعها ندوات ولقاءات أخرى أكثر انفتاحا، وأشد اهتماما والتصاقا بهذا الأدب الذي أرى أن من الظلم أن يُغمط حقّه، ولا بد من أن يأخذ طريقَه بين أدب الشعوب الإسلامية الأخرى.

معالي الوزير،

حضرات السادة،

إن من دواعي الغبطة والسرور أيضا، أن أعلن لكم أنه بمناسبة انعقاد هذه الندوة المباركة، سيتم افتتاح **كرسي جامعي للأدب والفنون الإسلامية الإفريقية** تحتضنه جامعتنا لأول مرة، وهو كرسي سيلقى دعمه وتمويله من منظمة الإيسيسكو وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ومن شخصيات أخرى بحول الله تعالى، وقد

أبت منظمة الإيسيسكو إلا أن يكون لها السبق لاتخاذ هذه المبادرة الطيبة المشكورة.

ولا شك في أن إنشاء هذا الكرسي الذي سيتعاقب على منبره عدد من الأساتذة الزائرين والمقيمين، خطوة عملية نحو التعريف بالفنون الإسلامية بإفريقيا، وبمنطقة جنوب الصحراء على الخصوص. ونتمنى أن نجد في الجامعات ومراكز البحوث والدراسات العربية الإسلامية والعالمية دعما قويا ماديا ومعنويا لهذا الكرسي.

وهكذا فإنه يمكننا أن نعتبر إقامة هذه الندوة بمثابة تدشين لهذا الكرسي، وإعطاء انطلاقة له، ولاسيما أن أغلب البحوث المقدمة للندوة تدور حول موضوعات الأدب والفنون الإفريقية.

هذا وستقام على هامش هذه الندوة وبموازاة معها ورشة **خاصة حول الخط العربي الإسلامي** يشرف عليها الأستاذ منجي عمار أحد المتخصصين المشهورين في هذا الموضوع، كما ستنتظم أمسية شعرية نستمع فيها إلى نصوص من الشعر الإفريقي الإسلامي المعاصر.

ومن ناحية أخرى، واقتناعا منا بأهمية الدور الذي يمكن أن تقوم به جامعتنا في التعريف بالآداب والفنون الإفريقية، فقد تقرر الشروع في إصدار سلسلة من المطبوعات التي تشتمل على بحوث ودراسات أكاديمية جادة، ونصوص تراثية ومعاصرة من الأدب الإفريقي المكتوب بالعربية.

وبهذه المناسبة، أعلن أننا نرحب بنشر كل نص ضمن هذه السلسلة إذا توفرت فيه الشروط العلمية المطلوبة، ونهيب بالباحثين إلى الإسهام في إنجاح هذا المشروع وإغنائه بما لديهم من إسهامات.

فإذا أضفنا هذا كله إلى الخطوة السابقة التي اتخذتها جامعتنا لإحداث **مركز إفريقي لإحياء التراث الإسلامي** منذ بضع سنوات مهمته جمع التراث الإفريقي المكتوب بالعربية وباللغات الإفريقية من مخطوطات وغيرها، وفهرسته والتعريف به ونشره؛ سنعرف إلى أي حد قامت الجامعة الإسلامية بالنيجر بقطع خطوات ملموسة نحو خدمة الفنون والآداب وتراث الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة.

معالي الوزير:

حضرات السادة:

لا يسعني في نهاية هذه الكلمة إلا أن أعبر عن خالص الشكر والتقدير لكل من منظمة الإسيسكو ومديرها العام **الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري**، وجمعية الدعوة الإسلامية وأمينها العام الأستاذ الدكتور محمد أحمد الشريف، والرابطة العالمية للأدب الإسلامي والمسئولين عنها، على مشاركتهم المادية والأدبية، وتحملهم نفقات إقامة هذه الندوة العلمية المباركة، كما أشكر معالي وزير التعليم الثانوي والعالي والبحث العلمي والتكنولوجيا الذي أبى إلَّا أن يترأس هذه الجلسة الافتتاحية، وأشكر دولة النيجر حكومةً وشعباً على ما تبذله من تعاون مثمر لإنجاح مهمة الجامعة، وأشكركم أيها الإخوة الأساتذة الأجلاء المشاركون في أعمال الندوة على تجشمكم مشقة السفر، وعناء الرحلة في هذه الظروف المناخية الصعبة، وعلى اهتمامكم ومشاركتكم، وأتمنى لكم مقاما طيبا بين ظهرانينا، وأدعو الله أن يوفقنا في إنجاح أعمال ندوتنا هذه.

كلمة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو -

د. عبد الحميد عبد الله الهرامة (*)

أصحاب السعادة
حضرات السادة والسيدات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فيسرني أن أحيي جمعكم الكريم، وأن أنقل إليكم تحيات معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وتمنياته لكم بموفور النجاح والتوفيق لأعمال ندوتنا هذه التي تؤكد أهمية الأدب الإسلامي الفاعل والمتفاعل في حماية الذاتية الثقافية للعالم الإسلامي، وفي تعزيز السلام بين شعوبه.

كما يطيب لي أن أشكر باسم معاليه أيضا، جمهورية النيجر حكومةً وشعباً، على تعاونها المثمر، وعلى ثقتها المتجددة في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وفي سعيها الدؤوب لتحقيق الإنجازات الثقافية المهمة لصالح الإسلام والمسلمين في العالم الإسلامي بعامة، وفي القارة الإفريقية بخاصة.

وأزجي باسم معاليه أيضا، جزيل الشكر إلى الجامعة الإسلامية في النيجر، في شخص رئيسها الأستاذ الدكتور عبد العلي الود غيري على كرم الضيافة، وإلى جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، والرابطة العالمية للأدب الإسلامي على تعاونهما مع المنظمة الإسلامية في خدمة اللغة العربية وآدابها في هذه المنطقة.

(*) د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، خبير بالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو -.

أصحاب السعادة

حضرات السادة والسيدات

إن الغاية من تناول موضوع (**من أجل أدب إسلامي فاعل ومتفاعل**) هي فتح المجال أمام عروض قيمة لأساتذة مختصين في هذا المجال، وتقديم رؤاهم واقتراحاتهم في خدمة الأدب الإسلامي واللغة العربية في القارة السمراء، وهي غاية طالما سعى إلى تحقيقها المخلصون للغة الضاد، لغة القرآن الكريم، وآدابها التي حلت بهذه الربى منذ عهد الفتوحات الإسلامية الأولى، وتركت آثارها القيمة في صورة مخطوطات ووثائق شاهدة على ازدهار الأدب الإسلامي جنوبي الصحراء الكبرى. وإن مراكز المخطوطات في مدن تنبكتو، ونيامي، وداكار، وكانو، وانجامينا، وأروان، وزندر، وليجوس وغيرها، لتشهد بنمو ثقافة وحضارة إسلاميتين ذاتي أدب فاعل ومتفاعل، وهي لا تنسى أسماء رجال لهم القدح المعلى في خدمة الأدب الإسلامي في هذه الربوع، من أمثال أحمد بابا التنبكتي، ومحمود أقيت، وعثمان بن فودي، ومحمد بغيع، والعاقب بن محمد بن أقيت، والعاقب السوسي، وعادل الأرواني، وغيرهم من الشعراء والأدباء الذين لا يقل أدب بعضهم عن الأدب العربي في المشرق، لأنهم أحسوا أن العربية ليست لأحدنا بِأَبٍ أو أُمٍّ، ولكنها اللسان من أتقنه فهو عربي، كما ورد بهذا المعنى في الحديث الشريف، وهو ما جعل اللغة العربية في نظر المسلمين على اختلاف مشاربهم، هي لغة الإسلام لأنها لغة القرآن الكريم، ولغة الحديث الشريف، ولغة التراث الإسلامي، ولغة أهل الجنة، وجعل تعلمها قربة إلى الله، وسبيلا لخدمة دينه الحنيف.

وإن هذه الندوة تعقد في إطار العناية بالآداب والفنون الإسلامية، وهو برنامج دائم في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة لإيمانها بأن الآداب هي أوعية الشعور العفوي، والتعبير الصادق للشعوب، وهي المحركة لحماستها نحو الوحدة والتضامن والعزة، سجلت على مدى العصور السابقة، آمال الأمة وآلامها، وأشادت بالرموز التي تجمع بين أبنائها، وعملت على تعزيز السلام والتعايش السلمي بين بلدانهم وقبائلهم، وحفظت الموروث المشترك من القيم والأخلاق والعادات والتقاليد المتشابهة، فكانت بذلك عنصر توحيد متميز، يؤلف بين العقول والأرواح، ويربي الأذواق والسلائق، ويمتع النفوس والمهج.

أصحاب السعادة

حضرات السادة والسيدات

لقد وجدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة هذا الموضوع مدخلا مناسبا لخدمة الثقافة الإسلامية في إفريقيا جنوبي الصحراء، وهي المنطقة التي أولتها اهتمامات متعددة من خلال برنامج مراكز القراءة، وبرنامج الحفاظ على التراث الإسلامي، وبرنامج تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ثم من خلال العناية بالصناعات الثقافية، كل ذلك بالتعاون مع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

ثم هي اليوم تعنى بالأدب الإسلامي المكتوب بالعربية في هذه المنطقة، لإيمانها بأن هذا الأدب هو ابن شرعي للشعوب المتساكنة جنوبي الصحراء الكبرى، والمنظمة تستهدف من وراء ذلك تحقيق الأهداف التالية:

1. إبراز إسهامات الآداب الإسلامية في الحضارة المعاصرة.
2. التعريف بالأدب الإسلامي الإفريقي المكتوب بالعربية.
3. تأكيد دور الأدب في تعزيز ثقافة السلام بإفريقيا.
4. إثراء الندوة بأبحاث تقدم أفكارا ذات جدة وقيمة.
5. تبادل الآراء بين المختصين لتطوير موضوع الندوة.
6. التعريف بالموروث الأدبي والفني الإسلاميين وأثرهما في الحضارات الإنسانية.

نتمنى لهذه الندوة كل التوفيق في الوصول إلى نتائج قيمة تعكس قوة أدب المنطقة في متابعة قضايا الأمة الإسلامية، ورصد تأثيره وأثره، وصولا إلى أدب فاعل ومتفاعل، يترك بصمات إيجابية في الحضارة الإنسانية، ويعزز ثقافة السلام، ويساهم في تضامن الأمة الإسلامية، وعلى الأخص في هذه الآونة التي يشهد فيها العالم هجمة عدائية شرسة على المسلمين بعامة، وعلى إخواننا في فلسطين بخاصة، مما يهدد الأمن والسلم الدوليين، بل ويهدد الحضارة الإنسانية، ويضر بمصالح الأمم والشعوب جميعا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة رابطة الأدب الإسلامي العالمية

د. حسن الأمراني(*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين، وعلى من تبع سنته إلى يوم الدين.

معالي الدكتور عبد العلي الودغيري، رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر.

سعادة الدكتور عبد الحميد الهرامة، ممثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

سعادة ممثل جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في الجماهيرية الليبية.

أصحاب السعادة والحضور الكرام.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فيسرني أن أحيي باسم رابطة الأدب الإسلامي العالمية كافة المساهمين في هذه الندوة المباركة، وأخص بالشكر الجزيل معالي رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر، وسعادة ممثل الإسيسكو، وسعادة ممثل جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

ولكَم أتمنى أن يستمر التعاون بيننا جميعا لإقامة مثل هذه الندوة في الجامعات الإسلامية المختلفة، وبخاصة في القارة الإفريقية ... تحقيقا لرسالة الأدب الإسلامي التي تلتقي مع أهداف منظمة الإسيسكو، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية في الجماهيرية الليبية.

ولقد وفقت الهيئة التحضيرية لهذه الندوة في اختيار عنوانها "من أجل أدب إسلامي فاعل ومتفاعل". فالأدب الإسلامي أدب فاعل لأنه أدب هادف ملتزم، ينطلق

(*) د. حسن الأمراني، أمين رابطة الأدب الإسلامي العالمية، رئيس المكتب الإقليمي بالمغرب، وجدة، المملكة المغربية.

من عقيدة الأمة وتراثها الأصيل، ليعمل في زمن الوهن العربي والإسلامي على رفع مستوى الأمة إلى معركة المصير، لتكون قادرة على الوقوف أمام تيار الغزو الجارف، ولتثبت جدارتها في حوار الحضارات الذي يريدونه صراعا بين الحضارات.

ولن يتم الوصول إلى ما نريد عن طريق الفكر وحده، فالإنسان عقل وقلب. ولا بد من مخاطبة الوجدان عن طريق الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، لتؤدي دورها المنشود في بناء الأجيال المؤمنة، التي تعتز بدينها وتراثها وأخلاقها الإسلامية.

والأدب الإسلامي أدب متفاعل مع قضايا الأمة المصيرية، يعبر عن آلامها وآمالها، ويدعو إلى وحدة الروح والمشاعر قبل وحدة السياسة والمصالح، وما أجدر بأدباء الإسلام أن يسمعوا ما قاله صلاح الدين الأيوبي مُقَدِّراً دور الأدب وخطورته "والله ما أخذت البلاد بالعساكر، بل أخذتها برسائل القاضي الفاضل".

وكان دور الشعراء لا يقل عن دور القاضي الفاضل وأمثاله، إذ اجتمع في بلاط صلاح الدين نحوٌ من 50 شاعراً، يهنئونه بالنصر، بعد أن أبلوا أحسن البلاء في الحض على مجابهة الصليبيين، وبث روح الجهاد والاستبسال ونبذ العنف، ووصف المعارك ومدح الأبطال ورثاء الشهداء.

وما أجدر بشعراء الإسلام في زمن الوهن العربي والإسلامي أن يسهموا في إخراج الأمة من التيه الذي هو دون تيه بني إسرائيل، وأن يبثوا في قادة الأمة وشعوبها تلك الروح التي بثها شاعر الإسلام محمد إقبال في المسلمين من الهنود الضعفاء المستكينين أمام الإنكليز المستعمرين، والهندوس الحاقدين، حتى انتفضوا قوة من بعد ضعف، وعزيمة بعد استكانة، وعزة بعد ذل، وحتى أقاموا دولة باكستان.

وما أشبه اليوم بالبارحة، فالأمة الإسلامية مستكينة أمام جبروت إسرائيل وانحياز أمريكا، واليهودية الحاقدة لا تقل شراسة وحقداً عن الصليبية القديمة، فلا غرو أن نهيب بأدباء الإسلام أن يُؤَدُّوا دورهم في معركة المصير مع اليهود الذين يحتلون البلاد، ويُنَكِّلون بالعباد، ويمارسون أشنع الجرائم في أرض الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين.

وأخيرا فإني إذ أدعو الله عز وجل أن يكتب لهذه الندوة أن تحقق أهدافها المنشودة ... أتمنى أن تكون أولى التوصيات تحية للصمود الفلسطيني، وإهابة بالقادة العرب والمسلمين أن يستشعروا المسئولية أمام الله كما أَحَسَّ بها صلاح الدين الأيوبي إذ قال " **والله إني لأخجل من الله أن ابتسم والقدس في أيدي الصليبيين** ". ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

كلمة معالي وزير التعليم الثانوي والعالي ـ بالنيجر
السيد جابي محمادو ساليسو

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أصحاب المعالي السادة الوزراء،

السيد رئيس الجامعة الإسلامية في النيجر

حضرات السيدات والسادة،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

يطيب لي في افتتاح أعمال الحلقة الدراسية الدولية حول الأدب الإسلامي أن أعرب عن التهاني الخالصة للجامعة الإسلامية في النيجر على هذه المبادرة الحميدة.

كما يسرني أن أعبر عن اعتزاز النيجر باحتضان هذا اللقاء الذي يتناول موضوعاً يكتسي أهمية بالغة.

وسيتابع النيجريون، الذين يمثل المسلمون نسبة 90% منهم، باهتمام بالغ أعمال هذه الحلقة الدراسية. وكما تدركون ذلك، يمكن أن يساهم الأدب الإسلامي مساهمة فاعلة في تنمية الثقافة الإسلامية في بلداننا.

وفي هذا الصدد، لابد من الإشادة بحضور ثلة الأكاديميين والمختصين في الأدب الإسلامي العالمي الذين قدموا من مختلف البلدان العربية والإسلامية. وأتمنى لهم باسم فخامة الرئيس وباسم حكومة جمهورية النيجر مقاماً طيباً ببلدهم الثاني النيجر.

كما أودّ التوجه بأحرّ عبارات الشكر والتقدير للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية والرابطة الدولية للأدب العالمي على دعمهم ومساهمتهم في تنظيم هذه الحلقة الدراسية.

حضرات السيدات والسادة،

إنّ مشاركتكم في هذا اللقاء تعكس مدى أهمية المواضيع التي ستعرض للنقاش على مدى الثلاثة أيام المقبلة.

ومن المعروف أن البشرية تسعى في بداية الألفية الثالثة إلى تحقيق الرخاء وإرساء قواعد الأمن والسلام. لذا، فإنكم مدعوون إلى التفكير في السبل الكفيلة بالنهوض بالأدب الإسلامي وتسخيره لخدمة جهود إقرار السلم ومحاربة الفقر في أوساط أبناء الأمة الإسلامية.

ولا يفوتني أن أسجل بارتياح تناول هذه الحلقة الدراسية للأدب الإسلامي الإفريقي باللغة العربية الذي يعود إلى ما قبل الفترة الاستعمارية. كما يكتسي موضوع التراث الثقافي والحضاري للعالم الإسلامي، الذي سيناقشه هذا اللقاء، أهمية قصوى بالنظر إلى المخاطر التي تهدد هذا التراث.

حضرات السيدات والسادة،

يسرني أن أخبركم بمناسبة انعقاد هذه الحلقة عن إحداث كرسي علمي للأدب والفن والحضارة الإسلامية في إفريقيا. وستتولى الإيسيسكو وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية تمويله. وبهذه المناسبة، أتوجه باسمكم بالشكر الجزيل للمؤسستين على دعمهما الموصول.

كما أودّ الإشادة بتنظيم ورشة عمل حول المخطوطات العربية والأدجامية والكتب الإسلامية على هامش هذه الحلقة الدراسية.

حضرات السادة والسيدات،

إنني إذ أبارك انعقاد هذه الحلقة الدراسية، أدعوكم مرة أخرى إلى التفكير في الوسائل الكفيلة بالنهوض بالأدب الإسلامي لما فيه خير الأمة الإسلامية.

وعلى بركة الله أعلن افتتاح الحلقة الدراسية الدولية حول الأدب الإسلامي.

أشكركم على حسن انتباهكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حاجة إفريقيا إلى الثقافة الإسلامية لتعزيز ثقافة السلام

د. أبوبكر دوكوري(*)

الحمد لله يوالي ما تزايد من النعم، والشكر له على ما أولانا به من الفضل، أجله وأعظمه نعمة الإسلام، ونسأله المزيد من الإعانة والتوفيق في كل الأحوال والأعمال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد العرب والعجم، والمبعوث لسائر الأمم، وعلى آله وأصحابه وأمته أفضل الأمم.

أما بعد، فأحييكم جميعا بتحية الإسلام الخالدة، وأقول : السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ومن منطلق القاعدة الشرعية: "من لا يشكر الناس لا يشكر رب الناس"، أجد لزاما عليّ أن أتقدم بأسمى آيات الشكر، وصادق العرفان، وعظيم الامتنان إلى المسؤولين في كل من منظمة الإيسيسكو، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، والجامعة الإسلامية بالنيجر، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية الذين يعود إليهم الفضل في إقامة هذه الندوة الدولية عن الأدب الإسلامي في إفريقيا.

ولا شك في أن هذه الندوة سوف لا يقتصر نفعها وفائدتها على طلبة الجامعة الإسلامية فقط، بل سيتعداهم إلى كل المعنيين والمهتمين بالتراث الإسلامي العريق في هذه القارة، وشكرنا موصول إلى دولة النيجر حكومة وشعبا على استضافتها لجامعتنا الإسلامية الدولية، وعلى استمرار رعايتها لها، وتقديم كل مساعدة متاحة إليها، فجزى الله الجميع أحسن ما يجزي المحسنين.

عودة إلى موضوعنا الأساسي "**حاجة إفريقيا إلى الثقافة الإسلامية لتعزيز ثقافة السلام**" أقول : إن الإسلام دين سلام وأمان ورحمة يحقق الخير

(*) عضو المجلس التنفيذي للإيسيسكو ممثلاً عن جمهورية بوركينافاسو.

والسعادة للمجتمع البشري في كل زمان ومكان، ومن واجبنا نحن الدعاة أن نعرّف الناس بهذه الحقيقة، وخاصة في قارتنا الإفريقية التي تمزقها الحروب والنزاعات القبلية، والفتن الطائفية، حتى أصبحت أكثر قارات العالم معاناة وتخلفا، على الرغم من كونها أغنى هذه القارات من حيث الأيدي العاملة والثروات الطبيعية.

ولا يمكن إنقاذ هذه القارة إلا بتعاليم الإسلام التي تدعو الناس إلى الخير وتنفرهم من الشر، وتخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفوضى إلى النظام، ومن الفرقة إلى الوحدة، وما وصلت تعاليم الإسلام إلى أرض أو قوم فتمسكوا بها إلا وأحدثت فيهم تغييراً جذرياً في حياتهم الخاصة والعامة.

وفيما يخص بعلاقة الإسلام بالسلام، فإن الأديان في العادة تنسب إلى أسماء الأشخاص، فالمسيحية تنسب إلى المسيح عليه السلام، والبوذية تنسب إلى بوذا مؤسسها، أو تنسب إلى أمة معينة ظهرت وترعرعت بين ظهرانيها، كاليهودية التي ظهرت وترعرعت، في أحد الآراء، بين قبيلة تعرف بيهوذا، فسميت باليهودية[1].

أما الإسلام فإنه لا ينسب إلى رجل خاص، ولا إلى أمة بعينها، أو منطقة من المناطق، وإنما يدل اسمه على صفة خاصة تضمنها هذا الدين، لاشتقاقه من مادة (سلم) التي من معانيه في اللغة العربية الصلح والأمان[2]. مما يدل على أن الإسلام يعتمد على الصلح في حلّ جميع المشكلات لا على الحرب، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [3].

يرى الإسلام أن السلم هو الأصل في العلاقة بين الناس، وأن الحرب ليست إلا علاجا لمشكلة لم ينفع في حلها كل الوسائل الأخرى، وأنها إذا وقعت وجنح أحد الطرفين إلى السلم وجبت تلبيتُه حقنا للدماء، ولم يكتف الإسلام باشتقاق اسمه من السلام للدلالة على اهتمامه بالسلام، وحرصه على تحقيقه لجميع أفراد المجتمع البشري، بل إنه دعا الناس إليه، حيث قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي

(1) راجع دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، 568، ج 10.

(2) لسان العرب المحيط، 192، ج 2.

(3) سورة الأنفال، الآية : 61.

السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [1]، ففي الآية الكريمة أمر إلزامي بوجوب دخول الجميع في السلم، والتزام تحقيقه في المجتمع، ومن النصوص الشرعية في هذا الموضوع:

1. أن الإسلام قد حرم الظلم بجميع أنواعه، فقال تعالى :﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [2]، ويقول رسول الله فيما يرويه عن ربه عز وجل « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» [3] ويقول في حديث آخر «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام» [4]، والأدلة التي تدل على تحريم الظلم بجميع أنواعه وأشكاله كثيرة جداً، ولا شك في أن الفتنة بين الناس أفراداً وجماعات ودولا، مصدره الأساسي البغي والعدوان من طرف ما، فإذا امتنع كل واحد عن الظلم، وكف أذاه عن غيره ساد السلام، وحل الأمان.

2. المساواة بين الناس، وعدم التمييز في الكرامة، وفي الحقوق الأساسية ما بين إنسان وآخر بسبب الجنس أو الدين أو المال، يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [5]، وقوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [6]، وقوله كلكم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى" [7]، ويقول في حديث آخر " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" [8]، ويقول في حديث آخر " إنما النساء شقائق الرجال"، فكل هذه الأدلة من نصوص القرآن

---

(1) سورة البقرة، الآية: 208.

(2) سورة الفرقان، الآية: 19.

(3) رواه مسلم في كتاب البر، وأحمد في المسند، 5 ج، 160.

(4) رواه كل من البخاري ومسلم والجماعة.

(5) سورة الحجرات، الآية: 13.

(6) سورة الروم، الآية: 22.

(7) رواه الإمام أحمد في المسند، ج 5، 411.

(8) رواه الإمام أحمد في المسند، ج 2، 539 و 285.

الكريم والحديث النبوي الشريف تدل على أن التفاضل لا يكون على أساس من الجنس أو اللون أو المال أو النسب، فلا يجوز لأحد أن يترفع على غيره بسبب واحد من هذه الأمور، بل يجب أن يكون أساس العلاقة بين الناس الاحترام المتبادل الذي يستند إلى الكرامة الإنسانية التي أثبتها له تعالى في قوله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1].

3. العدل في التعامل مع الغير وإن كان عدواً، فينبغي ألا يحمله الحقد والعداوة على عدم إنصافه، يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

4. حق كل إنسان في الاعتقاد والتدين، وعدم جواز الإكراه على الدخول في الدين، لأن ذلك يعتبر اعتداء على حرية العقيدة، يقول تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[3]، وقال تعالى في آية أخرى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[4]، وقال في آية أخرى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[5].

فهذه الآيات القرآنية رسمت منهج الإسلام في الدعوة إلى عقيدته، وبينت وظيفة الرسول ﷺ وكل الدعاة من بعده بأنها التبليغ والتذكير والبيان، لا الإكراه والسيطرة والتجبر، ويؤيد ذلك ما رواه أئمة التفسير في سبب نزول قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[6]، فقد رووا أنه كان لبني النضير -وهم طائفة من يهود المدينة- أولاد من أبناء الصحابة ربوهم وهودوهم، فلما تقرر إجلاؤهم من المدينة، أراد المسلمون أن يأخذوا أبناءهم ويكرهوهم على الدخول في الإسلام فنزلت الآية الكريمة، فقال النبي "قد خير أصحابكم، فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم"[7].

(1) سورة الإسراء، الآية: 70.

(2) سورة المائدة، الآية: 8.

(3) سورة البقرة، الآية: 256.

(4) سورة يونس، الآية: 99.

(5) سورة الغاشية، الآية: 22.21.

(6) سورة البقرة، الآية: 256.

(7) راجع جامع البيان في تفسير القرآن، للإمام الطبري 10/3.

وهذا رد على من يزعم بأن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف وقوة السلاح، وهذا الزعم لا دليل عليه، لأن التاريخ الإسلامي لم يذكر لنا واقعة واحدة أكره المسلمون فيها أحداً على الدخول في الإسلام، بل إن هذا الإكراه ضد طبيعة الإسلام الذي لا يقبل القول باللسان فقط، بل يشترط الاعتقاد بالقلب حتى يكون الإسلام مقبولاً، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا، قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا، وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1].

ومعلوم أن غاية ما يحققه الإكراه هو النطق بالشهادة، والإقرار باللسان، مع رفضه بالقلب، وهذا لا يكفي في دخول الإنسان في الدين، لذلك كان منهج الإسلام في دعوته للناس يعتمد على الإقناع القائم على الحجة والدليل دون الإكراه على قبول العقيدة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]، وقال في آية أخرى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3]، وقال في آية ثالثة ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[4].

5. أن الإسلام يأمر أتباعه ببر المخالفين لهم في العقيدة، والعدل معهم ما داموا لا يشهرون السلاح في وجوههم، ولا يحملون السيف عليهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[5].

6. الدعوة إلى التعاون بين جميع الشعوب على ما فيه الخير والمصلحة العامة، وتقديم جميع أنواع البر إلى بني الإنسان، وكذلك التعاون على كف الأذى ودفع الشر عنهم، يقول تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [6].

7. حث الإسلام على التسامح والتجاوز والتنازل عن الحق لنزع فتيل الفتنة والخلاف، لأن الانتقام كثيراً ما يؤدي إلى استمرار الأحقاد والضغائن،

(1) سورة الحجرات، الآية: 14.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 49.

(4) سورة الكهف، الآية: 49.

(5) سورة الممتحنة، الآية: 8.

(6) سورة المائدة، الآية: 8.

وتوسيع شقة الخلاف والنزاع لتشمل الآخرين من الأقارب والأصدقاء، يقول تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[1]، ويقول تعالى ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾[2]، ويقول تعالى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[3]، ويقول تعالى: في آية أخرى ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4]، ويقول ﷺ « لَيسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَن يَملِكُ نَفسَهُ عِندَ الغَضَبِ »[5].

8. التكافل فيما بين أبناء المجتمع في حق كل إنسان بالحياة الكريمة، وتخليصه من الفقر والجهل والمرض، وذلك بفرض حق معلوم في أموال القادرين يُصرف لذوي الحاجات على اختلاف حاجاتهم عملا بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[6]، وقوله في آية أخرى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[7]، وقوله تعالى :﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[8]، وقوله ﷺ في وصيته لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن « **فأعلمهم أنّ الله قد فرض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم وتُرد إلى فقرائهم**»[9].

ولا شك أن في الاهتمام بالمحرومين ومواساة المحتاجين إسهاماً في استتباب الأمن والسلام في المجتمع، فبدون ذلك سيحسد هؤلاء البؤساء والمحرومون الأغنياء، ويحقدون عليهم، ويتآمرون للقضاء عليهم وعلى مصالحهم، فتحصل الفوضى، ويستمر النزاع الطبقي بين الناس.

(1) سورة فصلت، الآية: 25.
(2) سورة البقرة، الآية: 237.
(3) سورة الشورى، الآية: 43.
(4) سورة آل عمران، الآية : 134.
(5) متفق عليه.
(6) سورة المعارج، الآية: 25.
(7) سورة التوبة، الآية: 103.
(8) سورة التوبة، الآية: 60.
(9) متفق عليه.

9 . عدم نقل عدوى المرض من الأماكن الموبوءة إلى الأماكن الأخرى الخالية من المرض، وكذلك عدم تعريض الإنسان نفسَه لعدوى المرض بالسفر إلى المناطق الموبوءة، يقول رسول الله ﷺ **«إذا سمعتم بالطاعون بأرضٍ فلا تدخلوها، وإذا وقع وأنتم بأرضٍ فلا تخرجوا منها فرارا منه»**[1] .

ومن هنا نعلم أن الإسلام قد سبق إلى فرض الحجر الصحي منذ أربعة عشر قرنا، وقبل أن تتنبه أية دولة حينذاك لإدخاله في تشريعاتها، وذلك مبالغة من الإسلام في حماية الصحة العامة التي لا سعادة ولا سلام إلا بها.

ومن هنا نعلم أن مبدأ السلام في الإسلام ينطلق مباشرة من عقيدة الإنسان بالإيمان بالله، ومن وجوب استسلامه لشريعة الله ضمانا للسلام على الأرض، فإن السلام في الإسلام ملازم لعقيدة الإيمان بالله، فواجب ديني على كل من اعتنق الإسلام أن يعلم أن عليه مسئولية ضمان السلام على الأرض، لأن إسلام المرء معناه خضوعه واستسلامه لشريعة الإسلام.

ولقد دعت نصوص الشريعة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إلى السلام، وشرعت أحكاماً يلزم من الامتثال بها والعمل بموجبها تحقيقُ السلام بين الناس أفراداً وجماعات ودولاً، ولم يكتف الإسلام بتلك التشريعات والأحكام التي أشرنا آنفا إلى أنها تحقق السلام والأمان للمجتمع وللعالم أجمع، بل إنه أشاع كلمة السلام بأن جعلها تحية خاصة به يرددها المسلمون عدة مرات في اليوم بقولهم لمن يعرفونه ولمن لا يعرفونه "السلام عليكم" امتثالا لقوله ﷺ " أفشوا السلام بينكم"[2]، وقوله حينما سئل أيُّ الإسلام خير؟ " تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف"[3].

وقد جعل الله تحية المسلمين التي تؤلف القلوب، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان بلفظ السلام للإشعار بأن دينهم السلام والأمان، وهم أهل السلم ومحبو

---

(1) رواه الإمام أحمد في المسند، 178/1.

(2) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه.

(3) رواه البخاري في باب الاستئذان 19/9.

السلام، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال " إن الله جعل السلام تحية لأمتنا، وأمانا لأهل ذمتنا "[1].

ولا ينبغي لإنسان أن يتكلم مع إنسان قبل أن يبدأه بكلمة السلام، يقول رسول الله ﷺ " السلام قبل الكلام "[2]، وحكمة ذلك أن السلام أمان، ولا كلام إلا بعد الأمان، وكذلك تحية الله للمؤمنين عند دخولهم الجنة تحية سلام، يقول تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[3]، وتحية الملائكة للبشر في الآخرة سلام، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[4].

وكذلك خروج المسلمين من الصلاة وانصرافهم عنها إنما يكون بقول "السلام عليكم" ويقولون بعد ذلك " اللهم أنت السلام، ومنك السلام.. " وأخبر الله بأن نزول القرآن إنما كان في ليلة وصفها بأنها سلام، كما أخبر تعالى بأن أهل الجنة لا يسمعون من القول ولا يتحدثون بلغة غير لغة السلام، يقول تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾[5]، وورد في القرآن تسمية الله باسم السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ.... ﴾ [6]، بينما نرى بعض الديانات تنعت بعض آلهتها بأنها آلهة حرب، كما أطلق القرآن الكريم دعوته إلى الإسلام بأنها دعوة إلى دار السلام، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾.

وكثرة تكرار هذا اللفظ " السلام " على هذا النحو، مع إحاطته بهذا الجو الديني النفسي من شأنه أن يوقظ الحواس جميعها، ويوجه الأفكار والأنظار، ويشعر المسلمين بأن شريعة الإسلام إنما هي ملازمة للسلام، وأنه ضروري في حياة الإنسان، فلا يجوز أن يغيب ذلك عن بالهم لحظة واحدة، وكذلك الدعاء للناس بالسلام، كما هو الحال في التحية بكلمة السلام، وتكرار هذه الكلمة عدة مرات في الصلوات اليومية.

---

(1) راجع فقه السنة 599/2.
(2) رواه أبوداود والدرامي.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 44.
(4) سورة الزمر، الآية : 73.
(5) سورة الواقعة، الآية : 26.
(6) سورة الحشر، الآية : 23.

فلا غرو إذن أن يندهش كل منصف، ويذهب به العجب كل مذهب، حين يرى ويسمع ما يتعرض له الإسلام اليوم من حملات شرسة تنعته بكل ما هو مشين وقبيح، كالإرهاب والهمجية وعدم احترام حقوق الإنسان الخ..، كل ذلك بغية صدّ الناس عن دين الله، وتنفيرهم منه، والغريب أنه يمارس في حقنا الإرهاب لحملنا على الاعتراف بهذه الترهات والأباطيل التي لا تمتُ إلى الحقيقة بصلة، ولكن نؤكد لهؤلاء المغالطين أننا لن يخيفنا الإرهاب، ولن يثنينا عن أهدافنا التهديدات، وسنمضي قدما في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي التعريف بالإسلام حتى يعرف الناس أنه دين سلام وأمان يحقق الخير والسعادة للمجتمع البشري في كل زمان ومكان، ونسأل الله أن يعيننا على أداء هذا الواجب الديني، وأن يوفقنا لكل ما يحبه ويرضاه. والسلام عليم ورحمة الله وبركاته.

صوت الحق

محمد الأمين ولد أباه(*)

قد آن أن تقرع الأسماعَ ألحانٌ   رنات لفظ مع القرآن أقرانٌ
إذا القريضُ خلتْ عن لفظه حِكَمٌ   فذا لعمريَ تقطيعٌ وأوزانٌ
قد كُنْتَ يا أدبَ الإسلام رمز حضا   رةٍ وأنت لها عونٌ وعنوانٌ
وأنت يا أدبٌ عقدٌ وواسطة   ولؤلؤٌ ويواقيتٌ ومرجان
بل أنت مشكاة نور يستضاء بها   هديٌ وأمنٌ وإيمان وإحسانٌ
أزمانَ أزمانَ فيها الشمل مجتمعٌ   والجُرح مُلتئم والناسُ إخوانٌ
قد كنت أجدى سلاح عندما زحفتْ   خيلٌ ورجْلٌ من الأعدا وفرسانٌ
أقصيت قيصرَ عن عرش لديه وقد   كسرتَ كسرى فلا يؤويه إيوان
أيام كان لصوت الحق صولتُه   واللفظ والرمح في الهيجاء خِلان
كعبٌ علا كعبُه في نصر خير هدى   كما أجاد بذا الميدان حسان
قوم حموا دينهم لله درهمُ   قومًا فما وهنُوا يومًا ولا هانُوا
أقوالهم أسْمعتْ من عنده صَممٌ   كما استنارتْ من الأنوار عميان
مضى الزمانُ وحالت دونه دُوَلٌ   لا هوّ هوّ ولا الأزمان أزمان
والآن من قال حقا يستحق به   عصا إذا ما بدا من ذاك عصيان
أو سَجْنُهُ زمنا في قعر مُظلِمَةٍ   ضربٌ وقيد وإذلال وإذعان

(*) الجامعة الإسلامية بالنيجر.

ظلم وكيد يعاني من جحيمهما شعب العراقِ وعانَتْ منه إيران

وفي فلسطين ما تدمي القلوب له غصب وقتل وتشريدٌ وطغيان

كذا كسوفوا وألبانٌ بها كسفت شمس الحقوق وشيشانٌ وسُودان

وهذه دولة الأفغان قد سحبت فيها من الهون أذيالٌ وأردان

وما نقاسيه من ضَعفٍ ومن خَوَرٍ خوف العدا شاهدٌ في ذا وبرهان

إلى متى ورياحُ الغربِ تأمرنا كأنها عندما توحِي سليمان

وهل سنبقى مدى الأيام إمَّعَةً فلا شروط لنا تملى وأركان

هيا أيا أدبٌ أدرك هويتَنا قد طَمستْها أكاذيبٌ وبهتان

وارفع كما كنت ما قد حل من وصم بالمسلمين فيزدانو كما كانوا

ثم الصلاة على من قال أدبني فَأُدِّبَتْ منه أرواح وأبدان

شعر الدعوة في كتاب إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور

(للشيخ محمد بلو بن عثمان فودي)

د. محمد خليل(*)

ظل الشعر حاضراً في مجال الدعوة الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليوم(1)، وبقي عدد من الشعراء يدعمون بقصائدهم جهود المجاهدين بسيوفهم في نشر رسالة التوحيد في مشرق الأرض ومغربها، شعوراً منهم بما للكلمة الشعرية الهادفة من تأثير في النفوس والعقول على السواء، ونحاول في هذه المداخلة أن نتعرف على مدى استثمار هذا الشعر في مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية في هذا الجزء من العالم الإسلامي (دولة النيجر وما يجاورها)، خلال القرن الهجري الثالث عشر (التاسع عشر الميلادي)، وذلك في عهد دولة الفولاني الإسلامية التي قامت في هذا الجزء من إفريقيا المسلمة، لمدة تناهز قرنا من الزمن (من 1804 إلى 1903م). ومادتنا الشعرية التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، هي الواردة في كتاب إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور(2)، لمؤلفه الشيخ محمد بلو ابن مؤسس هذه الدولة الشيخ عثمان بن فودي(3)، ولذلك رأينا أنه

(*) جامعة الحسن الثاني، عين الشق - الدار البيضاء، المغرب.

(1) لا يخفى الدور الذي اضطلع به شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم في الذود عن الإسلام، وكان صلى الله عليه وسلم يشجع شعراء المسلمين على ذلك في مثل قوله صلى الله عليه وسلم مخاطبا الشاعر حسان بن ثابت "أهجهم وروح القدس معك".

(2) نشره معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس السويسي، الرباط، المغرب، وطبع بمطبعة المعارف الجديدة بالرباط، سنة 1996م، ويتألف من 370 ص من القطع الكبير، قامت بتحقيقه الأستاذة الدكتورة بهيجة الشاذلي أستاذة التاريخ بكلية الآداب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، الدار البيضاء، المغرب.

(3) عاش ما بين سنتي 1754 و 1817م، وقد شغلت ترجمته حيزاً كبيراً في هذا الكتاب (إنفاق الميسور)

من الأفضل التعريف في البداية بهذا الكتاب وبمؤلفه قبل محاولة دراسة مادته الشعرية.

الكتاب:

للكتاب أهمية تاريخية وأخرى دينية، فأهميته التاريخية تتجلى في احتوائه على تاريخ جزء من بلاد السودان الذي كان يطلق من قبل على كل البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، أما بلاد التكرور فهو يطلق - حسب تعريف المؤلف - على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني من بلد فور[1] إلى بلد فوت وما وراءها وما والاها، بيد أن هذا التاريخ مقتصر على المرحلة التي كان فيها الشيخ أبو محمد عثمان بن محمد بن عثمان المعروف بابن فودي[2]، يدعو إلى الله ويدل عليه، ويكابد ما هو المعهود من أخلاق الناس من الجفاء والانكار والاستهزاء، وقد لقي من جفاوتهم ما لا يستطيع أن يصفه الواصف، حتى أتاح الله تعالى له أن صمد إليه الموفقون، واستمع إليه نفر من المؤمنين، فجعل يقرر للناس الحق، ويبين لهم الطريق، وقد وجد في هذه البلاد من أنواع الكفر والفسوق والعصيان أموراً قظيعة وأحوالا شنيعة، طبقت هذه البلاد وملأتها، حتى لا يكاد يوجد في هذه البلاد من صح إيمانه، إلا النادر القليل، ولا يوجد في غالبيتهم من يعرف التوحيد ويحسن الوضوء والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات، فمنهم كفار يعبدون الأشجار والأحجار والجن، ويصرحون على أنفسهم بالكفر، ولا يصلون ولا يصومون ولا يزكون، ويسبون الله ويقولون في حقه ما لا يليق بجنابه الأعلى. وهؤلاء غالب عامة السودانيين الذين يقال لهم ماغداوا، وبعض عتاة الفلانيين والطوارك، ومنهم قوم يقرون بالكلمة ويصلون ويصومون ويزكون من غير استكمال للشروط، بل يأتون في ذلك كله بالرسم والعلامة، ويخلطون هذه الأعمال بأعمال الكفر الذي

---

(1) ذكر المؤلف أن فور تقع شرقي البلاد، وتليها غربا وداي وباغرم، وهو بلد واسع ذو أشجار وأنهار ومزارع، قوت أهلها الدخن والذرة والدرج، وفيها رعاة كثيرون، ويعمرها عجم مستعربون، وعرب مستعجمون، قد فشا فيها الإسلام كثيراً، وأهلها أكثر أهل القطر حجاجاً، وأما ما حاذى هذه البلاد من جهة الشمال فقفار ورمال معاطيش، ولا تعمرها إلا الرعاة في فصل الربيع من البربر والعرب المذكورين، وأما ما حاذى بلاد فور من جهة الجنوب فبلاد كثيرة، يعمرها أجلاف السودان على اختلاف ألسنتهم، لم ينتشر فيها الإسلام كثيراً، (إنفاق الميسور، ص 49).

(2) إنفاق الميسور، ص 47.

ورثوه عن آبائهم وأجدادهم[1]، فالكتاب لم يتجاوز في تاريخه هذه المرحلة، ويمكن القول بأن التاريخ في هذا الكتاب يتألف من قسمين متداخلين[2].

- أولهما يضم التعريف بأقاليم بلاد التكرور، فيعرف بأهم الأحداث التي عرفها كل إقليم وبعدد من الشخصيات السياسية والعلمية.

- والثاني، وهو المهم، يفصل فيه المؤلف القول حول والده الشيخ عثمان فودي فيترجم له ويتحدث عن تأسيسه لدولته، ويصف الغزوات التي قادها عثمان نفسه أو كلف بعض رجاله بقيادتها.

أما أهميته الأدبية فتتجلى في احتوائه على كم مهم من القصائد والمقطعات الشعرية المواكبة لهذا التاريخ، والتي صدرت عن مجموعة من الشعراء الذين شاركوا في تلك الأحداث والوقائع والغزوات حسب تعريف المؤلف، مما سيأتي تفصيله لاحقا.

التعريف بالمؤلف:

عاش الشيخ محمد بلو ما بين سنتي 11951253-هـ - 1880-1737م، درس العلوم الإنسانية على يد والده، والعربية والبلاغة على يد عمه، واستكمل تكوينه المعرفي من خلال ما تلقاه على يد عدد من علماء بلاد السودان، "وقد بقي طالبا للعلم طوال حياته، فكان يقطع المسافات بحثا عن الكتب"[3].

قضى الشيخ محمد بلو حياته في نشر العلم بين أهل الهوسا، اقتناعا منه أن كل المشاكل التي تشكو منها البلاد راجعة إلى تفشي الجهل بين الأهالي، كما عرف بقوة شخصيته وهيبته ووقاره إلى جانب تواضعه.

كان في عهد والده الشيخ عثمان فودي ساعده الأيمن، وشاركه في الحركة الجهادية التي قادها من أجل نشر الدعوة الإسلامية، "بل كان له النصيب الأوفر في التخطيط لها ودفعها في الاتجاه الذي سارت فيه، ثم كان عليه بعده أن يتولى عبء

---

(1) إنفاق الميسور، ص 82-83.

(2) بمعنى أن المؤلف لم يقسم كتابه إلى هذين القسمين ولكنهما موجودان ضمنيا.

(3) إنفاق الميسور، ص 9.

تنفيذ هذه المخططات والوصول بها لأهدافها، خاصة وأن الشيخ فضل في ختام حياته أن يعتزل شؤون الحكم والإدارة"[1]، ثم واصل حمل هذه الأمانة بعد وفاته، إذ تولى حكم الدولة التي أسسها والده لمدة عشرين سنة، أي إلى أن توفي سنة 1253هـ، 1837م.

خلّف محمد بلو أزيد من مائة مؤلّف، في شتى المعارف في التاريخ، والتصريف، والحث على الجهاد، والطب، والعلوم، والسياسة[2]. ومن هنا يتضح أن مؤلفاته تعكس بوضوح مختلف المجالات التي وضع فيها بصماته، مما يجعله أحد كبار أعلام هذا الجزء من العالم الإسلامي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.

شعر الدعوة في كتاب إنفاق الميسور:

يحتوي هذا الكتاب على مادة شعرية مهمة، تندرج كلها ضمن شعر الدعوة إلى الالتزام بأصول العقيدة الإسلامية، والتمسك بقواعد الشريعة السمحة، فضلا عما تقدمه من تسجيل أمين لما تحملته طائفة من الدعاة في نشر الدعوة الإسلامية في تلك الربوع، وفي العمل على تصحيح عقيدة طوائف من السكان الذين انحرفوا إلى ممارسة بدع بعيدة عن مبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

وهذه المادة الشعرية تتكون من أربعين نصا، يتقاسمها ثمانية شعراء من السودان الغربي، منها:

* ثلاثة وعشرون قصيدة، تتراوح أبياتها بين ثمانية أبيات وخمسين بيتا، ومجموعها سبعة وستون وأربعمائة (467) بيت.

* سبعة عشر مقطوعة ونتفة، تتراوح أبياتها بين بيت واحد وستة أبيات، ومجموع أبياتها خمسة وأربعون (45).

---

(1) شوقي عطا الله الجمل، عثمان بن فوديو وسياسة الجهاد الإسلامي التي اتبعها، مجلة البحث العلمي، س 13، ع 1976/26، إصدار المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب.

(2) انظر لائحة هذه المؤلفات في إنفاق الميسور، ص 17- 29.

ويمكن تصنيف المجالات أو القضايا التي تناولها هذا الشعر إلى ما يلي:

(أ) محاربة البدع وتحذير المبتدعين:

تأسست دولة الفولاني الإسلامية سنة 1804م، على يد والد المؤلف الشيخ عثمان بن محمد فودي، وذلك من أجل العمل على نشر وإرساء العقيدة الإسلامية الصحيحة في أوساط أهالي بلاد الهوسا، في وقت بدأت فيه البدعة والشعوذة تنتشران في هذه المنطقة، مما أصبح يشكل خطراً على الوجود الإسلامي فيها، ولذلك تصدى رجال هذه الدولة لمختلف الطوائف والحركات التي كانت تعتنق عقائد تمتزج فيها ملامح من العقيدة الإسلامية بقدر كبير من الممارسات التي لا صلة لها بالدين الإسلامي الحنيف.

لهذا السبب احتل الشعر الداعي إلى محاربة البدع المتفشية في القوم حيزاً مهما، وهو يصور بجلاء ما كابده هؤلاء المجاهدون الدعاة في سبيل الحث على التمسك بمبادئ الإسلام الحق، والابتعاد عن سبل الضلالة والغي، فمن ذلك قول أخ الشيخ عثمان ووزيره الأستاذ عبد الله في قصيدة من أربعين بيتا:

ألا من مبلغ عني لدادي ... وزيد وكل ثاو في بلاد
ولاة الكفر خوف فوات مال ... وطمع سلامة من ذي فساد
بأن لم يبق بين المسلمين ... وبينكم علامات الوداد
خذلتم جمع إسلام جهاراً ... رضىً منكم موالاة الأعادي
نسيتم ما قرأتم في الكتاب ... لذا أخطأتم سبل الرشاد
ألَمَّا يكفكم أن يثقفوكم ... ولا يألونكم في ذا المراد[1]

واسترسل الشاعر في مخاطبة خصومه، فيشبههم بالأقوام البائدة التي ورد ذكر قصصها في القرآن الكريم (عاد وثمود)، لينتقل إلى الحديث عن عزم المجاهدين على بذل أقصى الجهود في سبيل نشر عقيدة التوحيد، فيقول:

---

(1) إنفاق الميسور، ص 160.

أميـر المـؤمنين لنا أميـر وصـرنا كلنا أهل الجـهـاد
نجـاهد في سـبـيل الله دومـا فنقـتل أهل كـفـر والعناد
سلوا شيطان غـوبر وهو ينفى وهل لم ينف من بين البـلاد
وقـد جـمع الجـمـوع لقطع دين ونادى في المـدائن كل ناد
وفـوقـهـم سـوابغ من دروع وتحـتـهم العـتـاق من الجـياد
فـسـاروا يقـتلون ويأسـرون ذوي الإسـلام رومـا للفـسـاد
فـلاقـيناهم يوم الخـمـيس بغـردم قـبل ظهـر في النجـاد
كـأن سـهـامـهم لا نَصلَ فـيـهـا وأسـيـفَـهم بأيدٍ للجـمـاد
كـأن رمـاحـهم بيـدي عـمي فـولوا هـاربين بغـيـر زاد
فـشـتت جـمـعـهم وهُمّ عطاشٌ حـيـارى مـثل غـوغـاء الجـراد
فلم يرجع لهم ثوب صـحـيـح وكل قـد تمـزق في الوهـاد
فليـسـوا راجـعـين إلى قـتـال لنا فـيـهـا إلى يوم المـعـاد(1)

وفي وصف عقـائد هذه الطوائف التي كان رجال دولة الشيخ عثمان فودي يحاربونها، يقول محمد بلو: "أخذوا من العبادات قدر ما يتنظفون به ويتسترون، فيأتون بصورة الصلاة والصيام والزكاة، ويتلفظون بكلمتي الشهادة من غير مراعاة لشروط ما ذكر، وأما الأحكام فهم متجمدون على ما وجدوا آباءهم الأسلاف الذين لم يقروا بالإسلام، ولم يدعوه لأنفسهم، وغالب أحكامهم مصادم للكتاب والسنة وإجماع الأئمة كما هو معلوم مشهور، مع أنهم مغترون بأقوال وأفعال لا تصدر إلا من كافر، فلا جرم أن ظهور الدين وقيام الشرع لا يوافقهم، فلذلك أجمعوا كيدهم على نصب القتال بينهم وبين الشيخ وجماعته (2)، ويقول محمد بلو في مخاطبتهم:

---

(1) إنفاق الميسور، ص 162.

(2) إنفاق الميسور، ص 141.

ألا أبلغن عني وإن كنت نائيا ... وُلَاةً يروح الجور منهم ويرجع

فإن تنتهوا عن غيكم قد رشدتم ... وإلا فحرب بيننا (فتوقعوا) [1]

وإن نحن أوذينا نفر بديننا ... إلى الله إن الأمر لله أجمع[2]

وكان قراء هذه البلاد وما قرب منها، معتنين بعلم الأوفاق والحروف، وعلم النجوم، مستغرقين في طلبها، حريصين على ذلك حتى هجروا علم الكتاب والسنة والشريعة أصلا، رغبة في الدنيا[3]. وفي هؤلاء يقول الشيخ عثمان فودي :

من عذيري من أناس نجموا ... أفسدوا الدين وأبدوا كل ضر

تركوا علم الكتاب المنزل ... وحديثا جابه هادي البشر

وعلوم الشرع والفقه التي ... تنفع المرء وتحميه الخطر

صرفوا الهم إلى مكسبهم ... لحطام زائل لا يستقر

آثروا الدنيا على أخراهم ... لم يبالوا ما يوديهم لضر

وعلى وفق رووه حيلة ... لاكتساب المال والجاه المضر

جعلوه وصلة تدنيهم ... من بني الدنيا فآبوا بغرر

لقبوه علم سر كذبوا ... ما هو بالسر لكن علم شر[4]

يصف محمد بلو أحوال حكام هذه البلاد وطقوسهم التي كانوا يمارسونها قائلا: " حدثونا أن لسلاطينهم وأمرائهم اليوم، مواطن يركبون إليها ويذبحون بها ويرشون بالدماء على أبواب قريتهم، ولهم بيوت معظمة، فيها حيات وأشياء يذبحون لها، ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية، ولهم في ذلك أعياد يجتمعون فيها هم وقراؤهم وسلاطينهم وعامتهم، ويسمون ذلك عادة البلد، ويزعمون أن ذلك صدقات يستعينون بها على جلب المصالح ودرء المفاسد، فإذا لم تفعل بطلت معائشهم وقلت أرزاقهم وضعفت شوكتهم، ولا شك في كفرهم، وإن كان

---

(1) في الأصل فتوقعن، وذلك غير مطابق للمعنى.

(2) إنفاق الميسور، ص 140.

(3) نفسه، ص 51.

(4) نفسه، ص 51-52.

علماؤهم يدعون أنهم لا يريدون بذلك الإشراك، ولا يعتقدون التأثير، فهم كفار لأن هذه الأصنام من الأشجار والمياه والأماكن التي يذبحون بها كانت أصنام أجدادهم الذين لم يسلموا من قبل، فهم في ذلك مقلدون لهم وإن تظاهروا بالإسلام والخير بعد، لأن الإسلام في هذه البلاد إنما ورد به التجار والمسافرون، فأخذ الله من أخذه منهم، فمن الناس من خلص دينه كما ينبغي، ومن الناس من خلطه بما يناقضه" (1).

(ب) التوجيه والإرشاد:

وضع هؤلاء الشعراء هذه المهمة في مقدمة ما كانوا يعتقدون أنهم مطوقون به، إيمانا منهم أن الدعوة الإسلامية في بدايتها قامت على الدعوة بالتي هي أحسن، مصداقا لما ورد في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ولذلك نجد المؤلف حريصا على إعادة التذكير بأن هؤلاء الدعاة لم يحيدوا قط عن استمداد أسس دعوتهم من القرآن الكريم والسنة النبوية.

ونقتطف من قصيدة في 50 بيتا للوزير عبد الله هذا النموذج الذي يخص أسس التوجيهات والإرشادات التي كان هؤلاء الشعراء الدعاة يخاطبون بها خاصة الناس وعامتهم:

ألا أبلغن عني لحي رسالة   تعيها رجال أو نساء صوالح

لعالمهم أو طالب العلم رائد   لإظهار دين الله فيه يناصح

أقول له قم وادع للدين دعوة   تجبها عوامٌ أو خواصٌ جحاجح

ولا تخش في إظهار دين محمد   بقولة قال تأتسيه كناتح

ولا تخش تكذيبا وإنكار جاحد   وهزء جهول ضل والحق صابح

وغيبة هماز وضغن مشاحن   يساعده من للعوائد راكح

وليس لما تبني يد الله هادم   وليس لأمر الله إن جاء ضارح

---

(1) إنفاق الميسور، ص 56-57.

ومنكر هذا الدين قد خف وزنه ومظهره ميزانه اليوم راجح
وناصره قد صار في الناس عاليا ومنكره للخاص والعام راجح
ومن كفر الأنعام واتبع الهوى ففي بدنه بله القيامة طائح(1)

ولا ينسى الشعراء التأكيد على أن جهادهم يرمي إلى تحقيق هدف سام هو الدفاع عن عقيدة التوحيد الإسلامية، وإنهم لا يَسْعَوْنَ أبدا إلى إلحاق الأذى بأحد، وهذا ما نجده في قول الشاعر محمد بلو:

ألا من مبلغ عني الأمينا رسالة ناصح يبدي اليقينا
نعلم إننا مما رمينا به برءاء فأوف العذر فينا
وأنا ما تغلبنا عليهم علُوّاً وفساداً قاصدينا
ولكن حين أخرجنا اعتداء وبغيا صاح قمنا دافعينا
تبين أمرنا هذا أخانا وفتشه ولا تعجل علينا
فدع عنك الكون إلى الأعادي ونصر الظالمين الفاجرينا
وتعلم أنهم أهل اعتداء ووال أخا الصلاح المومنينا
وخاللهم وظاهرهم عليهم فإن الله مخزي الكافرينا (2)

(ج) الحث على الجهاد ووصف الغزوات:

يتجاوز عدد الغزوات التي ورد وصفها في هذا الكتاب ثلاثين غزوة، ويؤكد المؤلف أنها كلها كانت من أجل مواجهة الخارجين عن الدين، بأي شكل من الأشكال، ونشر وترسيخ أسس العقيدة الصحيحة، وقد كان قسط مهم من هذا الشعر، يهدف إلى الحث على القيام بهذه الغزوات، أو وصف الانتصارات التي حققها المجاهدون، مؤكداً أنها من صميم الجهاد في سبيل الله، فمن ذلك قول الأستاذ عبد الله، أخو الشيخ عثمان ووزيره، من قصيدة في 38 بيتا، إثر انتصارهم في غزوة "كَبْ":

---

(1) نفسه، ص 90.

(2) إنفاق الميسور، ص 274-275.

تذكرت والذكرى تثير لذي النوى ... هموما وفي الذكرى تهب صبا الهوى

أخلاء ماتوا في الجهاد وغيره ... وبُعْدِيَ عن شيخ فأرقني الجوى

فمن مبلغ عني بني وإخوتي ... وأهلي وجيراني ومن معهم ثوى

بأني ودندا مع علي وجمعنا ... وأفراسنا في الفتح والعز والروى

فتحنا حصونا بين كند وكنددا ... تزيد على عشرين بالقهر والقوى

وسالمنا رغما سواها فأسلمت ... بظاهرها والله يعلم ما انطوى(1)

ففي هذا المقطع يبرز امتزاج فرحة النصر بالحزن على فراق الأحبة الذين استشهدوا في الغزوة، كما يبرز حرص الشاعر على تصوير دقائق وتفاصيل ما جرى فيها، وعلى هذا النمط نسج الشاعر بقية أبيات قصيدته التي ختمها بقوله:

فلما رأونا لا نمل جهادنا ... لقتل وأسر جلهم خاف فارعوى

ففروا إلى البلدان شتى وجمعهم ... كجمع أناس كان في سبإ ثوى

فلله حمداً أولا ثم آخراً ... فقد تم نظمي وهو حال لمن روى(2)

د. الحمد والشكر:

لا شك أن نشوة النصر على أعداء الدين، تستوجب الشكر والحمد للواحد القهار، الذي أعان المجاهدين على ذلك، ولهذا كانت هذه المناسبات تثير الشعراء وتحفزهم على شكر الله تعالى، وتبيان ذلك أن ذلك النصر لا يجب أن يؤدي إلى الغرور، ولكن يجب أن يزيد المجاهدين ثباتا، ويشجعهم على التأهب لتحقيق المزيد من الانتصارات، فمن ذلك قول الوزير عبد الله:

بدأت بحمد الله والشكر يتبع ... على قمع كفار علينا [تجمعوا](3)

ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من ... بلادهم والله في الفضل أوسع

توارك مع غوبر وينف سَفِيْهُهُمْ ... بحزبهم والله يرى ويسمع(4)

(1) نفسه، ص 182.

(2) نفسه، ص 184.

(3) في الأصل [جمع].

(4) إنفاق الميسور، ص 150.

وبعد أن أفاض في وصف الانتصارات التي حققها المجاهدون، ختم قصيدته المؤلفة من 38 بيتا بهذا المقطع:

فيا أمة الإسلام جدوا وجاهدوا ... ولا تهنوا فالصبر للنصر مرجع

فقتلاكم في جنة الخلد دائما ... وراجعكم بالغزو والمال يرجع

فليس لما تبني يد الله هادم ... وليس لأمر الله إن جاء مدفع

فقد تم وعد الله في نصر دينه ... ولم يبق إلا شكره والتضرع[1]

ويقول في قصيدة أخرى في اثنين وعشرين بيتا:

حمداً وشكراً طيب الأنفاس ... لله ذي الآلاء رب الناس

يعطي ويمنع من يشاء بفضله ... وبعدله لا يهتدى بقياس

فيعز من والاه في آلائه ... ويذل من عاداه بالأرجاس[2]

ويختمها بقوله:

ما مسنا سهم ولا رمح ولا ... سيف كمن آبوا من الأعراس

لله حمد والصلاة على العلا ... خير الورى والآل والأكياس[3]

(هـ) مدح الشيخ عثمان فودي:

أشرنا من قبل إلى أن الشيخ عثمان فودي أسس الدولة الفلانية التي عاشت قرنا من الزمن، وهو الذي قضى حياته يدعو إلى الله وينصح العباد في دين الله، ويهدم العوائد الرذيلة، ويخمد البدع الشيطانية، ويعلم الناس الأعيان، ويدلهم على الله ويرشدهم إلى طاعته، ويكشف لهم الجهالات، ويزيل لهم الإشكالات، فسارع إليه الموفقون، وصمد إليه السعداء المهتدون، فجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وترادفت إليه الوفود أمواجا، وهو يقرر لهم الطريق ويبين لهم الحق[4]، ولهذا نال تقديرا خاصا من الشعراء الذين مدحوه بقصائد شعرية، تكشف عن هذا الاحترام الفائق الذي كان يحظى به عندهم، فمن ذلك قول أخيه الأستاذ عبد الله:

---

(1) إنفاق الميسور، ص 159.

(2) نفسه، ص 224.

(3) نفسه، ص 226.

(4) نفسه، ص 84.

عثمان من قد جاءنا في ظلمة | فأزاح عنا كل أسود دجدج
فدعا إلى دين الإله ولم يخف | في ذاك لومة لائم أو فجفج
فانصات خلق حين صات لصوته | وعلا له صيت فويق الأبرج
بشرى لأمة أحمد ببلادنا السـ | ـودان في هذا الزمان المبهج
كم سنة أحييتها وضلالة | أخمدتها جمراً ذكا بتأجج
وطلعت في الأرض عوائدها عدت | وتخالفت سنن النبي الأبهج
فقصمتها بالبيض من آياته | وأسنة سنن النبي الأدعج
صلى الإله عليه ما هز الصبا | عذبات غصن في الرياض خبربج[1]

(و) مدح ورثاء الشيوخ والعلماء:

سبق لنا أن أشرنا إلى أن المؤلف محمد بلو كان يعتبر أن انتشار الجهل في بلاد التكرور أكبر عائق يحول دونها وتمكنها من أسباب التقدم، وأن رفع الجهل عن الناس يسهل نشر الإسلام في المنطقة، وتصح عقيدة الناس، ولذلك أعطيت للعلماء في هذه البلاد مكانة بارزة ومتميزة، تقديراً لأهميتهم، وخطورة الأمانة التي يتحملونها في سبيل توجيه وتوعية الأمة، وأيضا اعترافا بجميلهم، وعند وفاة أحدهم يسارع الشعراء إلى رثائه وتعداد فضائله ومحامده، ونمثل لذلك بالشيخ المختار الوافي[2]، الذي مدحه الشعراء بمجموعة من القصائد التي تشهد بما كان يحظى به عندهم وعند غيرهم من تقدير.

يقول فيه الأستاذ الوزير عبد الله :

بلغ شريف أصل كاسمه | عني لشيخ كاسمه المختار
أزكى سلام شيب مسكا من الـ | ريح النسيم تهب في الأشجار

---

(1) إنفاق الميسور، ص 80.

(2) عاش ما بين سنتي 1142 و 1226هـ أسس الطريقة/المدرسة الكنتية القادرية. انظر ترجمته في إنفاق الميسور، ص 321-328، وفي بحث لمحمد المنوني: "المدرسة الكنتية نموذج للدعوة والإرشاد بإفريقيا والمغرب في العصر الحديث" حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق - الدار البيضاء، ع 4، 1987م، ص 91-103.

شمس المشارق والمغارب كلها قطب الزمان وحلية الأبرار

أخبره أنا لائذون بذيله أبدا وإن كنا بذي الأقطار

متعلقين به نروم دعاءه ونشيم منه سحائب الأمصار

فالله ينفعنا به وينيلنا بركاته بنبينا المختار

صلى الإله عليه مع أصحابه ما سارت الركبان بالأخبار(1)

ويقول فيه عثمان فودي :

بلغ تحيتي إلى المختار سراجنا في هذه الأمصار

وقل له ليدع بالخيرات في هذه الدنيا وفي الممات

وفي حلول القبر والقيام بلغه يا شريف بالإسلام

يا رب زد لشيخنا المختار كرامة التوفيق في الأخيار

وانصره يا رب على الأعداء وأعطه بأحسن الجزاء(2)

ويقول محمد بلو في مدح الشيخ جبريل:

شيخ الشيوخ بأرضنا جبريل بركاته ما نالها تفصيل

كشفت به ظلم الضلال كأنه في كشفها ببلادنا قنديل(3)

نستخلص من هذه الإطلالة على ما يتضمنه هذا الكتاب من الشعر، أن أصحابه كانوا جد حريصين على أن يحققوا بشعرهم العربي الفصيح أهدافا عديدة، على الرغم من كونهم ليسوا عربا ولا يعيشون في بيئة عربية، ولعل من هذه الأهداف ما يلي:

1. استنهاض همم المجاهدين.

2. المحافظة على اللغة العربية لغة القرآن الكريم عماد الدين الإسلامي، وإشعار المحيط الذي يوجدون فيه أنها هي اللغة التي تساعد على ترسيخ العقيدة الإسلامية في النفوس.

---

(1) إنفاق الميسور، ص 322.

(2) نفسه، ص 323.

(3) نفسه، ص 79.

3. صد ومواجهة حملات التنصير أو التمسيح التي بدأها الأوربيون في ذلك الوقت، وفي مختلف أصقاع القارة الإفريقية.

ولعل بقاء الإسلام سائداً وشامخاً في هذه الأقاليم إلى اليوم يرجع إلى هؤلاء الفضلاء رحمهم الله وأسكنهم فسيح جنانه.

وفي الختام أشير إلى أنه لا حاجة إلى الوقوف على الجانب الأدبي (الفني) لهذا الشعر، فأصحابه كانوا، فيما يبدو، يهدفون أولا إلى توثيق عملياتهم الجهادية من جانب، وإلى إبراز الدوافع الكامنة وراء تلك العمليات من جانب آخر، و"إنما الأعمال بالنيات".

حول ديوان الشعر العربي في إفريقيا

د. عبد اللطيف عبيد(*)

تُذكّر هذه الورقة القصيرة على واجباتنا، عربا وأفارقة، نحو الشعر العربي الإفريقي، سواء ما كتبه شعراء أفارقة قديما أو حديثا، أو شعراء عرب، عاشوا أو يعيشون في الأقطار الإفريقية جنوب الصحراء. وعندما نتحدث عن شعر عربي كتبه شعراء عرب عاشوا في إفريقيا، فإننا - بذلك - نثير مسألة لم تطرح من قبل طرحا واضحا، وهي مسألة الأدب المهجري الإفريقي، الذي عرفته بعض الأقطار الإفريقية، وإن لم يزدهر ازدهار الأدب المهجري في أمريكا.

إن الشعر العربي في إفريقيا، هو أحد مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في هذه القارة، كما أن حيويته فيها هي أحد مظاهر حيوية اللغة العربية. وقد جعل الدين الإسلامي الحنيف من اللغة العربية لغة المسلمين جميعا، لا لغة العرب وحدهم، وإن الاعتزاز باللغة العربية يشترك فيه كل المسلمين، الذين لا فرق بين العربي منهم والأعجمي إلا بالتقوى.

وبالإضافة إلى هذه القيم المبدئية والأسس الحضارية، ينبغي أن نشير إلى أن اللغة العربية تعد بشريا وجغرافيا وتاريخيا، إحدى اللغات الإفريقية، بل اللغة الإفريقية الأولى؛ من ذلك أن حوالي 75 % من العرب أفارقة، وحوالي 28 % من الأفارقة عرب، وأن ما يزيد عن 75 % من مساحة الأقطار العربية تقع في إفريقيا حوالي (10 200 000 كم^2) من مجموع مساحة الوطن العربي التي تقدر بـ (13 700 000 كم^2).

(*) المعهد العالي للغات، تونس.

إن الشعر العربي الذي كتبه أفارقة غير عرب يعد شعراً غزيراً جيداً، جديراً بالعناية والاهتمام، جمعاًوتحقيقاً، ونشراً ودراسةً، وقد كتب الشعراء الأفارقة في جل أغراض الشعر العربي المعروفة، من مدح، وفخر، ورثاء، وغزل، ووصف، إضافة إلى كتاباتهم في الأغراض الاجتماعية والوطنية والموضوعات التعليمية، إلا أن شعراء إفريقيا قد برعوا أيما براعة في كتابة الشعر الصوفي خاصة، والشعر الديني عامة، فجاءت قصائدهم في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، والتشوق إلى زيارة الحرمين الشريفين، والوعظ والإرشاد، والحكمة والاعتبار .. الخ، قصائد عذبة جزلة، راقية اللفظ والمعنى، تذكرنا بـ " البردة" للبوصيري، وتفوق جمالا وروعة، فيما نعتقد، شعر المتصوفة الفلاسفة، كالحلاج وابن عربي، إذ أن تصوف شعراء إفريقيا تصوف سني، هو إلى الزهد والورع والتقى أقرب.

وقد لاحظنا في شعر السنغاليين، كالحاج عباس صال، والشيخ أحمد بمبا، والشيخ إبراهيم نياس، وغيرهم من فطاحل الشعر العربي الإسلامي في هذا القطر الإفريقي المسلم، تفننا كبيراً في النظم، وتصرفاً عجيباً في الصناعة الشعرية، فقد كتبوا القصائد المشطرة، والمربعة، والمخمسة، والتزموا ما لم يلزم، وكتبوا القصائد المقيدة أو المتوجة بحروف آيات القرآن الكريم، وبحروف أحاديث وأمثال وحكم .. الخ، وهو ما يجعل إسهامهم وإسهام أمثالهم من شعراء أقطار إفريقية أخرى، مثل مالي والنيجر وتشاد والصومال وزنجبار .. في الحركة الشعرية العربية عامة إسهاماً كبيراً.

وإن الأهمية الكمية والنوعية للشعر العربي في إفريقيا هي التي تدفعنا إلى الاهتمام به وإيلائه ما هو جدير به من عناية ورعاية. وقد أثر الشعر العربي في الشعر الإفريقي المكتوب باللغات الوطنية الإفريقية، فأصبح يكتب على أوزان الشعر العربي المعروفة، وهو ما يدل على أن الشعر العربي أصبح مكونا رئيسا من مكونات الثقافة الإفريقية.

أما الشعر الإفريقي الذي كتبه شعراء عرب عاشوا في إفريقيا واستقروا فيها نهائيا أو لفترات طويلة، بما جعل منهم مواطنين ينتمون إلى الأقطار الإفريقية المعنية، فهو أيضا شعر مهم، وإن لم يظهر إلا في بعض الأقطار، أخصها أقطار غرب إفريقيا، كالسنغال، والكوت ديفوار (ساحل العاج)، وكان من الصدف السعيدة

أثناء زيارتي للسنغال في السنوات الأخيرة أن التقيت بشاعر عربي إفريقي كبير، لبناني الأصل، تجاوز السبعين من العمر، ويمارس التجارة، ويقيم بالسنغال (مدينتي كولخ ودكار) منذ أكثر من خمسين عاما، وبالضبط منذ 1947م. وقد تأكد لدي من الاطلاع على شعر هذا الشاعر الكبير، واسمه منير صالح، والتعرف على مسيرته الأدبية أن الحركة الشعرية العربية في المهجر الإفريقي، وبخاصة في السنغال وسائر أقطار غرب إفريقيا قد نشطت كثيراً في الخمسينات من القرن العشرين، وكانت لها مجلات أدبية شبه دورية، وإصدارات قليلة بسبب الظروف الصعبة التي عاشها شعراء المهجر الإفريقي، خلافا لما حظي به شعراء المهجر الأمريكي.

وهذه الحركة الشعرية المهجرية تحتاج أيضا إلى أن تدرس وتجمع نصوصها وأدبياتها ويعرف بأعمالها.

إن الشعر العربي في إفريقيا قد حظي ببعض الدراسات المهمة، لكن الجزئية أو القطرية. ومن أهم ما نذكره في هذا الصدد دراسة الدكتور عمار صمب عن الشعر العربي في السنغال، لذلك فإن لنا واجبات عديدة نحو هذا الشعر، ينبغي أن تهدف إلى التعريف به التعريف الجيد، وإلى إبراز قيمته ومنزلته ضمن تاريخ الشعر العربي عامة، ومن واجبنا أن نعمل على إنجاز ما يلي:

1. دراسة مسحية ميدانية عن الشعر العربي في كل قطر إفريقي، بهدف وضع قائمة بأسماء الشعراء الأفارقة منذ دخول اللغة العربية والدين الإسلامي إلى القطر المعني، ووضع تراجمهم، وتجميع أكثر ما يمكن من إنتاجهم الشعري المطبوع والمخطوط.

2. تحقيق المادة الشعرية المجموعة، تحقيقا علميا منهجيا.

3. تخزين المادة الشعرية إلكترونيا، وتدقيقها وتشكيلها.

4. تبويب المادة الشعرية حسب البلدان والأغراض.

5. دراسة مسيرة الشعر العربي في كل قطر إفريقي، ودراسة كل شاعر دراسة مفردة، مع محاولة بيان مختلف المؤثرات العربية والإسلامية في شعره، بما يربطه بالحركة الشعرية العربية عامة.

6. تجميع البيانات البيليوغرافية عن الشعر العربي وشعرائه في إفريقيا.

أما مخرجات هذه الأعمال فيمكن أن تتمثل فيما يلي:

1. **ديوان الشعر العربي في إفريقيا**: يضم هذا الديوان (الموسوعة) عشرات الشعراء المجيدين، من أقطار إفريقية عديدة، من غرب إفريقيا ووسطها وشرقها، وربما جنوبها أيضا، ويتم التعريف بكل شاعر، وتقدم منتخبات محققة من شعره في مختلف الأغراض، كما تذكر أبرز أعماله وأهم ما كتب عنه بالعربية واللغات الأجنبية.

2. **ببليوغرافيا الشعر العربي في إفريقيا**: تضم أهم ما كتب عن الشعر العربي وشعرائه في إفريقيا بمختلف اللغات، لتكون مرجعا للدارسين العرب والأجانب.

3. **تحقيق نماذج جيدة من الشعر العربي بإفريقيا**: إن أغلب الشعر العربي بإفريقيا لا يزال مخطوطا، لذلك فإنه من المفيد نشر نماذج جيدة منه محققة تحقيقا علميا.

4. **مكتبة سمعية بصرية (فيديوية) للشعر العربي بإفريقيا**: نقترح إجراء حوارات مع الشعراء الأفارقة الأحياء، تصور على أشرطة فيديو، وتتخللها قراءات شعرية بصوت الشاعر نفسه، وفي هذا العمل توثيق للشاعر وتعريف به داخل بلده وخارجه.

5. **مجموعة دراسات عن الشعر العربي وشعرائه في إفريقيا**: نرى من المفيد، تكليف خبراء محليين في الأقطار الإفريقية ذات الإنتاج الشعري الغزير (كالسنغال، ونيجيريا، وتشاد) بكتابة دراسات وبحوث عن الحركة الشعرية في أقطارهم، أو عن شعراء معينين.

وختاما فإننا نتقدم في هذه الندوة المباركة بهذه التوصيات التي نهدف منها إلى العناية بالشعر العربي في إفريقيا بما يساعد على الإسهام في تمتين الأخوة العربية الإفريقية، ويبرز إنسانية الثقافة العربية الإسلامية وإشعاعها، وهي:

* إنشاء مركز دراسات وبحوث للشعر العربي والإسلامي في إفريقيا يشتمل على:

- مكتبة مركزية

- قسم مخطوطات

- قاعدة بيانات عن الشعر والشعراء

* إدراج نماذج جيدة من الشعر العربي الإفريقي في المناهج الدراسية في كل الدول العربية والإسلامية.

* دعوة الجامعات العربية والإسلامية، إلى تشجيع طلابها على إعداد رسائلهم في الأدب العربي الإفريقي عامة، والشعر العربي الإفريقي خاصة.

* مواصلة عقد الندوات المختصة في الشعر العربي في إفريقيا، بما يساعد على مزيد الاهتمام به جمعا وتحقيقا ودراسة ونشرا.

الشعر ديوان للتواصل الإفريقي

د. علي سعيد الطابوني(*)

علاقة إفريقيا بالجزيرة العربية مهد الحضارة العربية الإسلامية تعود إلى ما قبل الإسلام بقرون، وذلك بفضل الوصل الطبيعي البرِّي والبحري بالأمة العربية في شبه جزيرتها.

ومعلوم أنه قد عرفت الحركة البشرية عبر التاريخ تنقلات متبادلة بين إفريقيا والجزيرة العربية، كانت ذات سمات مختلفة سلمية وحربية، قبل الإسلام وبعده، ليس من وسعنا في هذه المساحة الموجزة تفصيلها، غير أن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى أثر إيجابي مهم ذات دلالات كبيرة ومتعددة، ذلكم هو وجود نخبة من شعراء الجزيرة الفحول من أصول إفريقية سوداء، وهم الذين عرفوا بأغربة العرب.

وقد أصبح هذا الأثر بحقٍّ رابطا قويا، وصلة متينة، وعلامة بارزة على الامتزاج العرقي والثقافي والحضاري الذي شهدته القارة الإفريقية وجزءٌ منها اقتطعته الطبيعة من الجسد الأمِّ.

ولقد كرَّم الله تعالى لغةَ هؤلاء الأغربة الفرسان المبدعين الذين تركوا نتاجا أدبيا شعريا رفيعا يحمل سماتٍ وملامحَ مشتركةٍ يتناغم فيها جسدُ القارة مع رأسها الذبيح، كرَّم لغتَهم بإنزاله الوحيَ بها، وجعلها وعاءَ الدين الإسلامي، ووسيلةَ تبليغ دعوته، وبها تُؤَدَّى العبادات الدينية، فأصبحت القاسمَ المشتركَ بين جميع المسلمين في أقطار الكون الرحيب، فنمت وترعرت، وأصبحت لغةَ العلم والحضارة للعالم المتقدِّم في العصور الوسطى.

(*) كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى.

فقد كانت اللغة العربية في النصف العلوي من إفريقيا تقريبا: "لغةَ الثقافة، ولغةَ العلم، ولغةَ الحكم والإدارة، والاتِّصال بالجماهير، جنبا إلى جنب مع اللغات القومية، وبذلك لم يكن بمقدور اللغة العربية أن تحتقر اللغات القومية لأنها تكملها، وكانت حلقة الاتِّصال بين العربية والجماهير الإفريقية"(1).

وبرغم كل التغيُّرات المتتالية والخطيرة، وبرغم كل المحاولات التي يُكرِّسها الاستعمار لقطع أيَّة صلة تاريخية أو جغرافية بين شمال القارة وبقيتها، بل وبين أقطار القارة جميعها، برغم كل ذلك، فلا زالت مرتكزات صالحة لرأب الصدع، وإصلاح ما عطب من علائق، ويكفي لذلك قرآنٌ يشرح الصدور، وإيمانٌ يعمر القلوب، ودمٌ ممتزج يجري في العروق، وتراثٌ هائلٌ موعودٌ ينتظر البعث، من بينه شعر العربية لشعراء أفارقة في بيئة إفريقية.

لقد حظي الأدب العربي بعامة، والشعر منه على وجه الخصوص باهتمام كبير من طرف المعلمين المشتغلين بالتدريس في المراكز التعليمية التي كانت منتشرة في بقاع عديدة من أعالي النصف الشمالي من القارة الإفريقية، وذلك لأنهم كانوا يعتمدون كثيراً على كتب الشعر القديم في التعرف على معاني المفردات اللغوية التي تعترضهم في تفسير القرآن الكريم، وشرح الأحاديث النبوية الشريفة، والكتب الأخرى الأدبية وغير الأدبية.

وبكثرة ممارستهم لهذا الشعر قراءة وحفظاً ومحاولةَ احتذاء وتقليد تربَّت فيهم الملكة الشعرية التي نمت مع نموهم العقلي والمعرفي، وبلغت شأواً أهلَّها لأن تضع أصحابها في مصافٍّ الشعراء الذين لهم شأن جعلنا نتتبَّع نتاجهم ونعول عليه.

وشعراء العربية الأفارقة الذين ينتمون للمساحة الجغرافية التي نهتم بالنظر في تراثها الأدبي بهذه المساهمة المتواضعة، عاشوا في الحقب الأولى من تاريخهم عالة على شعر إخوانهم في بيئات أدبية شتى، وجروا على منوالهم، ولعل سعة

(1) نحو اندماج لغوي لإفريقيا، أحمد تيجاني جالو، مجلة كلية الدعوة، عدد 17-1430 ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم.

اطلاعهم على التاريخ القديم، الجاهلي والإسلامي، كان من أهم العوامل التي دفعتهم إلى الوقوف عنده، والعكوف عليه يلتمسون ما فيه من ظواهر فنية راقية، فجاء نتاجهم ابناً شرعياً لنتاج أولئك الشعراء، إلى أن تداركه شعراء، لمعوا في أفقه، وأضفوا عليه ثوباً بديعاً نسجوه من كل ما عثروا عليه في بيئة خصبة ملأى بالأحداث والتغيرات، وخلّفوا آثاراً مشرقة ناصعة حافلة بألوان من الشعر الذي يعَدُّ نموذجا يعكس معاودة النشاط والانتعاش إلى الأدب.

ونلاحظ غلبة أغراض المديح النبوي والرثاء على الأغراض الشعرية الأخرى، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة الحياة الاجتماعية، ولحضور الوازع الديني، والتجلي الروحي الذي كان للطرق الصوفية الدورُ الأكبرُ في ترسيخه في النفوس، الأمرُ الذي جعلهم يبعدون عن الأغراض التي لا يليق بالمسلم تناولها، غير أن هذه الغلبة لا تعني انعدامَ بقية الأغراض الشعرية في هذه الأشعار، وإنّما تعني نُدرتَها، ولعله يُضاف إلى ذلك زهدُ جامعي الشعر ورُواته في تدوين هذه الأشعار وحفظها ونشرها، مع ولعهم، كالشعراء، بالمديح والرثاء والحماسة، وخاصة، المتصلة بالجهاد ومقاومة المستعمرين وأعداء الدين.

ومع مرور الزمن تناول الشعر جميع الأغراض الشعرية الأخرى التي تتّصل بطبيعة الحياة الصحراوية من جميع مناحيها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فتغزّلوا وهجوا وعبّروا عن أحاسيسهم.

وقد بلغ هذا الشعر من النضج الفني مستوى جيداً كما في قول الشيخ سيدي محمد الكُنتي في الوقوف على الأطلال:

شط المزار بمن ألفيته جارا ... والدار من دونها دار النوى دارا

ومعهد الحب عري قد تعاوره ... مور الرياح وقطر المزن مدرارا

حتى عفى وغدا خلف الأنيس خلا ... للبوم والسيد والأوحاش أوكارا

وبعد هذه النبذة المكثفة التي قد تحتاج إلى هوامش شارحة أبدأ في سرد مقتطفات من قصائد لجملة من شعراء إفريقيا، أعتقد أنها قادرة على التعريف بنفسها دون تدخُّل أو معالجة أدبية من أي نوع، غير أني رأيت أن أضع بينها فواصل قد تقع - ولو بنوع من التجوُّز - ضمن دائرة الوصف أو التحليل أو النقد

المتواضع تواضعَ النصوص المعروضة التي تكتسي أهميتها من أبعادها التاريخية والاجتماعية التي نطمح أن تكون لُحمةً قوية تربط الحاضرَ بالماضي مساهَمةً في صنع المستقبل الذي نحلم به في بناء فضاء إفريقي موحَّد، قادر على حماية مقدّرات القارة الإفريقية أمام التحديات العالمية الكبرى.

يلاحظ المتتبِّع للحركة الشعرية في هذه الفترة التي نرصدها أن الشعر بعامة، وشعرَ المدح بخاصة ساهم في إقامة جسور تواصلٍ بين أجزاء القارة الإفريقية، وكفاه أن يعبِّر عن واقع تلك الأجزاء من زوايا عديدة رغم تعدُّد الرؤى واختلاف الآراء حول التاريخ والثقافة والحضارة، وأن يقوم بأنبل عمل وهو الدعوة الإسلامية، ومواكبة نشرها حالتي السلم و الحرب.

ولن تنال منه أو تُقلِّل من شأنه تلك الهنات التي يظهرها المحك النقدي الذي يتجاهل بيئة هؤلاء الشعراء وبُعدَهم عن مراكز الازدهار الأدبي.

أولا: المدائح النبوية:

تحتل المدائح النبوية المرتبة الأولى من اهتمام الشعراء في عمق القارة الإفريقية حيث يوجد من الأشعار ما لا يُحصى في هذا الغرض، يتراوح بين النظم المتواضع والقريض الجيد.

وعلى غرار المنتديات والأسواق الأدبية التي كانت تقوم في الجزيرة العربية كانت تقام بمناسبة المولد النبوي الشريف مهرجانات للشعر في مدينة "كيوتا" التي تتحسسنا الآن، تدوم أسبوعا كاملا يتنافس فيها الشعراء والعلماء، الشيء الذي كان له عظيم الأثر في إثراء الساحة الأدبية والشعرية منها بخاصة.

ومن ذلك التراث الذي خلَّدته هذه المهرجانات نختار هذه الباقة الفوّاحة مهداةً لروح المصطفى عليه السلام، ولروح الشيخ أبي بكر بن محمد الكيوتي مؤسس الطريقة التيجانية، وراعي هذه المهرجانات الأدبية، الذي قال فيه الشاعر أحمد غور بيري [1]:

---

(1) تنظر الشعر العربي في النيجر من 1951 إلى 2000م، رسالة ماجستير، يوسو منكيلا، جامعة الفاتح، كلية الآداب، 2001م.

الحمد لله حمدَ العبد شوقُه لقاؤه بضيوف الخالق الصمد

فيا سعادةَ قومٍ كان قائدهم شيخَ الشيوخ أبو الزهراء ذو المدد

أنت المضيف الضيوفِ أنت نازلهم أتى إليك ضيوف الواحد الفرد

بجاه سر المُنَّى للرسل مذ أزل محمود أحمد سر الواحد الصمد

ثبِّتْ خطى الشيخ وانصر كلُّ من حضروا زيارةً لأبي الزهراء ذي المدد

وعقيدة التوسُل ظاهرة في البيتين الأخيرين، كما في قوله:

مدحي له قد كان في إطباقي لا ما أسطُره على الأوراق

هو ذو الشفاعة والوسيلة واللوا والحوض صاحب كل مجد راق(1)

ومن مشهورات القصائد في هذا المنتدى الأدبي قصيدة بعنوان "ليلة الإنقاذ" لسليل أسرة مؤسس الطريقة التيجانية بمدينة "كيوتا" للشاعر: ربّاني محمد زكريا بن هاشم الكيوتي، نورد منها:

اليوم عيد لمجده نتلهّف في "جوتا" مأوى للنفوس يُشرِّف

لبيك يا عيدَ النبي المصطفى لبيك في "جوتا" ديار تتحِف

أهلا بمن قد ظل يجمعنا بهم عيد الحبيب وملتقى يستهدف

أهلا بـ "مالي" جارنا وشقيقنا و "بنين" من جاءوا ولم يتخلفوا

أهلا بـ "سنغال" الرجال ومرحبا في ملتقى الأشراف "جوتا" تنظف

"نيجيريا" لبيك يا "غانا" وخير تحية فالعيد موعظة وذلك أشرف

"بوركنا فاسو" و "التشاد" حللتموا ونزلتموا سهلا وجل الموقف

"توجو" و "كودفوار" أهلا في الرضى بكُمْ ترحب "جوتا" فضلا فاكتفوا

أهلا رجال الفيض طاب مقامكم في أرض "جوتا" وجوُّها فتشرفوا

ولا غرو أن نالت هذه القصيدة من الشهرة ما نالته، فقد عوَّض شاعرنا هنَّاتِها بصدق العاطفة، وحرارة الشعور، فهي بحق إحدى المعالم البارزة فيما

---

(1). المصدر السابق.

نتلمّسه نحن اليوم من منارات التواصل في ركامنا الأدبي إبداعاً وتاريخاً، فلنا أن نقول بحق " الشعر ديوان ".

ولئن حدّت من انطلاقة هذا الشاعر في قصيدته التي أوردنا أبياتاً منها مسمّياتُ الأقطار المشاركة، وألزمته بلزوم ما لا مناص من الالتزام به تحقيقاً للحفاوة، وهدهدة للنفوس، وقياما بواجب الترحيب، فإنه قد تفرّغ للفنية والإبداع، فجاءت معانيه الشريفة الجليلة في معارض شيِّقة من ألفاظ منتقاة، وجملٍ محبوكة السبك، وجرس سلسل الإيقاع في قصيدة نقدم منها هذه الباقة:

شهر الربيع دروس كلها تحف ... بها نحرّرُ دستورا لأحكام
ما أنت موسمَ لهوٍ قد يراد به ... دنيا الغرائز من شرب وأنغام
لولا الأمين لعمَّ الكفر كوكبنا ... لولاه كنا عبيداً تحت آلام
لكن قوماً رأوا في العيد محدثة ... وأنه حفلةٌ جاءت بأوهام
قالوا اختلقتم حكايات مزيَّفة ... ببدعة لم يقلها غير هدّام
هذا الذي جاء بالإسلام معجزة ... وأنقذ الناس من جهل وإجرام

وللشاعر الشيخ : أحمد غور بيري قصيدة في هذا الباب بعنوان " الإغلاق في مدح حبيب الخلاّق " بأبيات منها نختم مختارات المدائح النبوية، على ممدوحها الخاتم الصلاة والسلام:

مدحي له قد كان في إطباقي ... لا ما أُسطِّره على الأوراق
ماذا أقول بمدح مَن ربُّ الورى ... أثنى عليه بأعظم الأخلاق
هو ذو الشفاعة والوسيلة واللوا ... والحوض صاحب كل مجد راق
ذو المعجزات الباهرات محمد ... مختار أحمد طيب الأعراق

ولا تزال المدائح النبوية محلّ عناية العلماء الشعراء الذين ينشدونها في المناسبات الدينية وحلقات الذكر في الزوايا الصوفية حتى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى.

المدح:

لم تعدم دوافع الشعراء إلى " المدح " في أي زمان ومكان، ولن تعدم ما دام العوز والطمع والقهر والخوف والعصبية والإعجاب تحكم العلاقات الاجتماعية في هذه الحياة، فالمدح عطية النفاق إلا ما ندر.

ولا إخال أيًّا من هذه المختارات التي نوردها هنا إلّا نتاج عامل من هذه العوامل التي أوردناها الآن، على أننا نلحظ صدق العاطفة وحرارة الشعور وشرفَ المقصد بوضوح وجلاء في بعض هذه المختارات.

ومن قصيدة للشاعر: محمد أحمد الحسن الدسوقي، من توارق " طاوة " بالنيجر في مدح الإمام: محمد الجيلاني إبراهيم الأغالي الأتيواري نورد هذه الأبيات التالية:

فجعتك أم الفضل بالهجران	فبقيت بين الناس كالسكران
قامت ترائي في القصور بفاحم	رَجْلٍ ومقلة شادنٍ ظمآن
دع ذا وعُد للقول في رغم العدا	حامي الديار مجندِل الشجعان
حلو الشمائل ليِّن لخليله	مرٌّ مذاقته لذي الأضغان
بطل أخا ثقة يجود بنفسه	يوم الهياج وملتقى الأقران

وترسُّمه للمثل العربي القديم ظاهر في مقدمته الغزلية، وفي طريقة خلوصه لغرضه الأساس - وهو المدح - وفي القيم التي مدح بها ممدوحه، فهو: حلو الشمائل مرُّها، معتزٌّ بنفسه واثق بها، مقدام غير هيَّاب، يجود بنفسه من أجل قضاياه.

وفي إطار الرحلات والتنقُّلات العلمية والاجتماعية الطبيعية - بين أبناء القارة الإفريقية الجامعة - التي تُعتبَر مَعلما من معالم التواصُل البارزة تأتي رحلة الشيخ الشاعر: إبراهيم الكانمي مع طائفة من ذويه وأصحابه من النيجر إلى مرَّاكش عبر الجزائر، وقد أكرم حاكم المغرب الموحِّدي يوسف بن يعقوب وِفادتَه، فقال في مدحه قصيدة تضمَّنت هذه الأبيات:

أزال حـــجـــابه عني(*) تراه من المهابة في حجاب

وقـربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

وفي حقِّ هذا الشيخ الشاعر قال الأستاذ محمد بن شريفة "إن هذا الشاعر الأسود لهو أقوى دليل على قدرة اللغة العربية والشعر العربي على الازدهار في أكثر البيئات جدبا، وأشدها شظفا، كما أنه من جهة أخرى أوضح مثال لهذا التواصل والتفاعل الذي تم منذ العهود المبكرة بين المغرب وبلاد السودان"(1).

وقد كان للطرق الصوفية الفضل الكبير في نشر الثقافة العربية، وقد أسهمت بشكل خاص في رواج الشعر وانتشاره واعتماده وسيلة تواصل تُدبِّج مراسلاتهم، إن لم تكن كلها شعرا، وتعتبر الطريقة التيجانية صاحبة الدور الأول في هذا المجال، ومن الملاحظ على علماء هذه الطريقة ومريديهم أنه ينتشر فيما بينهم التنافس حول إتقان العلوم العربية، خاصة الشعر الذي يعتبر المادة الأساسية للمدائح عندهم، لدرجة أنه أصبح لغةَ التخاطب في التعبير عن المشاعر بين أصحاب الفريق الواحد، فالرسائل المتبادلة بينهم نجدها مملوءة بالأشعار، إن لم تكن كلها شعرا.

ومن الرسائل القصائد، أو القصائد الرسائل قصيدة بعث بها المريد الشاعر: حسين إبراهيم أبو ذهب إلى شيخه: إبراهيم الكولخي عنوانها " غوث القلوب في مدح صاحب الفيض المسكوب" نثبت منها هذه الأبيات:

سلام أرض مطلوبي سلام عرس محبوبي

سلام لك من قلبي فيا شوقي إلى القرب

متى أسعد بالرؤيا متى أدنو من اللقيا

فاقبل فيك أبياتي واقض كل حاجاتي

وبلغني إلى القرب

*صدر هذا البيت سقطت بعض من كلماته، (الحوليات).

(1) ينظر: إبراهيم الكانمي، أنموذج مبكر للتواصل بين المغرب وبلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط.

ومنها قصيدته الموجهة إلى الشيخ أبي القاسم، أحد شيوخ الطريقة التيجانية في وسط إفريقيا، والتي يشكو له فيها البعد، وحالته التي تمنعه من الوصول إليه، ونورد منها هذه الأبيات:

أخا الحاجات فلتسرع لأرض الشيخ ذي الجود
هو الشيخ أبو القاسم متى أملت مقصودي
ترى قصَّاده جمًّا بجمع غير معدود
فمن غرب ومن شرق من الأمصار والبيد
ومن عجم ومن عرب من البيضان والسود
ومن يأتي أبا القاسم أتى في خير مورود

وكما هو الشأن في كل زمان، فإن للشعر دوراً مهما وفاعلا في الصراعات على السلطة، وشعر هذه الدوائر تتداخل فيه الأغراض وتتعدد، وتصدق فيه العواطف وتنافق، وتلتهب فيه المشاعر وتفتر، ولكل في ذلك وجهة.

وللشاعر محمد السوقي في مشايعة الإمام المجاهد: الحسن بن معاذ قصيدة اشتملت على مدح شِيبَ بفخر معزز بالتبريرات وصولا إلى أن الإمام أحق من منافسيه بالخلافة وتولي أمر المسلمين ورفع راية الإسلام الذي أعاد إحياءه في "أغاديس" وما جاورها.

ولعل عظم الهدف الذي سخر له الشاعر موهبته الإعلامية والدعائية، وهو "الخلافة" لم يمكنه من زمن تَرَقِّيٍ يدبج فيه مقدمة موروثة عهدناها لجُلِّ قصائد هذه الفترة، ما جعله يدلف مباشرة بدون مقدمة ولا تصريع مطلع ليقول:

جدير بالخلافة مستحق بها أهل ومن مثل الهمام
لقد علِمَتْ بذلك آل أغدس جميعا قبل أخذك بالزمام
ستُبهَر أرضنا وتفوق حسنا بإذن الله بالحسن الهمام
وتحيا وقته عمراً جديداً كما تحيا الرياض مع الغمام

ويؤمن أهلها وحش افتراق ... ويُذكَر وقته وقت التئام

سألت الله أن يُبقيه دهراً ... طويلاً في الإمامة بالسلام

وفي سبيل ذات الهدف، يستثير الشاعر محمد السوقي مُلهِمَه الشعري بهاءات متتالية تستفزُّ الذهن، وفي رفق ولين يُهدِّئ من استفزازه بمهارة بتلطُّفه في أمره، انسج من الشعر نسجا، وبالتلويح بما في "عساك" المكررة من رجاء، فيقول:

يا أيها الفكر هيا ... وهات ما قد تهيّا

وانسج من الشعر نسجا ... به الكرام تحيًّا

عساك تلقى هماما ... حياه ربي وبيًّا

فتى حليف المعالي ... براً وفياً سخيًّا

قلب ذكي وأنف ... ما زال أنِفَاً حميًّا

إفريقيا وبنوها ... به تباهي "آسيًّا"

فالدهر شاهد عدل ... أن ليس قولي فريًّا

وفي قصيدة حسنة المبتدأ والمختتم، حيث ابتداؤها التحسُّرُ على مُدبرٍ فات، ومُختتمها الأمل في قادم واعد، وبين هذا وذاك عظمةُ الرمز، ونذالة العمالة، ولعنة الخيانة، يقول الشاعر عثمان بن حوالن الأنصاري مادحا الأمير اللود الأنصاري، مُندِّدا بعملاء الاستعمار:

راح الزمان بأمر مبرم هُمم ... ما بين مبتدأ منه ومختتم

حياك يا دارَ عزٍّ من هناك حيا ... يهمي بمنهمر في الروض مبتسم

يا صاح عد عن بكاك الدهر من كد ... ولا تقولنْ على ما فات واندَمي

وَاسْلُ عنه لحوز عالم ورع ... غطمطم ملك العرباء والعجم

خرق توسَّع للعافين نائله ... كالجود في منن والبحر في همم

لم تلهه زهرة الدنيا وبهجتها ... ولا التفاخر بالأموال والحشم

له الكرامات والأحوال شاهدة ... ذا الدافع العَلَم ابن الدافع العَلَمِ

له رجـال كـرامٌ لا مـثـال لـهم لكنهم نقضوا في العهد والذمم
يعاقدون لئاما في بلادهم من شدة الخوف أو فترة الهضم[1]

ومن جيد قصائد المديح قصيدة للشاعر الأديب العالم : عبد الله بن محمد الشنقيطي، المعروف بابن رازكة في مدح المولى إسماعيل منها:

دع العيس والبيداء تذرعها شحطا وسمها بحور الآل تسبحها سبحا
فتى يسع الدنيا كما هي صدره فأصحابه صدر الديانة مندحا
ومن هو غيث أخضل الأرض روضة فلا يظمأ الآوي إليه ولا يضحى
مهيب مخوف بطشه تحت حلمه عفو يرى إلا عن الباطل الصفحا

وقد نالت هذه القصيدة استحسان جملة من العلماء من بينهم العالم الفقيه عمر بن بابا الولاتي الذي قرظها بالبيت الآتي:

كذا فليكن من ينشد الشعر أو يدع وإلا فقد يأتي بما يوجب الفضحا

وللشاعر عبد الله بن محمد بن عثمان قصيدة في مدح أخيه العالم أبو محمد عثمان بن محمد المعروف بابن فودي الذي قال فيه صاحب " إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور " نشأ من صغره في الدعوة إلى الله، وقد أمده الله تعالى بأنوار الفيض فصار بحمد الله من أولياء الله تعالى، وأهله للدعوة إليه، وإرشاد العامة والخاصة"[2].

عثمان من قد جاءنا في ظلمة فأزاح عنا كل أسود دجدج
فدعا إلى دين الإله ولم يخف في ذاك لومة لائم أو فجفج
بشرى لأمة أحمد ببلادنا السو دان في هذا الزمان المبهج

وفي باحات المدح الهادف الذي يخلد الوطن من خلال تخليد رموزه وأبطاله نجد قصائد الشاعر محمد أحمد شفيع تشيد بدور الجماهيرية وقائدها نورد منها هذه الأبيات:

---

(1) ينظر النص كاملا في من روائع أدب إفريقيا فيما وراء الصحراء، الدكتور الهادي المبروك الدالي، دار صنين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 21.

(2) إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، محمد بلو، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ص 81.

يا قـائد التـحرير يا أمل الشعوب يا بسمة التـاريخ يا ضوء الدروب
إفـريقـيــا تهـدي إلـيك تحـيـــة تنبي بعرفـان الـجميل مـدى الدهور
* * *
شكرا لقلعـتنـا الكبرى التي بذلت كل الجهـود لبعض الوعي بالفكـر

الحماسة "الجهاد":

ابتليت القـارة الإفـريقـية عبـر التـاريخ بأنواع عديدة ومتنوعـة من الزحـوف البشرية الطارئة، بعضـها إيجـابي إنساني انـدمج بطين القارة وثقـافتهـا المحليـة، وبعضها جاء نشـازا اتّسم بالغطرسة والفوقية، واعتمد القهـر وسيلة لإذابة مقومات الشخصية الإفريقية العريقة.

ومن هذا البعض الأخير الزحف الاستـيطاني السـالب للحرية، النـازع للذاتيـة المحلية، مغتصب الثروات الذي تعارفنـا على تسمـيته بالاستعمار الحديث الذي مزق القـارة نهبـا مقسمـا يشبع نزواته القذرة الاقتـصادية، وأفنه العـقلي والفكري الذي يوجه جنون العظمة، والحقد العقدي المقيت.

وقـد تصـدى لهذا الاجتـيـاح الهـمجي -كمـا عـهدهم التـاريخ دائمـا - الأحـرار الشجعـان من أقطار هذه القارة، وفي مقدمـتهم رجال صدقوا مـا عاهدوا الله عليه، نذروا أرواحـهم فداء للحق والحـرية، فتـصدوا لهـذا الغـزو بالسيف والقلم والكلمـة، ذلكم هـم العلمـاء والشعراء والأدباء.

ومن كلمـات الشعـراء المـقاتلة، سنسوق نمـاذج حمـاسية تقـدم مـا ذكرنـاه في المـواجهـات القتـالية الجـهادية، مهملين نمـاذج دائـرة الصراع القبلي الذي تحركـه الصـراعـات علـى السلطة والمطامع المـاديـة الدنيـوية، والتـدخـلات الشـيطانيـة الخارجيـة الممثلة في انحيـاز الاستعمار إلى بعض القبـائل وتحريضهـا علـى القبائل الأخـرى، تكريسـا لمبـدأ "فـرّق تسد" الذي يشكل أهم اسـتراتيـجـة للتـحركـات الاستعمارية الداخلية.

وتوثيقـا للتاريخ، وتكريمـا للـراحلين، وتنبيهـا للغـافلين، نقدم هذه المـجزءات التي نبتدئها بأبيـات من قصيدة الشاعر عثمـان بن حوالن الأنصاري في الدعوة إلى

مقاومة الاستعمار الفرنسي الذي هدف إلى تدمير العقيدة وسلب الثروات ومسخ الهوية :

ومن يحكّم كافراً في نفسه | لا غرو أن باء بشر مقتل
كونوا على العدو في الله يداً | ففي التنازع لزوم الفشل
لا تتراءى نار مسلم وكافر | نهى عن ذاك خير مرسل
ومن يوالي الكافرين فهو من | ولاية الله له بمعزل
إن الجهاد ذروة الإسلام لا | يبغي به باغي الهدى من بدل
والموت خير للفتى من مقعد | بين الأفاعي والأسود البسلّ

وللشاعر أحمد شفيع أشعار تحرض الحكام على الجهاد ومقاومة الاحتلال الفرنسي، منها قصيدة موجهة إلى أمير سلطنة الطوارق بمنطقة " أزواغ " منها قوله:

أحُكّامَ البلاد إلى الجهاد | هلموا بالصوارم والجياد
وإن عزّ الجلاد وكان صلح | على نهج الشريعة والسداد
فإن الصلح أولى من قتال | بلا حزم وعزم في النوادي[1]

وللشاعر الشيخ سيدي محمد بن سيديا في قصيدة شهيرة ذاعت شهرتها في بلاد الصحراء، لأنه ينبه فيها إلى دخول الاستعمار، ويطلب من المسلمين الوحدة، ومحاربة الأعداء، نسوق منها هذه الأبيات :

ولو في المسلمين اليوم حر | يفك الأسر ويحمي الذمارا
لفكّوا دينهم وحموه لما | أراد الكافرون به الصغارا
حماة الدين إن الدين صارا | أسيرا للصوص وللنصارى
فإن بادرتموه تداركوه | وإلا يسبق السيف البدارا
بأن تستنصروا مولى نصيرا | لمن والى ومن طلب انتصارا
مجيبا دعوة الداعي مجيرا | من الأسواء كل من استجارا

(1) لعلها التنادي.

ومن رام النظر إلى مشهد من مشاهد النزال بين الأقران يرسمها شاعر فحل من شعراء عصور الشعر العربي الأول، فعليه بقراءة قصيدة للشاعر أحمد سالم بن السالك التي نورد منها هذه الأبيات :

وعصابة تغشى الخنا عنَّفتها — وزجرتها عن غيِّها وضلالها

وكتائبٍ شعث عوابس بُسَّل — ألبستها بكتائبٍ أمثالها

ولكَم وصدت الخيل عن أهوائها — ودماؤهن تفور من أكفالها

وطعنت فارسها المدجج طعنة — صاحت حلائله لِوُسع مجالها

وتركت آخر بعده متجندلا — تمكو فرائصه لهتك وصالها

والحرب تعلم والمشاهد أنني — مُردي فوارسها قريع نزالها

الرثاء:

لغرض الرثاء - وهو ذكر محاسن الميت - حضور لدى شعراء العربية في إفريقيا، ولا يخلو حاله من صدوره عن عاطفة دينية وعلائق روحية تربط الراثي بالمرثي، كأن يكون من تلاميذ الفقيد وطلابه، أو من مريده وأتباعه لدى أصحاب الطرق الصوفية، أو من صدوره عن وشائج قرابة أو روابط صداقة.

ونُصدِّر مختارات هذا الغرض بأبيات لصاحب كتاب " إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور" محمد بلو فودي في رثاء أمير " آهير" محمد الباقيري.

إذا ما تذكرت الحبيب الذي ثوى — تموج من عيني دموع وتسكب

ويرثي له قلبي مدى الدهر كله — ومن قبل قالوا في الرثاء وهذّبوا

أخلاّي لو أن الحمام أصابكم — عتبت ولكن ما على الموت معتب

وللأستاذ الشاعر: عبد الله محمد بن فودي توجُّهات وتأوُّهات تداخلت فيها بواعث الألم والأسى، نثبت منها هذه الزفرات:

ألهفي لقلب شابه الهم والأسى — بليل التمام والصباح إلى المسا

لفقد أخلاَّء مضوا في جهادهم — (..............................)

هم عدتي في نصر دين محمد — فمن كان فيهم في الجهاد تنفسا

فكلهم قـــار فـــقـــيـــه وتابع أولى العلم قاري الضيف في الحرب أحمسا
وناصـر دين الله عـثمـان كلهم بالاقـوال والأفعـال منه قد انتشا
تذكرت والذكرى تثير لذي النوى همومـا وفي الذكرى تهب صبـا الهوى
أخلاي ماتوا في الجهاد وغيره وبعدي عن شيخ فأرقني الجوى
فـمن مـبلغ عني بني وإخـوتي وأهلي وجيراني ومن معهم ثوى

ولم يخفف من آلام الشاعر المهدي معاذ إلا كون مرثيه غادر الدنيا شهيدا:

ألا ذهب الزمـيل وخـيـر جـار وغـــادرنـا إلى دار القـــرار
حــبــيب مكرم في كل حـــال مــجـاوره يراه خـيـر جـار
ويوسف كـــان أثبــتّنا وقـــارا إذا مـــا قـــيل أين ذووا الوقـــار
يذكـرني الركـوب على المطايا أخـــانـا يوسـفـــا جنب الجـدار
ويوسـف غـادر الدنيـا شـهـيدا وغــــــادرَنـا إلى دار الـقـرار

وكم تألمت لشاعرنا عثمان بن حوالن الأنصاري صاحب القلب المحترق المهموم، والأوصال التي يبرحها السقم، والدموع الدامية من غير جرح ولا كلم، وأنا اقتطع هذه الأبيات من مطولته في مدح الأمير اللود الأنصاري:

راح الزمـــان بأمـر مـبـرم همم مـا بين مـبـتدأ منـه ومـخـتـتم
بين الأحـبـــة والأوطان أو دِمـَن وفقد نادي الكرام السادة النجم
يا لائمي لا تـلُم فـالقلب مـحـترق لو كنت تعلم ما في القلب من همم
وحق جـفني يسيل الدمع من جزع والقلب للحـزن والأوصال للسقم
والعـين تدمـع من شهـر إلى سنـة فـمـا أرتضي البث بالـدموع دون دم
يا قـائمـا بحـذا عـزّ أعِدّ خـبـراً عن مـنزل بجنـاب الهـين منهـدم
ومـعـهـد قـسم الفـقـدان أربعـة بين الوحـوش وبين الريح والديم
وقـد أراق فـراقي من دمـــائكم دمــا يراق بغـيـر الجـرح والكلم

وكان ألمي أشد وأنا أصل إلى قوله في ذات القصيدة :

تلك الفتاة التي يلهو بها أحد ... عن السمير وعن أهل وعن رحم

كحلاء في سعة العينين واضحة ... لعساء في شفتيها حوّة الأدم

عجزاء ممكورة برّاقة قلق ... عنها الوشاح وتم الطبع في الكرم

رُدّي بقية روح من رمقي ... يا ديمة خرجت في أحسن الديم

وبعد أربعة وسبعين بيتا تلت هذا البيت الأخير أطل عليّ قوله :

يا صاح عد عن بكاء الدهر من كمد ... ولا تقولن على ما فات واندَمي

واسلُ عنه لحور عالم ورع(*) ... غطمطم ملك العرباء والعجم

و حينها انتبهت إلى أن شاعرنا يحاكي النموذج القديم في بناء القصيدة العربية فاسترحت وعذرته.

وكنا قد التقينا بالشاعر حسين إبراهيم أبو ذهب في مختارات من قصائد مدح شيخه الذي وصفه بصاحب الفيض المسكوب، إبراهيم الكولخي, ونجدد معه اللقاء هنا في أبيات تم التصرف فيها بالانتقاء وإعادة الترتيب بشكل يسير:

إلى "برهام" بحر العلم أهدي ... ثناء فيه يبقى طول عهدي

ولم يجهله إنسن ولكن ... بحبي فيه أرثيه لمجد

وهذا الدين لم يعمم ثناه ... وتبكي عينه من غير فقد

أشير إلى محاسنه وإني ... أرى فيه المحاسن دون عد

متى ما قيل في الإسلام قول ... أجاب الشيخ عن فور برد

فلم يترك عدوا نال قصدا ... بل قد صد عنه كل ضد

أغراض أخرى :

أسرد في هذه المساحة منتقيات أبيات في أغراض شتى تشكل ومضات تساهم في توضيح الصورة التي استهدفنا جليها بإيرادنا الأغراض الأربعة الكبرى في الحركة الشعرية مناط اهتمام المساهمة.

(*) صدر البيت لا يستقيم في الميزان العروضي.

ذكرى : الوزير الشاعر : عبدالله فودي [1]

تذكرت والذكرى تثير لذي النوى   هموما وفي الذكرى يهب صبا الهوى
وليس لنا أمر يهم قلوبنا   من الدين والدنيا سوى وحشة النوى
فمَن مبلغ عني بني وإخوتي   وأهلي وجيراني ومن معهم ثوى

غربة : العالم الشاعر، أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي [2]:

لقد أنطقت المحنة والغربة لسان الفاضل الشهير، والعالم الجليل الجريء المجاهر بالحق الشاعر إبراهيم الكانمي القائل للسلطان أحمد المنصور الذهبي الذي أمر بإطلاق سراحه من سجنه بمراكش "قد تشبهت برب الأرباب فإن كانت لك حاجة فانزل إلينا وارفع عنا الحجاب.." فقال متشوقا إلى وطنه حزينا لفراق خلأنه وأهله:

أيا قاصدا "كاغو" فَعُج نحو بلدتي   وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي
سلاما عطيراً من غريب وشائق   إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي
وعز أقاربنا هناك أعزة   على السادة اللائي دفنت بقريتي
وشبان بيتي سافروا عن أخيرهم   إلى مالك الأملاك في وقت غربتي
فَوا أسفا مني وحزني عليهم   فيا رب فارحمهم بواسع رحمة

وصف : لعثمان بن حوالن الأنصاري [3]

ترى رواتك عن أعلى طريقتها   ما بين مستتر عني ومقتحم
كأنما فلقت عنا ببرقعة   حناظل القيظ أو جماجم البهم
كأن أعناقنا رأس سائفة   أفواهها كصدوع النبع والوسم
شخت القوائم لا مأوى لها أبدا   إلا الدهاس عن الأحقاف والهوم
ترى الظليم تحاذيه نعامته   يلهيه ماء ومرعى الدوّ عن أكم

---

(1) المصدر السابق، ص 182.

(2) الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانو، ص 182، وينظر إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل بين المغرب وبلاد السودان.

(3) من روائع أدب إفريقيا فيما وراء الصحراء.

حتى إذا ما استوى عن ربوة نظرا   وشام أفراخه وخاف من ركم
فارقد من تحت عراص ويطرده   سواهك المور والإعصار والنسم
تتبعه صلعة خرجاء تطرده   مُراً تساقيه في الجري والنجم
فكل منحدر في طلق شوطهما   تبادرا ماطر بالجري كالضرم
لا يدخران من الإيغال باقية   حتى يكاد تبين الريش عن أدم

فخر: للشيخ الشاعر علي بوبديم:

أنا الفرع الذي يُنميه مجدا   أبوه وأمه وأبتو أبيه
فما من سؤدد إلا وعندي   لباب جميع ما يبدي ذويه

غزل:

الصراع القبلي ظاهرة تتوهج وتخمد ولا تنتهي عبر التاريخ، وتأخذ في ذلك مظاهر شتى، ومع كل السلبيات التي تتولد عن هذه الظاهرة فإننا نجد في ملحمها الشعري الذي يصاحب وقائعها بعض الإنجازات الإبداعية والفنية والاجتماعية والتاريخية التوثيقية، فلولا شعر الملاحاة والمهاجاة ما وقفنا على هذا المقطع الغزلي الرائع للشاعر أحمد البكاي :

طرقت نفيسة والدجى لم يبخل   وسنان من طول السرى في الهوجل
باتت يمثلها لعيني طيفها   فأرقت لا للعارض المتهلل
غيداء كُنتاوية أموية   قرشية، ومن الطراز الأول
خرعوبة رعبوبة بهنانة   وهنانة نفج الحقيبة عيطل

ولا عرفنا رائع قول الشاعر أحمد سالم بن السالك :

تبلت فؤادك زينب بدلالها   وبهرجها وبضنها ونوالها
حوراء خافرة غضيض طرفها   تسبي الفؤاد بغنجها ودلالها
قنواء في شمم أسيل خدها   لمياء في لعس تصيد بخالها
وبريق وجنتها وبارق ثغرها   وبجبهة كالشمس قبل زوالها

وبفـاحم أحـوى أثيث نبـتـه — راقت خصائله لدى استرسالها
ومـخـضب رخص لطيف لين — سبط البنان تصان في استعمالها
والبطن ذو عكن لطاف تلتـقي — تسبيك مدبرة وفي استقبالها
غـيـداء أملود رداح غـادة — خود مدلجة سمت بجمالها
ريا الروادف طفلة مـهناهة — جمٌ مفاصلها إلى خلخالها[1]

استسقاء: للعالم الأديب محمد المختار الكبير الكنتي:

يا دائم الإحسان والمعروف — وافيت باب نوالك المألوف
وطرحت أثقال اضطراري بالفنا — وشكوت دهراً آزما بصروف
رجـمت نوائبه بكل شديدة — فنهـاره ليل بجنح شظوف
لا تُخلف الأرعاد فيه وعودها — وبوعدها مزن الحيا لم توف
بخلت به كفُ الحياء وأعمقت — رحم العراء بزهرها المقطوف
خابت ظنون الناظرين لموعد — من نوء نجم كاذب مخلوف
ولنا برعدك يا كريم تعلُقٌ — بإجابة المتكفّف الملهوف
ينهلُ واكفه عوارضه على — عطش الفلا ومسافح وحقوف
تحيا البلاد فتكتسي من سندس الـ — أزهار وشي مطارف وشفوف

أحمر وأخضر:

1. حتحتا بن الصادق:

ألا لهف نفسي من مبيتي ليلة — على القر والمفتول ناء وشاسع
مبيت يضاهي ليل صبٍّ تدعه — وساوس تجري من لظاها المدامع
وبينا أمني النفس وافيت فتية — ومقراجهم وقت الغدية طالع
وكاساتهم وصف على الطبل واحد — وبرادهم بين الأحبة لامع
رموا فيه كيل الكأس مما تضمنت — بوابر بحر سبقه الشاي شائع
وجرد (ذو درعين) بيضا نقية — وخضراء ذاك الوصف للفضل جامع
فلما رشفت الكأس منها تفتقت — ينابيع شعر من طويل هوامع

(1) أعلام من الصحراء، محمد سعيد القشاط، ص 22.

2 . ولآخر:

شربنا كؤوسا يعلم الله أنها ... تهيج للعشاق ما في الضمائر

منعنعة حمراء كالخمر طعمها ... ولا عيب فيها غير جبر الخواطر

3 . وللشاعر عيسى بن محمد

والزم من المفتول أجوده وكُن ... للماء محترسا من الأكدار

وتجنّب النعناع فهو مكدر ... طعم الأتاي الأجود المختار

4. الشاعر الخليفة بن مصطفى:

إذا لم نجد إلا النميلة مشربا ... شربنا ولم نعبأ مقالة ذي عذل

فإن وجد المفتول قلنا لنملة ... مقالتها للنمل في سورة النمل

وشائج :

ونحن على الإسلام جمع تناصروا ... ولسنا بشيء غيره نترفع

قبائل إسلام فيربو قبيلنا ... فلانينا حوسيُنا الكل مجمع

وفينا سواهم من قبائل جمعت ... على نصر دين الله كان التجمُّع

بنو تور أخوال الفلانيين إخوة ... لعرب فمن روم بن عيص تفرعوا

الشاعر الوزير عبد الله بن فودي :

دار في جوٍّ فكرتي وخيالي ... دور أنس ينهال أي انهيال

في عصور تزهو بها لغة الضا ... د وكانت محمية بالنبال

هاشمي إن انتهي فيه حسني ... أدرعي من زين آل الرجال

أحمد المصطفى عليه صلاة ... وسلام عدَّ الحصى والرمال

الشاعر محمد الحاج أحمد السوقي

فهاهم شباب من شمالك أصلهم ... وهاهم شباب من جنوبك أهلهم

أتوا كلهم يستنجدون بأمهم ... ليستلهموا من وحيها لَمَّ شملهم

يا ملتقى (مرزق) يا ملتقى الأمل ... يا نقطة لانطلاق الجو في العمل

قد أكَّد الملتقى أعماق وحدتنا ... وكان رمزا لماض كان يجمعنا

إن اللقاء هنا في "ساي" أسعدني فهو التحدي لما عشناه من محن

عشنا التفرُّق والجهل الكبير بما يحويه تاريخنا في سالف الزمن

الشاعر محمد أحمد شفيع :

إلى الاتحـــاد إلى الاتحـــاد لطرد الشنار الذي حـــولنا

الشاعر الحاج عبد الرحمن باه :

يا راكبا مدلجا من أرض حورانا إلى تهامة أو من أرض نجرانا

بلغ سلامي جميع من مررت به من الأحـــبة خـــلاَّنا وإخوانا

ومن بـ (تيلي) و(هورقان) مرتبعا ومن نأى منهم في أرض فـــلاَّنا

بلغ نديمي سلاما قد يزول به ما كان من بيننا حقدا وأضغانا

لتنجلي ظلمة الأضغان فيك وفي ما كان منك من الهجران أزمانا

مع يقيننا بأن هذه المساهمة متواضعة وقلقة ـ لجملة من الأسباب ـ فإننا نرى فيها ما يضاف إلى الجهود المخلصة والمضنية التي يضيفها الخلف للأسس المتينة التي وضعها السلف، فكانت قواعد راسخة حملت منارات الهدى والحضارة، فخلدت ماضيا مجيدا نستلهمه نحن الآن في بناء مستقبل سعيد.

الشعر التشادي بين التقليد والتجديد
رؤية نقدية تطبيقية

د. محمد فوزي مصطفى خليل (*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين.

وبعد: فلقد غمرتني السعادة؛ عندما اطلعت على الكتاب الوارد من الجامعة الإسلامية بالنيجر، وكنت يومها في مقر عملي في جامعة أنجامينا، كلية الآداب، على الرغم من وصول الكتاب متأخراً كثيراً، والكتاب يشير إلى عقد مؤتمر للأدب الإسلامي، وعلى أوراق العمل البحثية التي يمكن للباحثين التقدم بها، وذلك بعد أن يتم اختيار أحد الموضوعات المعروضة في الكتاب.

ولقد وقع اختياري على أحد الموضوعات (قضية التقليد والتجديد في الشعر الإفريقي)، وحاولت أن أجعل هذه القضية المهمة داخل إطار البيئة الشعرية التشادية التي أعمل بها أستاذاً للأدب والنقد، ولذلك لم أكتف بالآراء النقدية، أو الآثار الشعرية فحسب، ولكنني درست هذه القضية دراسة أكاديمية - في شكل موجز ومركز - قائمة على المنهج التكاملي، لأجل ذلك بنيت منهجي على محورين:

المحور الأول : أبرز الآراء النقدية في هذه القضية، مع الوقفة النقدية المعتدلة من جانبي، والتي لا تخرج عن قيم ديننا الإسلامي، وهذا كله هو الجانب النظري.

(*) كلية الآداب، جامعة انجامينا - تشاد.

المحور الثاني : وهو الجانب التطبيقي، وحاولت فيه تقديم بعض الآثار الشعرية لشعراء تشاديين أفارقة من شتى العصور، ومن ثم اتضح لي من خلال هذه الأشعار ثلاثة اتجاهات شعرية تتعلق بشأن هذه القضية:

1. شعراء التزموا بالتقليد
2. شعراء ساروا نحو التجديد
3. شعراء جمعوا بين التقليد والتجديد.

وقد ظهر أثناء البحث عدة حقائق ونتائج وقضايا، وكان أبرز هذه النتائج على سبيل المثال: أن الشعراء التشاديين المعتدلين، والمقلدين والمجددين - على حد سواء - لم يفقدوا هويتهم الإسلامية الأصيلة، ولم يقلدوا تقليداً أعمى، ولكنهم قلدوا تقليداً قوياً محكماً، يدل على أصالتهم وعراقتهم، كذلك لم يجددوا لأجل التجديد فحسب، ولكنهم جددوا ليعبروا عن ذاتيتهم وشخصيتهم الإسلامية، وليطوروا كذلك من الموروث بما يتلاءم ويتفق مع عاداتهم وقيمهم الإسلامية.

والنصوص الشعرية المثبتة في ثنايا البحث تشهد على صحة ذلك، والدراسة التحليلية النقدية للبناء التشكيلي للقصيدة، أثبت كل ما ظهر من جديد، وبكل حيدة وأمانة.

وهذا البحث يحتوي على مدخل وخاتمة وبينهما ثلاثة فصول:

الفصل الأول : عن الشعر الإسلامي.

الفصل الثاني : رؤية نقدية في رياض الشعر الإسلامي.

الفصل الثالث : الشعر التشادي الإفريقي العربي بين التقليد والتجديد.

وهذه الفصول الثلاثة ضمت في رحابها عديداً من المباحث تطلبها البحث أثناء الرصد والتدوين والتحليل النقدي بشقيه الموضوعي والفني.

وأخيرا أتوجه بخالص حبي وتقديري لكل القائمين على تنظيم المؤتمر وإعداده، وأدعو الله أن يوفق كل من يدعو إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وما توفيقي إلا بالله.

الفصل الأول: عن الشعر الإسلامي ... المصطلح، التاريخ والهدف.

المصطلح:

يتضح المفهوم الكامل للشعر الإسلامي، من خلال رؤية نيرة لمفهوم الأدب الإسلامي بوجه عام، وهذا شيء طبيعي، ما دام الشعر الإسلامي ثمرة ناضجة من ثمار الأدب الإسلامي الشامخ. "فالأدب الإسلامي تصوير للحياة بما فيها من مصادر الحق والباطل، ومظاهر الخير والشر، ومراتب الحب والجمال، والكره والقبح، بالكلمة والصورة، تحث على الحق والخير والحب والجمال، وتدحض الباطل والشر والكره والقبح، لتنافيها مع فطرة الإنسان وقيمه النبيلة"(1).

فمن التعريف السابق يتضح أن هناك علاقة وثيقة ووطيدة بين كلٍّ من الأدب الإسلامي الجميل والحياة بأشكالها ومظاهرها المختلفة، وأن الجامع بينهما الكلمة، شريطة أن تكون الكلمة جميلة طيبة هادفة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(2).

وإذا كان الأدب الإسلامي فنًّا من الفنون الجميلة، فنجد أحد النقاد يعرِّف الفنَّ الإسلامي بوجه عام بأنه " التعبير الجميل عن الكون والحياة والناس من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والناس، إنه الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي للوجود"(3).

ويرى ناقد آخر أن الفن الإسلامي هو " التعبير الفني الهادف عن واقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب تعبيراً ينبع من التصور الإسلامي للخالق عز وجل ومخلوقاته"(4).

بهذا يتضح حقيقة الأدب الإسلامي بأنه أدب ينبع من صدق التجربة الشعرية والمعتمد على وسائل التأثير والإقناع، والوسائل هي التي تحدد شكل وأداء الأدب

---

(1) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د.علي صبح، 3، ج 1.

(2) سورة إبراهيم ، الآيتان 24-25.

(3) منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ص 6.

(4) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، د. عبد الرحمن رأفت الباشا، ص 9.

من كونه أدباً إسلامياً أم غير إسلامي، فحقيقة الأدب الإسلامي أشار إليها رائد من رواد النقد الأدبي الإسلامي في العصر الحديث بقوله : " هي التجربة الشعرية التي تنبع من الوجدان والخواطر المفعمة بالقيم الإسلامية، في بناء فني يعتمد على وسائل التأثير والإقناع من الألفاظ الفصيحة، والأسلوب البليغ، والنظم الدقيق، والتصوير المحكم بالخيال والعقل معاً، والاتساق في الإيقاع المتدفق بأشكاله المتعددة، سواء كان وزناً وإيقاعاً في الشعر، أو نمواً وتطوراً في الأحداث كالقصة والأقصوصة، أو قصراً وبلاغة في العبارات والجمل كأنواع المقالة الأدبية"(1).

وإنني أرى أن الأدب الذي يستمد روافده من معين الإسلام الصافي، ليشكل رؤية وقيمة وهدفاً في الكون والحياة والإنسان، جدير به أن يتصف بصفة الإسلامي ولا ضرر في ذلك، فإنه ومنذ قديم الزمان، قد نشأ الفن في أحضان العقيدة الدينية، وقد نادى فلاسفة اليونان بذلك، فسقراط (ت399ق.م) يقول **"الإيمان والفضيلة والجمال قرناء"**(2).

ومن خلال ما سبق يمكن القول إن الشعر الإسلامي تصوير فني جميل لما في الكون والحياة والوجود، يستمد الشاعر قيمه الخلقية والفنية من خلال رؤية إسلامية صافية معتدلة، تتسم بالشمول والإحاطة، وتلتزم بالصدق الفني والموضوعي، لتثار العواطف، وتتحرك المشاعر، ويتغذى الفكر، لنصل بعد ذلك، في نهاية المطاف، إلى تشكيل فني وموضوعي يتفق مع آداب الإسلام الخالدة، وتعاليمه السامية، وتوجيهاته الرشيدة.

2. التاريخ :

الناظر إلى تاريخ الشعر الإسلامي يلاحظ أنه يضرب بجذوره التاريخية في العصر الجاهلي، ولا عجب في ذلك، فتروي كتب السيرة أن أبا قيس بن أنس تحنّف في الجاهلية، وكان معظما لله عز وجل، ومما قاله في الجاهلية وهو ينصح قومه: (3)

---

(1) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د. علي صبح، 9.

(2) الشعر العربي المعاصر، د. الطاهر مكي، 9 .

(3) سيرة ابن هشام، 438، ج 1.

فـأوصـيكم بالله والبر والـتـقى وأعــراضكم والبــر بـالله أول

وإن قومكم سـادوا فلا تحسدوهم وإن كنتم أهل الرئاسة فـاعدلوا

وقد شهد رسول الله ﷺ لشعر الشاعر الجاهلي "لبيد بن ربيعة" بالإسلام، ولم يشهد لصاحبه بالإسلام، عندما قال بيته المشهور:

ألا كل شئ مــا خــلا الله باطل وكل نعــيم لا مـــحـــالة زائل

فقال ﷺ آمن لسانه ولم يؤمن قلبه.

فهذه حقيقة يقينية تدل على أن الشعر منذ قديم الزمان يؤدي رسالة إنسانية للإنسان، وفي الوقت نفسه، ينشر قيما أخلاقية وفنية، ممتدة الجذور من فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ومنذ أن أشـرق نور الإسـلام، وعم أرجـاء المـعـمـورة على يد رسـول الله (وأصحابه الأجلاء، والدعوة الإسلامية كانت وما زالت في حاجة مهمة إلى سلاح الكلمة مع باقي الأسلحة الأخرى التي تكون في الحرب، وثمة آثار تشير إلى ذلك، منها أن الرسول ﷺ قد حثّ شعراء الإسلام - حسّان بن ثابت، كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة - على حرب المشركين بالشعر الموجع، والهجاء اللاذع، فقال لحسان" أهجهم، فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وقع الحسام في غلس الظلام، أهجهم وروح القدس معك"(8).

وفي سيرة ابن هشام العديد من المواقف التي تدل على التوظيف الجيد للشعر في خدمة الإسلام، ولذلك أخذ هذا الشعر صبغة الإسلام، فقد دعا الرسول ﷺ ثابت بن قيس المسلم ليرد على خطيب وفد تميم، ودعا حسّان ليرد على شاعرهم الزبرقان حينما قال :

نحن الكرام فـلا حي يعـادلنا منا الملوك وفـينا تنصب البـيع

فرد عليه حسان بقصيدة جاء فيها:

إن الذوائب من فـهـر وإخـوتهم قـد بينوا سننا للناس تتّـبع

---

(8) العمدة، لابن رشيق، 12، ج 1.

ثم يقول الأقرع بن حابس لأصحابه: "وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم أسلموا جميعا"[1].

وتعدُّ بردة[*] كعب بن زهير من عيون الشعر الإسلامي، لأنها فتحت الباب "للحب الإلهي والمحمدي"(ومطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

إلى أن يصل لأعظم وأجمل بيت نظمه فيها، وهو قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

ومبلغ علمي أن إعجاب الرسول ﷺ بقصيدة كعب لم يكن منصبا على قيمة واحدة بعينها، بل كان منصبا على القيم الخلقية السامية، والقيم الفنية الجميلة، والقيمتان - الخلقية والفنية - لا تستغني إحداهما عن الأخرى، فهما كجناحي طائر.

ويأتي باب المدح في الشعر ليأخذ صبغة إسلامية، وخاصة إذا كان في مدح النبي ﷺ صاحب الدعوة، ومبادئه السامية التي لا تنضب بقول حسان[2]:

وأحسن منك لم تر قط عيني   وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

فحسان يشيد بجمال الرسول ﷺ ويرجو من وراء ذلك ابتغاء وجه الله، ومن ثم يعلق الدكتور زكي مبارك على ذلك النوع من المديح فيقول: "والإشادة بجمال الرسول (وحسنه ليست من الفضول، كما يتوهم بعض الناس، فإن المديح يوجب هذا اللون من الوصف، وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح، وذلك مشهور لا يحتاج إلى شاهد يؤيده"[3].

---

(1) سيرة ابن هشام، 99، ج 1، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، بتصرف.

(*) فقد أطلق البوصيري على قصيدة له مطولة في ذلك البردة، وأطلق أمير الشعراء أحمد شوقي على قصيدة له نهج البردة، وأطلق عامر بحيري على قصيدة له نهج البردة، وغيرهم من الشعراء الإسلاميين.

(2) ديوان حسان، 10.

(3) المدائح النبوية، د. زكي مبارك، 44.

3. رسالته:

الشعر الإسلامي قام برسالة عظيمة في القديم، تمثّلت أولا في نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة بين الناس قاطبة، وخاصة الجوانب التي تشير إلى سماحة الإسلام وأنه دين العقل والقلب، وتعلم جيداً أن كل فرد وجماعة من بني الإنسان في حاجة مهمة إلى عقيدة تنظم أمور حياته بمستوياتها المختلفة، وكل ديانة سماوية تدعو إلى الألوهية - الوحدانية - وضبط الإنسان وما يدور بداخله من عواطف وأفكار، وما يدور حوله من مجريات وأحداث، ولذا كان الإنسان في سني حياته المختلفة في حاجة إلى دين ينظم له كل هذا، فيكون على صلة بخالقه تعالى.

" إن العقيدة هي ترجمان الصلة بين الكون والإنسان، أو هي مظهر الصلة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر، كما يقول جماعة المتصوفة والنساك، فلا بد من صلة بين الكون وبين كل موجود فيه"(1).

وعلى سبيل المثال في هذا الجانب، جانب الدعوة إلى الله بواسطة الحب الإلهي الخالص - نلمس قصيدة الشاعر الإسلامي علي عقل، ومن أبياتها قوله:(2).

أنا لاسم الله وباسم الله ... في اسم الله أوحده
فيريني العفو فأعبده ... ويريني الفضل فأحمده
شرف العظماء بأصلهم ... شرفي حب أتقلده
إن عَزَّ الناس بما لهم ... عِزِّي دِيْنٌ أتعهده
أنا لا شئ بنفسي بل ... بك شئ أشرق محتده

ومن أهداف الشعر الإسلامي كذلك محاربته للعلل والأمراض التي قد تصيب بعض أبناء الإسلام، وتلقي بهم في السقوط نحو الهاوية، والانحدار الخلقي، وتقذفهم أمواج الحضارة المادية الزائفة.

---

(1) الله ، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، العقاد، 28 .

(2) ديوان علي عقل ، نقلا عن كتاب السمو الروحي في الأدب الصوفي ، الحلواني، 137.

ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - الخمر، إذ إنها كانت شائعة في الجاهلية، وبسببها بُدِّدت الأموال، وانتُهكت الأعراض، إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(1).

ولقد مُنع الصحابي الجليل أبو محجن الثقفي(*) من الجهاد في القادسية بسبب تعاطيه الخمر، وورد في كتب التراجم والتاريخ أبيات قالها محتجا على حرمانه من الجهاد، وفي آخر الأبيات أعلن توبته، وعاهد الله على العزم والإقلاع والندم، فيقول :

كفى حزنا أن تلتقي الخيل بالقنا وأترك مشدودا علي وثاقيا
إذ قمت عناني الحديد وأغلقت مصاريع دوني قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركوني واحدا لا أخا ليا
ولله عهد لا أخيس بعهده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

ثم تاب عن الخمر، وقضى بقية عمره مجاهدا في سبيل الله، وذامًا للخمر، وناهيا عنها، فقال :

يقول أناس اشرب الخمر إنها إذا القوم نالوها أصابوا المغانما
فقلت لهم جهلا كذبتم ألم تروا سفيها [...] بعد أن كان عالما
وأضحى وأمسى مستخفا متيما وحسبك عارا أن ترى المرء هائما

ثم يرتفع صوت أبي محجن من قلبه صارخا، ليعلن توبته نصوحا، فيقول :

أتوب إلى الله الرحيم فإنه غفور لذنب المرء ما لم يعاود
ولست على الصهباء ما عشت عائدا ولا تابعا قول السفيه المعاند
سأتركها مذمومة لا أذوقها وإن رغمت فيها أنوف حواسدي

(1) سورة المائدة، الآية: 90.

(*) هو عمرو بن حبيب بن عمرو بن عوف، أحد الأبطال الشعراء الكرماء في الجاهلية والإسلام، أسلم سنة تسع من الهجرة، وروى عدة أحاديث، وكان متهما في شرب الخمر، فحده عمر مرارا، وكان مقيدا عند سعد بن أبي وقاص، ولكنه توسل إلى سلمى زوج سعد أن تحل قيده ليحارب ثم يعود إلى القيد، فقاتل قتالا عجيبا، ولما علم سعد بخبره أطلق سراحه.

ويمتد الدور العظيم للشعر الإسلامي على مدى العصور الأدبية المختلفة ليلقي بظلاله نحو شخصيات إسلامية عظيمة، شرُفت الإسلام وشرُف بها الإسلام، قد تغيب عن أذهان بعض المسلمين، وخاصة ونحن نعيش في عصر السماوات المفتوحة المحملة بالغزو الفكري والأدبي.

ومن هؤلاء الأعلام على سبيل المثال "زين العابدين علي بن الحسين"، فيقدم الفرزدق قصيدة يمتدح فيها هذه الشخصية العظيمة، وبواسطة خطاب القصيدة يتجلى الجانبي الإسلامي، ولِنَقْلْ الشخصية العظيمة لزين العابدين(*1).

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

فتوظيف الشخصيات الإسلامية في إطار العمل الشعري يعطي مسحة دينية تعكس بظلالها على شخصية المبدع من ناحية، وعلى ما أبدعه من ناحية أخرى، فتكتمل الرؤية الدينية بكل مقوماتها الفنية والموضوعية، وتشكل في نهاية المطاف اتجاهاً إسلامياً ينبع من معين الإسلام الصافي، فيعود بالنفع على القارئ والمتلقي على حد سواء.

وأتفق مع قول ناقد حصيف، وهو في معرض قوله عن الأدب الإسلامي، وأنه "لا يفتقر إلى التنظير مطلقاً، لأنه موجود وقائم منذ بعثة النبي ﷺ إلى يومنا هذا، حينما جنَّد حسان بن ثابت وغيره شعرهم للدفاع عن الإسلام، ونشر تعاليمه، ومنذ ذلك الحين اتضحت الرؤية في الأدب الإسلامي التي تقوم على أسس تكون بعيدة عن تصوير المجون والغزل الفاحش، ومعاني الرذيلة، بل اتجه منذ البداية إلى تصوير

(*) زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهما جميعاً، تربى في بيت النبوة على يد معلمه الأول، والده الحسين، وفي مدرسته الثانية مسجد الرسول عليه السلام، حتى وصفوه بالزكي، وبزين العابدين، انظر البداية والنهاية، ج 9، ص 103.

(1) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص 430، البداية والنهاية، لابن كثير، ص 44، طبقات فحول الشعراء، لابن سلام، ص 268، تحقيق: محمود شاكر.

القيم الإسلامية الفاضلة، وعلى ذلك، فلا يصح أن نقول بأن الأدب الإسلامي يحتاج إلى تنظير، لأنه منذ أمد بعيد قائم على أسس وقواعد راسخة، وإن غابت عنا في بعض العصور"(1).

وما زالت قافلة الإبداع الشعري الإسلامي - بتوفيق من الله تعالى - تشق طريقها وسط التيارات الجارفة، والملل المعوجة، وعلى الرغم من ذلك كله فإن الشاعر الإسلامي يتعلق بجاه الله أملا في الخلاص من هموم الحياة، ومشاغلها الثقيلة، ولنستمع إلى مناجاة الشاعر "عبد الله شمس الدين" في قصيدته "أراك يا ربي في قلبي" المليئة بالحب الإلهي والثقة في الخالق سبحانه وتعالى: (2).

لك يا رب قد سلكت طريقي	يا إلهي ومؤنسي ورفيقي
وعلى بابك الكبير أزحت الـ	العبء مودعا شقائي وضيقي
أنت يا خالق البرية أدرى	أنت أدرى بها من المخلوق
لك يا رب ما تشاء وترضى	أنت فوق الإدراك والتحليق
غير أني أراك يا رب في قلـ	بي ضياء يجلو غيوم طريقي

إن مثل هذه الإبداعات الشعرية تعطي نفحات روحية، وإشراقات إلهية، تعمل على ملإ القلوب بنور الله ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(3).

فالشعر الإسلامي يستجيب لنداء الفطرة ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(4).

---

(1) جريدة العالم الإسلامي، العدد 1682، يناير، 2001، مقال للدكتور علي صبح تحت عنوان الأدب الإسلامي جذوره راسخة، ولا يحتاج إلى تنظير.

الشاعر عبد الله شمس الدين، ولد في مصر عام 1923م، وتوفي عام 1977م، تخرج من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، عمل رئيسا في قسم التصحيح بمطبعة السكة الحديدية، وكان عضوا بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، وحصل على وسام الفنون والآداب من الطبقة الأولى.

(2) ديوان قيثارة التوحيد، عبد الله شمس الدين، تحقيق عبد العليم المهدي، ص 27.

(3) سورة النور، الآية: 35.

(4) سورة الروم، الآية: 30.

واستجابة لما يحيط بالإنسان من مظاهر متعددة، وأشكال مختلفة، فهل استطاع الشعر التشادي أن يتمثله بكل دقة، ويصدر عنه بكل أمانة؟.

هذا كله سيتضح بشيء من الإيجاز، لنكون على بصيرة بما ندرسه من قصيدة التقليد والتجديد في الشعر الإفريقي.

الفصل الثاني: رؤية نقدية في رياض الشعر الإسلامي

1. الشعر التشادي بين نوازع الدين والدنيا:

بإمعان الفكر والنظر في الشعر التشادي، المخطوط منه والمطبوع، يلاحظ الباحث الحصيف، والناقد البصير، أن أكثره قد صدر عن تصور كامل لرؤية الإسلام للكون والحياة والإنسان، والفضل في ذلك مرده إلى رسوخ الناحية العقدية في نفوس الشعراء التشاديين وعقولهم وقلوبهم. ولننظر إلى قول شاعر تشادي "عباس محمد عبد الواحد" -وهو من شعراء العصر الحديث- وهو يتحدث عن الصوم، وفضل شهر رمضان :

الصوم قاعدة الإسلام نعلمه	أو أنه الركن من مجموع أركان
له مزايا تزكي نفس محتسب	من الخطايا وتنشيط لأبدان
تفتحت فيه أبواب الجنان وذا	شهر يُسَلْسَلُ فيه كل شيطان
وليل قدر لديه بات مكتمنا	ليل تعطر من روح وريحان
وللملائك تجوال بليلته	لمطلع الفجر في أرجاء أكوان

وليس معنى ذلك أن الشاعر التشادي تسير جميع إبداعاته الشعرية ملتزمة بالخط الإسلامي، فقد نجد الشاعر الواحد تارة تصدر تجربته الشعرية محملة بنفحة روحية عبقة تتكامل فيها الرؤى الإسلامية، مثلما لمسنا في النموذج السابق، وتارة تأتي على خلاف ذلك.

فعلى سبيل المثال، نجد الشاعر التشادي "حسب الله مهدي فضلة" تتسم أشعاره بالرؤية الدينية النيرة المنبثقة من الكتاب والسنة، كقصيدته في مدح الرسول ﷺ :

دع مــدح ملوك فـــهـــو هـبـــاء وامــدحن من عــبــيـده الأمــراء
سـيـد الرسل هل لمـدحي مـجـال فـيك بعـد الذي جلى الشـعــراء
كل مـــدح يقـــال فـيك ضـئـيل عنك مـهـمـا أطيل فـيـه الثناء
هل يـطيق اللســـان عـــد مـــزايا أثبـتـتـهـا الأعداء والأصـدقـاء
جـئت بالحق والورى في ضـلال تنكر الأرض سـعـيـهم والسـمـاء
عشش الجهل في العقول فأمسى ينعق الزيـغ فـوقـهـا والمــراء

فالشاعر يعبر عن حبه الخالص لرسول الله ﷺ، ومما لا شك فيه أن هذا إشارة إلى رسوخ الجانب الإسلامي في عقل الشاعر ووجدانه، ولكن هذا الحكم لا ينطبق على جميع أعماله، فعلى سبيل المثال، نلمس في قصيدته " الخائنة " اهتزاز الجانب الإسلامي حينما يصور المرأة التي أحبها في صورة ماجنة يأباها الإسلام، ومهما كانت الدوافع، يقول الشاعر:

شحـوبك فـاضح شـغـفـا بـأخرى فلست على جـحــودك أسـتــريب
فـصـحـت ولم أطق صـبـراً رويداً أترمــــيني بدائك يا جـــروب
يضـــيق على قلبك بازدحــــام فكل فـــتى له فـــيك نصـــيب

وما أريد تأكيده هنا، أنه إذا كان الشاعر مسلما، فليس معنى ذلك أن جميع أشعاره إسلامية، وقد قدمت لشاعر واحد كما ذكرت آنفا قصيدتين، وجدته في إحداها شاعراً إسلامياً، وفي الأخرى غير إسلامي في شعره، فليس بالضرورة أن نجد جميع قصائد الشاعر تنبثق من رؤية وبؤرة التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان والوجود، فتكامل الرؤية والاتجاه والنزعة من الأمور الصعبة المنال، ولكن أرجو من كل شاعر مسلم أن تكون لوحته الشعرية مليئة بالقيم الإسلامية شكلا ومضمونا، وبتعبير أدقّ، التشكيل الإسلامي الكامل للقصيدة الشعرية.

2 . حقيقة التشكيل في القصيدة الإسلامية:

وثمة حقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية، وهي أن التصور الإسلامي في التجربة الشعرية، ليس قاصراً على الشعراء المسلمين فحسب، فهناك شعراء غير إسلاميين عقيدة، ولكن تجاربهم الشعرية انبثقت من المنهج الإسلامي، وعندئذ يمكن أن نصف شعرهم بأنه شعر إسلامي.

إن أي شاعر أو أديب يبدع ويتمثل التصور الإسلامي في تجربته، فهو شاعر إسلامي بغض النظر عن عقيدته، ولذلك نرى طاغور الهندوكي في بعض قصائده يلتقي مع المنهج الإسلامي في دعوته الدائمة للسماحة والخير بين الناس، والانفلات من ثقل الضرورة، والانطلاق إلى عالم الطلاقة والنور.

والفن الإسلامي من سماته الالتزام برؤية الإسلام، وحقائقه العقدية، بواسطة تشكيل جمالي خلاب، ومن هنا، فإن الشعر الإسلامي ينبثق من الفن الإسلامي، حيث أن كلها ينشد الجمال بشطريه، جمال الشكل، وجمال المضمون، وعندئذ تتحقق الغاية المرجوة من الفنون الأدبية بوجه عام، ومن القصيدة الشعرية بوجه خاص.

وينبغي أن نعلم بأن أي دعوة إلى الفصل بين الفن والأخلاق هي دعوة خبيثة مستوردة هدامة، ظاهرها فيه الرحمة ، وباطنها السوء والعذاب، وتدخل في الإبداع تحت ستار ما يسمى "مذهب الفن للفن" وغيره من بعض المذاهب الأدبية الهابطة التي لا تتفق مع عقيدتنا وهويتنا وأصالتنا الإسلامية الخالدة.

إنني لست من الداعين إلى الانغلاق، وقفل الأبواب، ولكنني أؤكد على ضرورة وجوب الحذر والحيطة عندما ننفتح على غيرنا، وخاصة من ذوي البيئات المختلفة عن بيئتنا الإسلامية، وأن نضع نصب أعيننا أن الشاعر -مهما كانت هويته الثقافية وعقيدته الدينية- صاحب كلمة طيبة ورسالة عظيمة في الحياة، وأن هذه الرسالة لا تُقبَل إلا في إطار من تشكيل فني جميل منبثق من قيم الدين والأخلاق العظيمة، فهذه القيم جميعها هي الجمال بعينها.

إن محاولة البحث في العلاقة بين الجمال والأخلاق، أو بين الفن والأخلاق كانت موضع اهتمام المنهج العلمي الغربي الوافد نتيجة لأساس أصيل في هذا الموضوع، هو قيام الانشطار والاستقلال بين العلم والفن والأخلاق والسياسة والنفس وغيرها من المناهج الفكرية المختلفة، أما في مجال الفكر الإسلامي فإن الأمر يختلف، ذلك أن المناهج كلها ليست إلا خيوطا لنسيج واحد هو الإنسان، والمنهج العلمي الإسلامي يقوم على الوحدة والتكامل، فالطابع الخلقي هو قانون أساس شامل لا يستوعب الفن والأدب وحدهما، ولكنه يستوعب السياسة والاجتماع والتربية والاقتصاد... .

ومن هنا ليس هناك ما يسمى بإخضاع الفن للأخلاق أو استقلال الفن عن الخضوع للأخلاق، إن العلم والدين كليهما قد اجتمعا على استحالة التناقض في النظرة، فإن هذه الفنون إذا كانت من روح الفطرة وجب أن لا تخالف أو تناقض دين الفطرة، دين الإسلام في شيء.

وإذا كان الشاعر يهدف من وراء عمله الإبداعي إلى إبراز مواطن الجمال المتعددة في الأشياء، فإن الجمال الأسمى يكمن في كل قيمة أخلاقية فاضلة دعت إليها الأديان السماوية، ولذلك يرتفع الشعر الإسلامي إلى درجات الفن الراقي، من ناحية أنه ينشد الجمال الأسمى الذي يتفق مع فطرة الإنسان، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(1).

وكل صيحة تقول : إن الفن لا علاقة له بالأخلاق لأنه "فن" أو إن المقاييس الفنية لا علاقة لها بالمقاييس الخلقية، هي صيحة تتعامى عن حقيقة الفطرة، والدين والفن يلتقيان بالنفس، وكلاهما ينطلق من عالم الضرورة، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال، وكلاهما ثورة على آلية الحياة حين يلتقيان في أعماق النفس كما يلتقيان في أعماق الوجود، وفضلا عن ذلك نرى أن الفن هو الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال و" الحق"، لأن الجمال حقيقة في الكون، والحق ذروة هذا الجمال.

أرجو أن تكون هذه السطور السابقة قد قالت شيئاً موجزاً ثرّاً عن الأدب الإسلامي - بوجه عام - كمصطلح له جذوره التاريخية والتطبيقية، ودوره الكبير على مر العصور في ترسيخ العقيدة الإسلامية في النفوس، والمعالجة الحكيمة للعلل والأمراض التي أصابت الإنسانية بعطب وتشويه.

وقد عرضت بعض النماذج من شعر الشعراء في هذا الاتجاه العظيم، وجعلته مدخلا لما نحن بصدد تناوله الآن بالدراسة العلمية المنهجية للشعر التشادي الإفريقي العربي بين التقليد والتجديد.

---

(1) سورة الروم، الآية : 30.

الفصل الثالث: الشعر الإفريقي العربي بين التقليد والتجديد

1. التقليد والتجديد رؤية نقدية:

إن الأدب بصفة عامة، والشعر بصفة خاصة، لا يمكن أن يعيش في معزل عن قافلة الإبداع، فدائما يلزمه التطور والتجديد، لأنه إذا ظل عاكفا على نفسه في بيئته أصيب بالجمود والانكماش، كركود الماء الآسن، ويشهد تاريخ الأدب بأن ازدهار الشعر يأتي دائما تبعا للتطور في الأفكار والموضوعات والأشكال الفنية.

والشاعر عندما يستقي من تراثه الإسلامي ويتأثر به ويسترفد منه ما يتلاءم مع تجربته الشعرية فإنه لا يكون عندئذ مقلداً، لأن التقليد الأعمى هو الذي يجعل الشاعر يدور في فلك التراث بلا تفاعل أو مشاركة وجدانية، وهذا ما يمكن أن يسمى بالتقليد للتقليد، أو كما يقال التقليد الأعمى.

وحين انفتح وجدان أدبنا العربي على الفكر الإسلامي في صدر الإسلام، دخل هذا الأدب طوراً مضيئاً أشرق بالقيم الإسلامية المجيدة، والتعاليم المحمدية الرشيدة، وأصبحت لغة أكثر سماحة، وأنصع فصاحة، وصارت روحه أدنى إلى الإنسانية، وأقرب إلى المدنية، بفضل ما رفده من الروح القرآنية، والبلاغة النبوية، وهكذا حلت في الأدب قيم السلام والوئام محل الصراع والخصام، وقامت تعاليم الحب وطهارة الوجدان على أنقاض تعاليم الكراهية والزهو والعدوان، وأصبح هذا الأدب العربي، مع الإسلام، يمثل المدنية العالية، والإنسانية السامية، بعد أن كان - في الجاهلية - يمثل في كثير من مظاهره - البداوة المتخلفة والقبلية الخشنة.

وفي التراث العربي الإسلامي أدب يصور الغزوات والفتوحات الإسلامية، كما هو الشأن لدى شعراء الدعوة الإسلامية، حسّان، كعب، ابن رواحة، وكخطب الرسول ﷺ وخطب الصحابة ووصاياهم، وقد اتسع لها الشعر والنثر الأدبي في شتى العصور، من العصر الإسلامي، الأموي، العباسي، الدويلات... حتى العصر الحديث.

ومنذ أن اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وأتيح لها الانفتاح على حضارات وثقافات أخرى، وخاصة في العصور العباسية، دخل الأدب مرحلة جديدة من مراحل التطور والتجديد، فقد استفاد من فلسفة اليونان وحكمة الهند، وفكر الفرس، وقد ظهر هذا جليا عند أبي العلاء، وابن الرومي، وابن المقفع.

ثم إن الشعر عرف أشكالا جديدة من التعبير، كالموشحات الأندلسية، هذا اللون الفني الذي يعد ثورة في موسيقى الشعر الأندلسي، فهو علامة واضحة على التجديد الفني، واتخذ هذا النمط من التجديد في العصر الحديث قوالب عروضية جديدة كالشعر المرسل، وشعر التفعيلة، والشعر الحر، وبناء على ذلك التطور والتجديد الذي حدث للقصيدة الشعرية، يلاحظ أن الشعراء قد تعددت مذاهبهم واتجاهاتهم.

1. ففريق أخذ يحاكي القدماء في فصاحتهم وفي منهجهم في نظم القصيدة، مع التأثر بالعوامل الجديدة التي أثرت في الأدب، شعره ونثره، ومن هؤلاء البارودي وشوقي وحافظ ومحرم والجارم، ويلقب مذهب هؤلاء في الشعر بالمذهب الاتباعي (الكلاسيكي).

2. وفريق دعا إلى التجديد في الشعر والخروج فيه على منهج القدماء، وجعله متمشيا مع ناموس التجديد في الحياة والحضارة والثقافة، وجعله تعبيرا خالصا عن نفس الشاعر ومشاعره وآماله وآلامه، ويسمى مذهب هؤلاء في الشعر بالمذهب الابتداعي (الرومانتيكي) ومن هؤلاء: مطران، شكري، المازني، العقاد، أبو شادي، وناجي وغيرهم من شعراء مدرسة الديوان وأبوللو.

3. وفريق آخر رأى أن الشاعر يجب أن يكون واقعيا في شعره، يتحدث عن الحياة والمجتمع، وواقع الشعوب العربية مصورا لآلامها، داعيا للثورة على الجمود والفقر والمذلة، وغيرها من أمراض المجتمع، ومذهب هؤلاء هو المذهب "الواقعي".

فالتقليد الجامد أو ما يسمى بالأعمى، هو الذي يسير فيه الشاعر على نهج السابقين وليس له شخصية أدبية، أو رؤية فنية، أو قيمة موضوعية، وعندئذ يُحكم على الشاعر بأنه ميت الشعور، متبلِّد الفكر، جامد العاطفة، وتقليده لا يقبل بأي حال من الأحوال، أما الشاعر الذي يبدأ حياته الإبداعية مقلدا للسابقين فترة زمنية حتى تنضج عنده ملكة الإبداع، ثم يستقل بشخصيته الأدبية بعد أن تغذّت وارتوت من معين الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة، ثم أخذت من روافد الثقافة الغربية ما يتفق مع أصالتنا الإسلامية، عندئذ يكون التقليد قويا ومحكما.

وإذا كان التقليد محكما يتخذ فيه الأديب منهج السابقين، فيتناول المعاني بأسلوبهم وخيالاتهم، ولكنه يفيض عليها من شعوره، إذا كان العمل الأدبي شعراً، أو يقوم بالتنسيق والتبويب مع نفس المعاني والأساليب، إذا كان العمل الأدبي نثراً، فهذا مقبول في الأدب الإسلامي الحديث، وذلك مثل قصيدة البارودي "كشف الغمة في مدح سيد الأمة" فهي شعر إسلامي يصور سيرة الرسول ﷺ منذ ولادته حتى وفاته، وقد عارض فيها الشاعر بردة البوصيري، وهي وإن كانت من شعر المعارضات والتقليد، معارضة قوية للشعر القوي، وتقليد محكم أطلت فيه شاعرية البارودي، ودلت على قدرته في صياغة الشعر.

غاية ما أصبو إليه أن التقليد المحكم في الشعر الإسلامي للتراث القديم مرحلة مهمة لإفراز شاعر يستطيع التعبير عن مشاعره الذاتية، وعن أمته الإسلامية تعبيراً قوياً يتسم بالأصالة، ومما لا شك فيه أن هذه المرحلة ـ التقليد المحكم ـ أول مرحلة للتطور الشعري يتبعها التجديد.

والتجديد هو تطويع ما يجول في العصر الحديث بما يتناسب مع الموروث الحضاري عن الحقب السابقة، فالقديم الصرف ليس جديداً، إلا إذا استمد الشاعر من روافد القديم، وعمقها من حياته المعاصرة بما ينداح من هذه الروافد، ويتلاءم معها، ولا يناقضها أو يختلف معها، حتى لا يصطدم مع التيار القديم في روافده، وحينئذ يسمى تجديداً، فالتجديد تطور وبناء، وليس تقليداً ولا هدماً، وهذا ما قام به النقد الحديث، فقد جعل التجديد يقوم على تطويع القدماء ومدى الاستجابة للمعاصر والجديد.

والناظر بإمعان في حركة الشعر العربي، منذ منتصف القرن الماضي، يلمس أنه قد خرج من الضعف والركاكة، وكثرة البديع، والتكلف الممقوت إلى الشاعرية الحقة، بواسطة البلاغة الجميلة المعتدلة، وكذلك التعبير عن النفس البشرية بكل صدق فني، ووضوح في الرؤية، ورسم القصيدة الشعرية وكأنها لوحة فنية حية تنطق بالحياة.

وليس بخافٍ على من يرصد الحركة النقدية أن المدارس الشعرية العربية قد قامت بدور عظيم في تطويع القصيدة لمستجدات العصر، وكل ما يدور من حولنا، وكان من أبرز هذه المدارس والجماعات : مدرسة الديوان ممثلة في العقاد وشكري

والمازني، وقد خرجت هذه المدرسة بتجديدها من خلال أشعارهم، وكتابهم النقدي " الديوان".

وامتد التجديد إلى مدرسة المهجر الشمالي، ومدرسة المهجر الجنوبي، وخاصة في كتاب " الغربال" لميخائيل نعيمة، وجماعة أبوللو ممثلة في أبي شادي ومجلته " أبوللو"، ومدرسة الإبداعيين العاطفيين التي خلقت بالخيال من خلال لغة جديدة فاتنة، وفي مقدمتهم الشاعر إبراهيم ناجي.

ثم تلت هذه المدارس الشعرية مدرسة الشعر الحر التي رادها صلاح عبد الصبور، وإن كانت هذه المدارس التي ما زال صداها يملأ الساحة الشعرية إلى يومنا هذا قوبلت بالقبول تارة، وبالرفض تارة أخرى من قبل النقاد والأدباء والجمهور.

ويبدو لي، على ما اعتقد من خلال نظرتي النقدية، أن بعض شعراء هذه المدرسة اتسمت أشعارهم بالهوية الإسلامية والأصالة، ولم يفقدوا أصالتهم وهويتهم، والبعض الآخر قد تمرد وثار على الشعر العربي الأصيل شكلا ومضمونا، ولذلك قوبلوا بالرفض من قبل النقاد المخلصين لدينهم، والغيورين على تراثهم وآدابهم الأصيلة.

فهذه المدارس الشعرية والحركات الأدبية استلهمت التراث، واستطاعت أن تطوع القصيدة نحو التجديد، وأن تتعرف على ما عند الآخرين، ولذلك أؤكد على أن الأخذ يلزمه الحذر، فحينما نأخذ لا بد وأن نضع نصب أعيننا أن يتم الأخذ والإضافة في إطار ما يتفق مع عقيدتنا، ونعلم أن رواد الحركات والجماعات الشعرية في العصر الحديث، أمثال شوقي والعقاد ومطران وناجي، وصلاح عبد الصبور بلغوا قمة الشعر لأنهم بنوا اتجاههم على دعامتي التراث الإسلامي الخالد، والانفتاح على الجديد، الذي يطور ويبني، وليس التجديد -بمفهومه العامي- أن نأخذ كل ما عند الغرب وننقله إلى ديار الإسلام بكامله، فالأمة الإسلامية في دينها وثقافتها وآدابها تختلف عن ثقافة الغربيين، فلكل مجتمع اتجاهه وسماته، ولنعلم أن الحضارة الإسلامية هي أرقى الحضارات، لأنها تساير كل عصر، وتوجه الإنسان نحو قيم الحق والخير والجمال. ومن ثم أتفق تماماً مع مقولة نقدية عظيمة عن التجديد

المنضبط ترى أن " التجديد النافع هو الذي ينبثق من الأصالة، ينبثق من الدراسة الموضوعية لأدبنا وحياتنا، ويعبر عن الروح الأصيلة للأمة الإسلامية والعربية".

ومهما يكن من شيء، فإن مدرسة التقليد المحكم الأصيل لم تمت، وإذا كانت قد فقدت معظم أعلامها من أمثال شوقي وحافظ وعلي الجارم، ومن قبلهم رائد الشعر العربي محمود سامي البارودي، فهناك العديد من الشعراء المحافظين الذين اقتفوا آثار أساتذتهم، وهذا كله ما سيتبين لنا من خلال الدراسة التطبيقية لقضية التقليد والتجديد في الشعر العربي الإفريقي، وعلى وجه التحديد في الشعر التشادي، مع الأخذ في الاعتبار أنني أتعامل مع بيئة شعرية ما زالت بكراً، وفي حاجة إلى مزيد من الجهد والإنصاف.

2. التقليد والتجديد في الشعر التشادي بين النظرية والتطبيق:

أ) شعراء سبقوا مرحلة التقليد

من الحقائق التاريخية عن الممالك التشادية الثلاث: وداي، كانم، باقرمي، أنها أفرزت جيلا من الشعراء، وكان هذا في منتصف النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وكان من أبرز الشعراء حينئذ الشاعر إبراهيم الكانمي، كما ورد في المصادر التاريخية.

ومن أشعار الكانمي قوله مشيراً إلى نسبه، وأنه من قبيلة زكوان:

إني وإن ألبستني العجم حلتها　　　فقد نماني إلى ذكوانها مضر

ويمدح أحد الخلفاء رغبة في الوصول إلى مكانة بين يديه:

ما بعد باب أبي إسحاق منزلة　　　يسمو إليها فتى مثلي ولا شرف

أبعدما بركت عنسي بساحته　　　وصرت من مائه اللجي أغترف

هموا بصرفي وقد أصبحت معرفة　　　فكيف ذاك واسمي ليس ينصرف

فالأبيات السابقة تخلو من العاطفة الجياشة، والصدق الفني، لأنها من باب المدح والتملق.

ولكن هذه الفترة الأدبية انقطعت عن مسيرة الشعر التشادي، إلى أن بدأ الشعر يصل إلينا في بداية القرن الثامن عشر، ومنتصف القرن التاسع عشر،

وخاصة بعد مذبحة " الكبكب" الأليمة سنة 1917م هذه المذبحة التي قضت على أربعمائة من خيرة علماء تشاد - رحمهم الله - ومن تبقى منهم على قيد الحياة نظم أشعاراً أخذت شكل المنظومات، والقوالب الموسيقية التي لا ترتقي إلى سماء الشعر الرفيع، وأود أن أقدم بعضاً من شعر الشعراء الذين سبقوا مرحلة التجديد:

فمن الشعراء الذين شهدوا حادثة " الكبكب" الشيخ الرماس، ويقول مصوراً هذا الحادث الأليم:

قال ابن يعقوب الفقير لربه ... الترجمي النجل ابن محمد
الحمد لله المقدر ربنا ... في السابق الأزلي قضاه أحمد
جاء قوم لا أمان في قلوبهم ... مملوءة قيح ودم أسود[1]
رمص وزعر ثم خضر عيونهم ... جرط وحمر كالفشافش نكد
دخلوا المساجد ثم كتب مزقت ... بهم الكلاب النابحات الطرد
منعوا الشريع والرياسة كلها ... جعلونا خداما لهم كالأعبد
قتلوا مشايخنا الكلاب الحجر ... في كز من شهر المحرم الأسعد
قطعوا الرؤوس من الكلاب بكبكب ... سال الدماء على التراب المجمد
تركوا الرؤوس ودفنوا أجسامهم ... جعلوها عبثا لهل محمد

فالقصيدة تصور الحادثة تصوير أوصفياً، وكأنها سجل تاريخي يخلو من روح الشعر والعاطفة الجياشة، ولذلك ظهر الضعف بين أبياتها من حيث اللغة والأسلوب وضعف التشكيل الفني.

ومن أبرز الشعراء الذين سبقوا مرحلة التقليد عليش عووضة، أحمد طبيق، عبد الحق السنوسي، وآدم بين ... وغيرهم، واتسم شعر هؤلاء بالروح الدينية، ونظم المقطوعات التعليمية، وتشطير القصائد.

فمن النماذج الشعرية الدالة على ذلك مخمسة الشيخ عليش عووضة، يقول فيها:

---

(1) هذا البيت ومابعده لا يستقيم في الميزان العروضي، (الحوليات).

يا رب فـيـهـا مـاكـرين أريهم عـبـر العـذاب وعلّهـا ترديهم
سهـمـاً مراشاً صـائباً يرمـيهم وارسل أبابيل الوبا ترمـيـهم
بحجارة من كيدهم فيهم تعود
مـاتوا عـدانا بغيظهم وبريبهم ويـد الإله طوت طوالـع أيدهـم
قـد أتركت أم الدواهي بزيدهم يا رب أغرقـهم بأبحـر كيـدهم
إغراق فرعون اللئيم مع الجنود

ومن الآثار الشعرية لمرحلة ما قبل التقليد هذا الشعر الديني في التضرع والاستغاثة، للشاعر عبد الحق السنوسي، يقول:

حمداً لمن أمر المكلف بالسجود وقضت مشيئته لإبليس الحسود
بالطرد أسفل سافل تحت الوقود مكرت بي الأعدا وظاهرها الحسود
فبغوا علَيّ وتركوا لي الودود[1]
نصبوا حبال البغي لي من كيدهم وغدوا على حـرد علَيّ بزعمـهم
وتجـمعـوا بجمـعـهم وسـوادهم وعدوا علَيّ بمـالهم وبجـاههم
يا حي يا قيوم يا صمد ودود
أنت المـغيث من المهالك كلهم يا منقـذ الغرقى وكاشف كـربهم
يا مـهلك أهل البـغى بجمـعهم يا رب قد مكروا بنا فـامكر بهم
مكر الذين تقاسموا فوق الرقود

فالأبيات تعلوها مسحة دينية، وتعلوها نية خطابية قوية، تشير إلى نفسية الشاعر، ولكن الأبيات تفتقد على صور فنية ورؤية تشكيلية، وعلى كل حال، فهذه بدايات وددت الإشارة إليها بإيجاز شديد - وليست على سبيل الحصر - لننتقل من هذه السطور إلى الشعراء المقلدين، لنرى أثر التقليد في أشعارهم شكلا ومضمونا، وهل كان التقليد رغبة في اقتفاء آثار رواد الشعر العربي - أمثال البارودي وشوقي، ممن حافظوا على تقاليد القصيدة العربية لمجرد الرغبة في التقليد من أجل التقليد؟ أم إن التقليد كان لغرض التمسك بالتراث، والحفاظ على الهوية

(1) الصدر لايستقيم وزنا، (الحوليات).

الدينية، والقيم الأخلاقية، والمعاني السامية، والتشكيل الفني الجميل لغرض الحفاظ على الموروث وتطعيمه بالجديد المفيد؟ هذا كله سأوضحه من خلال الصفحات التالية.

ب) التقليد عند بعض الشعراء التشاديين:

المراد بالشعراء المقلدين الشعراء الذين وُلِدُوا قبيل الحرب العالمية الثانية أو بعدها بقليل، ثم بدأ إنتاجهم يظهر على الساحة الشعرية في هذا العصر الحديث، وعرف هؤلاء الشعراء أيضا باسم المحافظين.

ومن أبرز رواد هذا الاتجاه في الشعر التشادي الحديث، عباس محمد عبد الواحد، حسب الله مهدي فضله، محمد عمر الفال، وحسين إبراهيم أبو الذهب، فلقد برز في شعر هؤلاء الشعراء السير وفق تقاليد القصيدة العربية، مع تطويع القصيدة في التعبير عن ذات الشاعر، وعن المجتمع من حوله، بالإضافة إلى الحفاظ على عمود الشعر العربي.

وقد جمع هؤلاء الشعراء بيئة تشادية محافظة، وثقافة إسلامية راسخة، وهدفا واحدا هو التمسك بالموروث العقدي والثقافي، ومقاومة المستعمر البغيض. وحينما نقلب صفحات ديوان الشاعر "عباس عبد الواحد" نلمس أنه ضم بين ثناياه عديداً من الأغراض التقليدية، وعلى سبيل المثال، عندما نقف على غرض المدح نجد الشاعر سار على درب السابقين من مدح الأشخاص الذين قدموا خدمات جليلة، فيقول:

لذوي المكارم شيمة وإباء ... وفضيلة وسماحة وسخاء
ورجاحة العقل السليم فهذه ... هبة الإله وكلها آلاء
أُثني على أهل الضمير لأنهم ... للبائسين مسيرة ورجاء
وَأَخُصُّ منهم بالثناء محمداً ... رجلاً تداعى عنده الضعفاء
والوافدون متى أقاموا عنده ... لا يشعرون بأنهم غرباء
يقري الضيوف فكل ركن شا ... هد للبيت فيه من الطعام إناء
رجل السماحة والديانة والوفا ... تبدو عليه الشارة البيضاء
وله مزايا لا تعد لحاسب ... ومزيد فضل ليس فيه خفاء

فالشاعر في هذه البيات يمدح من خلال الروح الإسلامية الأصيلة، بدليل أنه يعتبر أن الأخلاق الفاضلة ورجاحة العقل، والجود بلا انقطاع، وإقراء الضيف وغير ذلك من الخصال الحميدة فضلٌ من عند الله سبحانه وتعالى، وقد تميز هذا المدح بتنوع موضوعاته، وخلوه من التكسب والعطايا، مع عدم المبالغة في مدح الممدوح، ثم وضوح الروح الإسلامية النيرة البهيجة بين ثنايا الأبيات.

ولو ألقينا نظرة فنية على الأبيات، فإننا نلمس فيها وضوح الألفاظ، وانتقاءها من المعجم الديني الواسع : الفضيلة، السماحة، هبة الإله، رجاء، الضيوف، البيضاء، وتنوع الأسلوب ما بين الخبر والإنشاء، وإن كانت الصور الفنية قليلة، اللهم إلا الصور الجمالية المبنية على الاستعارة، كما في قوله :

يقري الضيوف فكل ركن شا ... هد للبيت فيه من الطعام إناء

واستعانة الشاعر على تصوير تجربته بتوظيفه للبحر الكامل "متفاعلن" ليعطي رحابة، بالإضافة إلى حرف الروي المشبع المعبر عن عاطفة الشاعر ووجدانه بكل صدق ووضوح.

وعندما ننتقل إلى غرض شعري آخر للشاعر عباس عبد الواحد نلمس مدى تقيده المحكم، ومحافظته على أصول الشعر الأصيل، فمثلا نجده في اتجاه التصوف المنبثق من تعاليم الدين الإسلامي قد رد هذا الاتجاه إلى أصول الدين، فيقول:

أما التصوف فالقرآن مرجعه ... وسنة نسبوها لابن عدنان
فمن أراد الهدى فلْيَمّسِ متبعاً ... ما أوضح الشرع في آيات قرآن
فتلك صوفية الإسلام واضحة ... بنى عليها أولو علم وعرفان
إذ قسموا النفس سبعاً في مراتبها ... في كل طور لها ما ليس في الثاني
أمارة وهي أولاها منسقة ... وهذه هي نفس الفاجر الواني
وعد لائمة منها وملهمة ... بذي مكارم أخلاق وإحسان
ومطمئنة إيمان وراضية أحكام ... ذي الطول من حلو وأشجان
واستوف عدك تتميما بكامله ... فتلك نفس تخطت كل ميدان
ومن يدع ملة الهادي وسنته ... أو شرعه باء في الدنيا بخسران

فالشاعر يشير إلى حقيقة التصوف، وأن طريق الهداية في القرآن الكريم، وأن النفس البشرية تنقسم إلى أنواع، كما أشار القرآن الكريم، منها النفس الأمارة بالسوء، و النفس اللائمة، والنفس المطمئنة، والنفس الراضية، إلى غير ذلك من أنواع للنفس ذكرها القرآن، وتناولها الفلاسفة وعلماء النفس، وفي هذا إشارة إلى تمسك الشاعر بدينه، ومحافظته عليه، ثم اتباعه لمنهج السابقين المحافظين على الموضوعات الدينية التي يحتاج إليها المسلم في حياته.

ومن الموضوعات الشعرية البارزة عند الشاعر عباس عبد الواحد، الموضوعات الوطنية، وفيها يسترفد التاريخ ويستنطقه، ويقف على الدمن والآثار ليبرز من خلال ذلك الحس الوطني، والحضارة الإسلامية، والسير على هدى السابقين في الربط بين الماضي والحاضر، الماضي بأصالته وقيمه، والحاضر بكل أشكاله ومتغيراته:

واذا وقفت على ربوعك ساعة فاكتظ قلبي هيبة وجلالا
لاحت معالمها لدي بعيدة فقطعت قبل وصولها أميالا
فإذا بقلعتها بدت وكأنها أهرام مصر رونقا وجمالا
تحولي من الفن الجميل روائع فدهشت من تلك الروائع بالا
شادت عباقرة الفنون قصورها ويد الملوك تمدهم أموالا
حتى غدت أولى القلاع بأرضها قدما وباتت للفنون مثالا

وبعد أن يصور الشاعر مشهد المكان، وما حدث له من غوائل الزمان، يتذكر عهدا من عهود " وارا" وهو عهد " عبد الكريم" حاكم " وارا" وقد يكون المراد بهذه الرجعة العودةَ على عهد المسلمين الأوائل، وخاصة حينما عاد الشاعر من بعثته في العراق، أرض الخلافة العباسية، والحضارة الإسلامية التليدة :

عهد الفتى عبد الكريم المرتضى كان التقي العادل المفضالا
أرسى دعائم سلطة قامت على نشر الهدى فتحمل الأثقالا
وأضاع في نشر الديانة عمره في الله حتى حقق الآمالا
العدل ساد على جميع ربوعها والظلم قطع جسمه أوصالا
ويد المنايا استأثرت فيه وقد ولى وخلف بعده أعمالا

ومن أجمل الشعر الوطني للشاعر عباس عبد الواحد، قصيدته " إفريقيا الثائرة" التي تدل على عمق الحس الوطني، وعشق الشاعر للقارة الإفريقية، ومنها قوله:

إن إفريقيا شمالا وشرقا وجنوبا وسائر الأنحاء
جسم فرد ما مسه السوء إلا بات يسري في سائر الأعضاء
يا ابن إفريقيا الفتية قاوم إننا في غنى عن الإغراء
لقن الغاصب المريع دروسا بشفاه البنادق الخرساء

فمما سبق ذكره من نماذج موجزة لشعر عباس عبد الواحد - بصفته من الشعراء المقلدين - من ناحيتي الموضوع والشكل الفني، يمكن في عجالة سريعة أن أشير إلى أن البناء الفني عند شاعرنا يقوم على توظيف الألفاظ الجزلة القوية، ذات الدلالات الواسعة، فلقد اتسع المعجم الشعري لديه لمدلولات كثيرة، ويميل أسلوبه إلى التقرير الخالي من الخيال، كما نلمس ذلك في أول بيت، وتقوم الصور الفنية لديه على التأثير والإقناع، ولئن كانت الوحدة العضوية بمفهوم النقاد المحدثين مفقودة بين الأبيات، إلا أن الأبيات ترتبط في إطار وحدة شعورية تسري فيها الروح الإسلامية، كقوله :

والله قال بحبل الدين فاعتصموا فالكل ما بين إخوان وخلان

وواضح أن الشاعر تأثر بقوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

ويوجد شاعر آخر من الشعراء التشاديين، وهو محمد عمر الفال، من الذين قلدوا السابقين بإحكام، مع المحافظة على بناء القصيدة الشعرية، والحرص على سريان الروح الدينية والقيم الأخلاقية في ثنايا البيت الشعري، ولقد طرق شاعرنا جميع موضوعات الشعر العربي الأصيل، فمن شعر الغزل العفيف قوله في قصيدته "لم يبق لي فيك عذر" :

أقول لا تضرعي في ساح مغفرتي فإن مثلك لا يجثو على قدمي
برئت منك براء الذئب يوم جنى أبناء يعقوب فاحتالوا له بدم
ألقوا أخاهم من الأحقاد منتكسا في قاع بئر ولم يلووا لمرتطم

وأذرفوا الدمع تصديقا لفعلتهم في صدر يعقوب خالي الذهن من نقم
كذاك أنت لا يخفي خداعك لي وقد بقى أزمنا يسري خلال دمي
سحبت كل رصيد كنت أودعه لأن نبكك لم يسلم من التهم

فاستلهام التراث الإسلامي، وتوظيف الشخصيات الإسلامية، يدل دلالة أكيدة على التزام الشاعر بالموروث، والمحافظة على القيم الإسلامية، مهما كان الغرض الشعري، وإن كان في باب الغزل، كما لمسنا الآن.

وقد طرق الشاعر عديداً من الأغراض الشعرية التقليدية، كالشعر الاجتماعي الكاشف لعيوب المجتمع، وما فيه من علل وأمراض، فيقول في قصيدته " الذئاب ":

ألا في خلال الناس ما هو يشهد على لؤمهم في العالمين وينقد
فبعض لبعض كالذئاب يحيطهم ذئاب ومن يغشو حماهم مهدد
خبرتهم ردحا من العمر ما لهم صديق يواسي في النوائب يرقد
يلون في الأخلاق في كل ساعة كما يفعل الحرباء أيان يقعد
يريك من الأخلاق ما ليس ثابتا كظل الضحى يبقى قليلا فيشرد
أفي كل يوم خدعة من صداقة أرى ودها يدنو إلي ويبعد
وما زلت أرجو الصدق في كل خلة ولكن ود الناس عندي مبدد

فمن الملاحظ أن الشاعر ينظر إلى المجتمع بمنظار تشاؤمي قد يؤدي به على التمرد على واقعه، فالنظرة سوداوية، وتجلى ذلك من خلال الصورة الفنية التي قدمها الشاعر، كالتشبيه في قوله "كالذئاب يحيطهم ذئاب" و "كظل الضحى" إلى غير ذلك من أشكال جمالية، تعكس ما يدور بخاطر الشاعر من مشاعر حزينة، وما يحس به من ظلم اجتماعي يأباه الإسلام وينبذه.

وقد وقف الشاعر " عباس عبد الواحد " عند بعض المدن التشادية الموغلة في التاريخ، كمدينة " وارا "، كما تغنى الشاعر " الفال " بمدينة "أم حجر " ووقف على أطلالها مثلما وقف الأولون من الشعراء القدامى، ويقول :

أغـاني المـجـد يرسلهـا فـؤادي إلى شـتى المـدائن من بلادي

مـدائن شـيـدت في عـهـد عـز وقـاهـا الله من شـر الأعـادي

مـدائن حـررت من عـهـد قـهـر لطاغي الدهر مـذ إرم وعـاد

فـمن تلك المـدائن أم حـجـر كـأن رمـالهـا فـرش المـهـاد

عـروس الواد لم أخطب سـواهـا وليس لدونـهـا أبدا ودادي

عزيز النفس من يحمي حـمـاهـا ويطلب ودهـا قـبل التـفـادي

على أحـضـانـهـا أمم تـآخت وفي أرجـائهـا عظم البـوادي

فتغني الشاعر بمدائن بلاده يدل على عمق النزعة الوطنية لديه، هذه النزعة النابعة من رؤية دينية، كما يبدو في دعائه لله تعالى، وذكره لقوم إرم وعاد، ثم استعان بالصور الفنية الجميلة المؤثرة، كالتشبيه في قوله "كأن رمالها فرش المهاد"، والاستعارة المبنية للمضمون في ثوب جمالي كقوله "لم أخطب سواها" وقوله " على أحضانها أمم تآخت"، ومن البديهي أن هذه الرؤية تشير إلى عمق الوازع الديني، والحس الوطني عند الشاعر، مع تمسكه بأصالته، والمحافظة على تراثه.

وقد طرق الشاعر باب الفخر، بيد أن فخره ينبع من اعتزازه بالإسلام وشجاعته وقوة شكيمته على الأعداء، فيقول :

أنا المـسلم الشـادي إليك تحـيـة سلامـا من الرحمـات والبـركـات

بهـا يسلم البـاغي ومن خـاف سطوتي فـإن أمـان الخـائفـين صـفـاتي

أنا الليث إن نوزعت حقى وفي الوغى أصد خـمـيس الجيش بالطعنات

أنا الفـارس المـغـوار إن نال من أخي خـداش عـدو مـا تلين قناتي

أنا السمح في خلقي أنا السمح في الورى أنا الضـارب القـاسي بحق عداتي

أعيش عـزيزا مـا حـييت ولو أبى أكـابر كـفـر أن تقـام صـلاتي

فـالافـتـخـار بتـقـوى الله، والذود عن حـمـى الأوطان، وأمـان الخـائفـين، والاعـتـزاز بالنفس، والدمـاثة في الخلق، ومقـاومـة المتكبرين، هذه الصفـات والأخلاق كلهـا ينبغي على المسلم أن يتمسك بهـا قـولا وعملا، وتدل جميعـا على

شخصية الشاعر المحافظ على تقاليده وقيمه التي لا تنفك عن كل شخصية مسلمة تلتزم بأصولها وتراثها وعاداتها وقيمها النبيلة.

ومن الشعراء التشاديين الذين ساروا على درب الاتجاه التقليدي المحافظ، الشاعر حسب الله مهدي فضلة، فلقد التزم بتقاليد القصيدة العربية شكلا ومضمونا، وإن كانت له بعض القصائد التي خرجت عن تيار المحافظة إلى تيار التجديد، كما سأذكر ذلك بعد قليل، ولكني أود في عجالة أن أقدم بعض الأغراض الشعرية عند الشاعر، والتي تدل على أصالته وتمسكه بالموروث، وتقليده المحكم للشعراء المحافظين في العالم الإسلامي.

ففي غرض التهاني والمدح نجد قصيدة للشاعر بعنوان "هكذا الأمجاد تُبنى" نظمها بمناسبة حصول إمام المسلمين في تشاد، حسين حسن" على شهادة الدكتوراه، ومن مطلعها قول الشاعر:

أإكليل مجد في جبين تألقا	وبدر على الأفق التشادي أشرقا
نِعَمَ مِنّةٌ من الإله بها على	تشاد وكم أعطى الإله وأغدقا
حباها إماماً في الديانة راسخاً	طموحاً على العلياء بالحق ناطقا
هنيئا إمام المسلمين بذروة	تسنمتها إذ خاب بعض وأخفقا
ترقيت للعليا ليس فوقها	على سلم التعليم والدرس مرتقى
فألبست كرسي الإمامة حلة	وبنيت نهجا كان من قبل مغلقا
وبددت وهما في العقول معششا	وحطمت قيداً للعزائم موثقا

إلى قوله :

وقم واستعن بالله واكشف غشاوة	أصابت عيونا أو عمى كان مطبقا

فالمدح كما يبدو ليس طلبا للمال، وإنما ينصب على شخص الممدوح بما تحمله من معان قيمة، وأخلاق فاضلة، وعلم ثر، وتمسك بمنهج الله تعالى، وهذا بلا شك، شيء حسن، لأن المدح ليس للتكسب، ولكنه حب للممدوح.

وقد طرق الشاعر باب المدح النبوي على غرار السابقين، مقلدا لرواد هذا الاتجاه، كعب بن زهير، الإمام البوصيري، وأحمد شوقي، يقول الشاعر فضلة من قصيدته "رسول الإسلام".

دع مديح الملوك فهو هباء ... وامدحن من عبيده الأمراء
سيد الرسل هل لمدحي مجال ... فيك بعد الذي جلى الشعراء
كل مدح يقال فيك ضئيل ... عنك مهما أطيل فيه الثناء
هل يطيق اللسان عد مزايا ... أثبتتها الأعداء والاصدقاء
جئت بالحق والورى في ضلال ... تنكر الأرض سعيهم والسماء
عشش الجهل في العقول فأمسى ... ينعق الزيغ فوقها والمراء

إلى آخر أبيات القصيدة بما فيها من تشكيل فني يليق بحضرة الرسول ﷺ، وفي الوقت نفسه، يشير إلى عمق الوازع الديني عند الشاعر، وسيره على هدي الشعراء السابقين ممن برعوا في مدح أعظم الخلق أجمعين ﷺ، وبودي زيادة مساحة الدرس التحليلي الفني، ولكن الوقت لا يسمح إلا بالإيجاز الشديد.

ويأتي شعر الحضارة الإسلامية، والوقوف على آثار المدن الإسلامية في شعر حسب الله فضلة، وتمثل ذلك عندما وقف على آثار "وارا" مثلما ورد في قصيدته "وقفة على آثار وارا":

غضوا العيون فهذا موطن الأدب ... هذا الجلال الذي لم يطو بالحقب
هذا الشموخ الذي لم يحن هامته ... بفضله الدين أوفى بعد منقلب
من قام في عزة عزت مثيلتها ... يدعو إلى الله في إقدام محتسب

وبعد أن خلع الشاعر على آثار مدينة "وارا" العريقة صفات الجلال والجمال، ورسم صورة لها، وما تحتويه من أماكن لرجال أفذاذ عاشوا في العصور السابقة، ينتقل الشاعر ليخاطب الآثار في حوار تشخيصي، ويخلع عليها من صفات الأحياء، فيقول :

أطلال وارا أجيبي خبري ملأً ... قد أخرسوا هيبة عن كل محتجب
صِفِي لنا كيف كان الملك مزدهراً ... لساحل الرحب يعشو طالب النسب
صِفِي لنا مجلس السلطان مجتمعاً ... بشعبه مثل أبناءٍ في حجر أب

فخطاب الشاعر في قصيدته - على ما يبدو لي - يرمي ويرمز إلى عصرين، عصر ارتحل ومضى في عهد عبد الكريم، مؤسس مملكة "وارا" بكل ما فيه من عدل وحرية ورحمة ورغد عيش، وعصر ماثل وحاضر بكل ما فيه من مظاهر وأشكال لم يرض عنها الشاعر، يوجد إذن مغزى وهدف وتوظيف جيد لشعر الحضارة الإسلامية.

وللشاعر قصائد غزلية تنوعت اتجاهاتها ما بين الالتزام بالقيم النبيلة، والتهكم بالمحبوبة، وتصويرها في شكل مشين، ومن النوع الآخر قوله :

تسائلني وقد غدرت بحبي ... لماذا نحو ربعي لا يتوب
فقلت تغاضياً شغلي كثير ... وليس لريح راحاتي هبوب
فقالت لا ترم غُشِّي فحسبي ... خداعا أنت في غيري تذوب
شحوبك فاضح شغفاً بأخرى ... فلست على جحودك أستريب
فصحت ولم أطق صبراً رويداً ... أترميني بدائك يا جروب
يضيق علي قلبي بازدحام ... فكل فتى له فيك نصيب

إلى غير ذلك من أبيات القصيدة، تشير إلى نفور الشاعر من محبوبته التي خانته، وهذا يدل على أنه يتعلق بالمرأة الشريفة التي تخلص في حبها، أما المرأة التي خانته فهو يأباها، وهذا دليل على أن الغزل عند الشاعر ينبثق من رؤية نيرة، ومن هدف شريف يبتغيه الشاعر من محبوبته.

وأكتفي بهذا القدر الموجز من شعر الشعراء الذين حافظوا على نظام القصيدة العربية شكلا ومضمونا، وانتقل إلى شعر التجديد عند بعض الشعراء التشاديين.

ج) التجديد عند بعض الشعراء التشاديين.

ظهر التجديد بملامحه المختلفة عند بعض التشاديين المعاصرين، ومن أبرزهم عيسى عبد الله، وعبد القادر أبه، وعبد الواحد حسن السنوسي، ومصطفى كانم، ويمكن، في عجالة، إرجاع التجديد عند هؤلاء الشعراء إلى عدة أسباب من أبرزها: ظهور حركات التجديد في العالم العربي، بدءاً من مدرسة الديوان، عندما

أدخل أحد روادها، وهو شكري، الشعر المرسل في ديوانه، بالإضافة إلى مدرستي المهجر الشمالي والجنوبي، وما تبعهما من ثورات واتجاهات في عالم الشعر والأدب، وقد بدأت مرحلة التجديد الحق بدعوة خليل مطران التي أعلنها من سنة 1900م بقصائد يبث فيها تجارب ذاتية، ويمزج فيها آلامه بأحلامه وتأملاته، ويرى في الطبيعة ألمه وحزنه، فغير بذلك موضوع القصيدة العربية.

وقد قام عديد من النقاد بدور بارز في توجيه الشعراء نحو التجديد شكلا ومضمونا، وحجتهم في ذلك، كما ذكر شيخ أساتذة النقد الأدبي في العالم الإسلامي، حتى يستطيع أن يؤدي رسالته الفنية في الحياة، ومن هؤلاء من يدعون إلى التجديد في الموضوعات الشعرية، لتتسع لشتى الأغراض، وألوان الشعور، والحياة والطبيعة.

ومن الأسباب كذلك ظهور عديد من الملامح الجديدة في الشعر، منها شعر التفعيلة، والشعر الحر، يضاف إلى ذلك أن الشعراء المجددين في تشاد عاشوا فترات زمنية خارج بلادهم، مثل الشاعر عيسى عبد الله، الذي قضى زمنا في ليبيا والسودان، فأتاح له ذلك الترحال التعرف على مدارس التجديد في الشعر العربي، والشاعر عبد الواحد حسن، الذي زار كلا من السودان وليبيا والسعودية، بينما تلقى الشاعر مصطفى كانم تعليمه في مصر.

ومما لا شك فيه أن شعراء التجديد عبروا عن ذاتهم ووجدانهم وأحاسيسهم برؤى مختلفة عن الشعراء التقليديين، ونجد في أشعارهم العديد من الموضوعات التي لم تكن مطروقة من قبل، كالشعر الذاتي، والتغني بالأحاسيس، وظهور النزعة الإنسانية، بالإضافة إلى الأشكال الموسيقية المختلفة.

ونقدم فيما يأتي نماذج من شعر التجديد في تشاد نتخذها درسا تطبيقيا لما قررناه من أحكام نقدية، ونبدأ بالشاعر عيسى عبد الله في قصيدته الدينية "كشف المطمورة عن أبيات مغمورة، في نجوى نور المعمورة".

تحتوي القصيدة على ثلاثمائة وثلاثة عشر بيتا، ويحتل مدح النبي ﷺ، والصحابة الأجلاء أكبر جانب منها، وقد ظهر التجديد في القصيدة، ومرد ذلك أن الشاعر يريد تثبيت العقيدة الدينية، وبث روح التفاؤل والأمل في ضمير ووجدان

الأمة الإسلامية، مع توظيف التراث الإسلامي من خلال سيرة الصحابة رضوان الله عليهم، وقد وظف الشاعر بحر "المتدارك" ليعطي إيقاعا موسيقيا سريعا يتلاءم مع الأحداث السريعة الموجعة التي أصابت جسد الأمة الإسلامية، من تفرق وحقد وأغلال، من المحيط إلى الخليج، يقول الشاعر:

البادئ باسمك مؤتجر ... ويحمدك يلهج من ذكروا
من ذنبك يصحبني شور ... فعسى يأتي منك الفجر
وعلى المذكور به مضر ... صلواتك مزن تعتصر
بوجودك تعترف الفطر ... فللطفك فيض منتشر
وتسبح باسمك طائعة ... أمم لا يعروها ضجر

وبعد أن بدأ القصيدة بتسبيح الله وتوحيده، ينتقل إلى الاعتراف والتسليم بقدرة الخالق في خلقه لكل شيء:

من غيرك يخلق من ماء ... كل الأحياء ويبتكر
وتدوم حياة أبدعها ... فإلى الأنثى يأوي الذكر
هل غيرك من أحد يحي ... بل فيك القدرة تنحصر

ويستلهم الشاعر الشخصيات الإسلامية العظيمة من خلال توظيف جيد، ومن ذلك قصة إسلام عمر بن الخطاب (، وما تبع ذلك من أحداث عظيمة عادت بالخير على الدعوة الإسلامية، وكأن الشاعر يعز عليه حال المسلمين في هذا الزمان، فيريد أن يطلعهم على سيرة الصحابة الأجلاء، لعلها تكون ملاذا من فتن الزمان، وكما ورد في الأثر " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" يقول عيسى:

بلسان العرب أتى دررا ... فشفت وتلألأت الدرر
حارت قوم لمَّا سمعوا ... جرسا يسبي هل هم سحروا
بدأ الفاروق تلاوته ... بحمية كفر تمتثر
ويفعل مذاق حلاوته ... وسطوع سناه صحا عمر
ومشائخ مكة قد سجدوا ... لمَّا سمعوه وما شعروا

ثم يأتي الشاعر بأبيات تحمل دعاء وتضرعا، لعله يحظى بها بشفاعة الرسول (، أو يحشر في زمرته يوم الدين في الجنة، فيقول:

فأنلنا رب شفاعته فيمن ستروا ثم انستروا

واحشرنا داخل زمرته فإليك تساق غدا زمر

وارزقنا خدمة سنته زلفى حتى يقف العمر

فنهاية خادمها نعم ونهاية هادمها سقر

فالشاعر بيّن من خلال أسلوب شعري واضح يتسم باللين والرقة والأدب جزاء كل من الطائعين والمذنبين، ومما لا شك فيه أن القصيدة تحتاج إلى درس تحليلي نقدي بشكل موسع، وعلى أي حال، فإن هذه القصيدة تُعدُّ من عيون الشعر التشادي الإفريقي الحديث، فلقد تجلى فيها المقدرة الفنية للشاعر، من خلال الوحدة الفنية والشعورية، وصدق التجربة الشعرية، وروعة الصورة الفنية، بواسطة الإقناع والتأثير، وفوق هذا وذاك، تدل على براعة التوظيف الجيد للتراث الإسلامي من خلال رؤى جديدة، وقيم أصلية، وهدف نبيل.

والشاعر عيسى عبد الله عاش في فترة زمنية تعالت فيها صيحات التجديد، وقد استفاد من ذلك، وخاصة من المذاهب الأدبية الغربية من رومانسية ورمزية، بالإضافة إلى الاتجاهات الفكرية، فنلمس عنده الرمزية في قصيدته "مدت" والتي نظمها باللهجة التشادية، ومن مطلعها:

البشيف باع بيع الوطن شيء ما يهمه دنى أمباكر يوم في الحلة أمه

ويؤذن في قصيدته "يا مؤذنا" ليحث أبناء الوطن على المقاومة والنهوض، فيقول:

يا مؤذنا أَسْمِعْ الصم حين نادى لا قنوط فالشمس بعد الدجى يلوح

ولقد جدد الشاعر عيسى عبد الله في موسيقى الشعر التشادي، فلم يلتزم بالبحور الخليلية، وخرج على نهج القصيدة العمودية، وخذ مثلا قوله من قصيدته "صبار"

صفوفها مائة يؤوس جلها مثلما بأحرف مواربة

رؤوس كل واحد مائة عقولها تؤلف الكوارث المغاضبة

وفي قوله في قصيدته "ضوضاء" تلمح ملامح التجديد الموسيقي :

تدفع الموجات للآذان فالضوضاء فوضى لولبية   دون إيقاع ونسق باندفاع الحشيرات الغبية

في أنوف أو عيون من زوايا جانبية

واتخذ عيسى من الشعر الحر طريقا نحو التجديد، ومن ذلك قصيدته "سنكرا" كتبها باللهجة التشادية، ومن مطلعها:

دمع وَاغَـادُوغُـو لـم يزل   مـــثل ســـيل جـــرى

فـــهي في كل يوم ترى   ذكـــريات غـــدت

من أساطير مأساتها أسطرا   في الصباح الموشى خيوطا

سماوية اللمع مثل لون الذهب أسطرا

ولم يكن التجديد عند عيسى ميتا، ولكنه تجديد يملأ قصائده بجماليات منتقاة من خلال الصور الفنية الجميلة، والملامح البلاغية الرائعة، ففي قصيدته "مددا" لو تأملنا كلمات الشاعر فيها، لوجدناها كلمات عادية سطحية، إلا أنه استطاع بموهبته الفنية الإتيانَ بالكلمات الموحية المعبرة التي تضفي سحراً وجمالاً وحركةً وصوتاً ولوناً على العمل الإبداعي، ولننظر إلى مطلع القصيدة :

في عين الأبعد خمس مثل نصال مدى

خمس في عين أضمر صاحبها الحسد

ثم يصف الأزهر الشريف قبلة العلماء بمصر، فنلمس روعة الصور الفنية،والأشكال الجمالية التي ليست في حاجة إلى تعليق، كقوله في وصف مصر وأزهرها الشريف منارة العلم، وقبلة العلماء والطلاب :

بلد البدوي ورأس الحربة أزهرها نجبت

ومضى الأعصر لم يمنعها أبدا

أن تحتضن الأيتام وأن تلد

أن تفتح نافذة للنوافذ أو أن تمنح أو تعدا

وبحق رواق صليح ما كذبت

وهبت وحبت فسبت وصبت

وأبت لعقيدة أمتها إلا الرشدا

وأبت لثقافتها المرضا

ومن الشعراء المجددين ـ شكلا ومضمونا ـ في الشعر التشادي الحديث، الشاعر عبد القادر محمد، فمن أشعاره الوجدانية المتسمة بعمق الرؤية، والرمزية الهادفة قوله في قصيدته "رؤى وحقائق" ومطلعها:

رؤى تتحرر من حبس الزمن الساحق

وتخلفني نقطة

من حبر دواة لا تعرف كيف تنافق

رؤى تتصاعد بي نحو الذكرى

وتقربني من بعض نبوءات الزمن اللاحق

وإذا ما كدت ألامسها أعانقها

تنكرني تتركني أهوي من شاهق

ومن قصائده التي تنتمي إلى التيار التجديدي قصيدة "صرخيني" حيث مزج فيها الشاعر بين الفكرة والوجدان، لتعبر عن معاناة نفسية، وحرمان شديد ألمّ بالشاعر، لذلك يصرخ في القصيدة، وإن كان لم يقصد الصراخ بمعناه الحقيقي، يقول الشاعر:

صرخيني أنني فضلات عشق تتداعى

قد يعود العشق يوما

لكني أنكر نفسي

إن سميت ملحدا بالحب زنديقا

توارى خلف بسمات وهمس

إنني أحياه لكني أرى أشباح وسمي

اجعليني أصرخ

يا بهجة ضاعت سدى

بين التردد والتأسي.

فالقصيدة وردت على منوال شعر التفعيلة، ففيها وحدة الوزن مع الالتزام بالقافية الموحدة، وقد وردت على بحر الرمل، وتعبر القصيدة عن اليأس والحرمان، ولذلك يبدو أن الشاعر لازمته حالة من التشاؤم، مثلما كان حال الشاعر عبد الرحمن شكري، وهو من رواد مدرسة الديوان.

المهم أن ملامح التجديد جلية من حيث اختيار الشكل الفني، وتوظيف الرمز الإيحائي، والتعبير عن النفس البشرية، وما ينتابها من أفراح وأتراح.

ومن الشعراء التشاديين المجددين الشاعر عبد الواحد حسن السنوسي، فله عديد من القصائد ذات الصبغة التجديدية المعبرة تعبيراً واضحاً عن فلسفته في الحياة، كقصيدته التي يعالج فيها ظاهرة اجتماعية في المجتمع، وهي الجلوس في الطرقات :

على الكنبة   وما أدراك ما الكنبة

وقصيدة أخرى مطلعها:

صباح الخير يا كبرى   صباح الخير يا سمرا

د. شعراء جمعوا بين التقليد والتجديد:

في هذه السطور الموجزة أود أن أؤكد على حقيقة مهمة، وهي أن أكثر الشعراء التشاديين جمعوا بين التقليد المحكم المبني على المحافظة، والملتزم بالأصالة والعراقة، وبين التجديد في القصيدة شكلا ومضمونا.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، وضعتُ الشاعر حسب الله مهدي فضلة ضمن الشعراء المقلدين لأن جلَّ شعره يسير في هذا الاتجاه، على الرغم من وجود قصائد له نزعت نحو التجديد، ففي قصيدته " نقيق الضفادع " وهي من باب الشعر المرسل، والقارئ للقصيدة لأول مرة قد يحكم بأن الشاعر يتحاور مع الطبيعة المحيطة به، ويشخصها ويخلع عليها من صفات الأحياء، ولكن مع القراءة المتأملة يستشف بُعْداً

آخر، وهو المذهب الرمزي الذي وظّفه الشاعر وكأنه يرمز إلى الأجنبي المستعمر بالضفادع التي يزعج صوتها ويقيل، وأصداء صوت الأجنبي وزعيقه يقلق أبناء الوطن، ويصيبهم بالصمم والمرض، يقول الشاعر:

إيه يا ضفدع ردد ما تشاء ... إن صوت الحق يعلو في السماء
إننا في الله لا نخشى اللقاء ... لا نبالي بالطغاة الأشقياء
إيه يا ضفدع صرح بالمراد ... إننا للكفر لن نلقي القياد
نهجنا الحق وتحطيم الفساد ... ربنا الله وداعينا الجهاد
إيه يا ضفدع ابحث عن سلاح ... في صراع المجد لا يجدي الصياح

وفي قصيدته " الحقيقة الخالدة" نلمس لديه روح التشاؤم، والبحث عن الحقيقة التائهة بين التيارات الفكرية المعاصرة، والديانات والملل المعوجة، ثم يكتشف الحقيقة في كتاب الله، وهذه القصيدة تتفق من حيث الموضوع مع قصيدة للشاعر عبد الرحمن شكري (ثورة النفس)، ويبدو أن الشاعر تأثر تأثُرا كبيرا بمدرسة الديوان في مصر، ومدرسة المهجر في الأمريكتين، وقد نادت المدرستان بالتجديد، والتعبير عن الذات الإنسانية، والإطلاع على الآداب والمذاهب الغربية، يقول حسب الله :

رباه داومت الأفكار ما فتئت ... تدور بي بين إضلال وإيمان
هذا كتابك في درجي وقد عمشت ... عن نوره عيني العميا بألوان
كم قلت هذا شعاع سوف يأخذني ... إلى فضاء الهدى من جب أحزاني
وكم هتفت نسيم هب يدفعني ... بقاربي نحو ميناء وشطآن
ثم استحال أعاصير تقاذفني ... من ذا لهذا لأهوى نحو قيعان

ثم يشير الشاعر إلى بحثه عن الحقيقة في الكون، ليستريح من عناء الفكر وتشتته :

هناك عدت للكون واستكنت به ... حيران أعزف لحن اليائس الراجي
أأستكين لذوي الأوهام تغرقني ... في بحرها بين إعصار وأمواج
أو أبتغي أم أرتقي شهبا ... أو أستعين على المسعى بمعراج

ونلمس الغربة الزمانية والمكانية تسري بين أبيات هذه القصيدة، ونزعة التشاؤم والحيرة بمفهومهما الواسع، وحيرة المسلم في هذا العصر، وأؤكد على أن مدرسة الديوان بما فيها من تجديد في الرؤية والشكل أثرت عند الشاعر، ونتذكر مطلع قصيدة العقاد "ثورة النفس":

حيران حيران لاصوب الغمام ... ولاعذب المدام ولا النداء ترويني

وبعد أن كان الشاعر المقلد يتغنى بأمجاد قبيلته، لمست أن الشعراء المحافظين، كالشاعر محمد عمر الفال، سار يتغنى بالقارة الإفريقية كلها، ويحث أهلها على الحرية، والنهوض نحو العلا، فيقول من "نشيد إفريقيا" :

نحن الشباب قوة ... فتاكة ضد العدى
إذا اتحدنا كلنا ... صارت قوانا كالقذى
في أعين المستعمري ... ن الحاقدين سرمدا
نحن الشباب قوة ... فتاكة ضد العدى
هيا لنحمي القارة الـ ... سمراء رمزا للفدى
هيا لنحمي قارة ... أضحت تسير القهقرى
فالغرب لا يريدنا ... أن نستغل أرضنا
لذا يؤج ناره ... من ها هنا وها هنا

وإذا كان المدح في القدم أكثر هدفه جلب المال من الممدوح، والتقرب نحو بلاط الملوك والأمراء، فإنني أجد الشاعر الفال لم يمدح رغبة أو رهبة، وإنما عبرت قصائد المدح عنده عن معان إسلامية، وقيم أخلاقية لمسها في شخص الممدوح، وهذا بلا شك يدل على أن الشاعر، وإن كان من المقلدين المحافظين، جدد في موضوعاته الشعرية بالقدر الذي يتفق مع شخصيته الأدبية الإسلامية، ولننظر، على سبيل المثال، إلى قصيدته "السهم المضاف" التي مدح فيها أستاذاً للأدب والنقد في تشاد، العالم الدكتور عبد الله حمدنا الله:

أعبد الله جئت فكنت سهما ... يضاف إلى سهام العلم طارا
حمدنا الله شأنك أن تبالي ... بشيء كان سقطا أو خيارا
تدرس أم تنقب في حمانا ... لتكشف عامل الشبه المعارا
فبين الشار قلت وأنت راض ... وبين النيل شبه قد تمارى

ثم يعلي شأن الممدوح إلى مرتبة سامية قريبة من علماء الحديث، فيقول :

حـمـدنا الله إنك كنت فـينا كمـا كـان الأوائل في بخـارى

فتحت عقولنا وكشفت كنزاً طواه الدهر حـيّـاً لن يوارى

ويعد الشاعر عبد القادر أبه من ذوي التيار المجدد، ومع ذلك استطاع أن يثبت مقدرته الفنية في المحافظة على بناء القصيدة العربية، كما يتضح ذلك في قصيدته الغزلية " الملك الرفيع" ومطلعها :

تطل لنا كـأنسـام الربيع فأفرح رغم نار في ضلوعي

لهـا ثغر كـزهرة أقـحـوان رحيق الزهر في برد الربيع

لهـا عـينان نائرتان دومـا تخالهمـا لهيبا من شموع

وقـامـتـهـا كـبـان من بلادي وبان تشاد من أزكى الزروع

هي الدنيـا جمالاً ثم سـحراً هي الإعصار يسخر بالقلوع

هي الأرواح إن صمتت صفعنا وإن جمت فنسبح في الدموع

فالبناء تقليدي، والشاعر محافظ على الوزن والقافية، وأتت الأبيات على الوافر، وأتى بصورة معتمدة على البلاغة العربية، والطبيعة من حوله، لتعبر بكل وضوح عن تجربة الشاعر، وأنه استطاع المزاوجة بين نهج الأقدمين ورؤى المجددين من تشخيص للطبيعة، وخلع صفات الأحياء عليها؛ لتكتمل الصورة المشخصة والمعبرة عن تجربته الوجدانية بكل صدق ووضوح.

وغاية ما أصبو إليه ـ ونظراً لضيق الوقت ـ القول إن كثيراً من الشعراء التشاديين جمع بين تياري التجديد والتقليد في قصائدهم الشعرية، وفي هذا إشارة إلى مقدرة الشاعر التشادي على المزاوجة والملاءمة بين القديم المحافظ بكل ما يحمل من قيم وأصالة، وبين الجديد بكل ما يحمل من رؤى وأفكار ومذاهب، شريطة أن تتفق مع بيئة الشاعر الإسلامية، وأن تأخذ بيده وبيد المتلقي ـ من خلال خطاب القصيدة ـ نحو قيم الحق والخير والجمال.

المهم أننا في حاجة مهمة إلى دراسات وأبحاث أكاديمية مخلصة تفرد للشعر الإفريقي مساحة واسعة بين الآداب العالمية، وفي الوقت نفسه يبزغ الشعر

الإسلامي المحافظ " المقلد" والمجدد معا بشكل جلي مشرف بين التيارات الأدبية والفكرية المعاصرة.

وإنني آمل إتمام هذه الطموحات العلمية - بمشيئة الله - في القيام بإنجاز علمي موسوعي قائم على التنقيب والرصد والدراسة التحليلية النقدية التكاملية للشعر التشادي، هذا الشعر الذي جمع بين التقليد والتجديد، وبين الأصالة والمعاصرة، ليشهد في نهاية المطاف على أن الشعر الإفريقي، وخاصة المنبثق من الرؤية الإسلامية، جمع بين جمال الشكل وقيمة المضمون، في تشكيل فني رائع، يمكن خلاله الرقي إلى مصاف الآداب العالمية، لنقول للعالم أجمع كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (1) .

---

(1) سورة النحل، الآية : 125.

خاتمة المطاف

أولا: النتائج:

1. إن كل شعر يستمد روافده الموضوعية والفنية من معين الإسلام ليقف بكل قوة وجدارة تحت مظلة الشعر الإسلامي شكلا ومضمونا، بالإضافة إلى أن الشعر الإسلامي ظهر في القديم كاتجاه وغرض، ولم يعرف كمصطلح فني له قواعده وأسسه إلا في العصر الحديث، وذلك عند المبدعين النقاد.

2. الشعر الإسلامي قام بدور عظيم في القديم -وما زال- في نشر الدعوة الإسلامية، وغرس القيم الأخلاقية، ومعالجة العلل والأمراض التي تنهش في جسد الأمة الإسلامية، وما أعظمها من رسالة تشرف بها على مرِّ العصور والأزمنة.

3. الشعر الإسلامي التشادي صدر عن تصور كامل لرؤية الإسلام للكون والحياة والإنسان، وقد قدمت النصوص الدالة على ذلك، وهذا مما يثلج الصدور، ويعطي الأمل لمستقبل عظيم للحياة الأدبية في تشاد.

4. أقرر حقيقة محايدة، وهي أن التقليد والتجديد سمتان من سمات الآداب الحية، وبرز التياران في الشعر التشادي، واستطعت أن أرد ذلك إلى عدة عوامل ذكرتها في ثنايا البحث، مما يدل على شموخ هذا الشعر وجماله الذي ما زال في حاجة كبيرة إلى جهود المخلصين من الدارسين والنقاد لكشف أسراره، والتنقيب عن ذخائره المدفونة.

5. وقفت وقفات متأنية أمام مصطلح التقليد، وقلت إنه مرفوض إذا كان تقليدا أعمى، ونقبله ونصفق له إذا كان تقليدا محكما، ينم عن شخصية

الشاعر المسلم، بصفة خاصة، وشخصية الأمة بوجه عام، وهذا وذاك أتبعته بالدرس التطبيقي من خلال النصوص والآثار الشعرية الدالة عليه.

6. تعاملت مع مصطلح التجديد من خلال رؤية علمية محايدة، ومن منظور إسلامي التزمت به في مجال الدراسات الأدبية، ولاحظت أن الشعراء التشاديين المجددين لم يفقدوا هويتهم الإسلامية، ولم يجدوا رغبة في التجديد فحسب، ولكنهم جددوا ليعبروا عن ذاتيتهم وشخصيتهم الإسلامية، وليطوروا كذلك من الموروث بما يتلاءم مع مستجدات العصر، وبما يتفق أيضا مع عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم الإسلامية، فلا نفور ولا شذوذ بين التقليد والتجديد ما دام الهدف نبيلا، والرؤية واعية لا تفقد ذاتيتها وهويتها، وأثبتّ بالنصوص الشعرية أن الشاعر التشادي تارة يسير في تيار التقليد، وتارة يسير نحو اتجاه التجديد، وتارة يجمع بينهما، مما يدل على براعته وموهبته الفنية.

ثانيا: التوصيات:

1. أتوجه إلى الإخوة الدارسين المسلمين، والباحثين الجادين، والنقاد المخلصين -بأعلى صوت ، ومن خلال هذا البحث- أن اتَّحِدُوا فيما بينكم لتأصيل الأدب التشادي، وجمع شتاته، وما تبعثر منه، وحفظه في مرجع علمي يضاف إلى صرح الآداب العالمية.

2. أرجو من المسئولين عن التعليم في جمهورية تشاد إصدارَ قرار حكيم بتدريس مادة الأدب التشادي بوجه عام، والإسلامي بوجه خاص، فإن المحافظة على اللغة العربية وآدابها هو بعينه المحافظة على كتاب الله، وينتج عن ذلك إفراز جيل من أبناء المسلمين يكونون قادرين على التعامل مع متغيرات العصر ومستجداته بكل ثقة وجدارة.

3. آمل من الأساتذة المنظمين للمؤتمرات العلمية العالمية الأخذ بعين الاعتبار ضرورة العناية الكاملة بالبيئات الأدبية في الأقاليم الإسلامية، وخاصة البيئة التشادية التي ما زالت في حاجة إلى التوجيه الرشيد، والزاد الثقافي، ودفع المبدعين المسلمين، وتنشيط هممهم، وتحفيز ملكتهم الإبداعية نحو قيم الحق والخير والجمال.

4. أتطلع - بشغف ويحدوني الأمل - في المستقبل القريب إلى عقد مؤتمر للشعر الإسلامي يتناول قضاياه واتجاهاته، ويكون مقره كلية الآداب، بجامعة انجمينا، بجمهورية تشاد، على غرار مؤتمر اللغة العربية في تشاد الواقع والمستقبل، والذي عقد عام 2000م، وكان هذا المؤتمر موفقا بكل المقاييس، وقد نظمته جامعة الملك فيصل بجمهورية تشاد.

وأخيرا أرجو أن يوضع ذلك كله بعين الاعتبار، وأن يحظى بالاهتمام، لأجل النهوض بلغتنا وآدابنا، وفوق هذا وذاك، نعطي صورة مشرقة سمحة نيرة عن ديننا الخالد (وأن هذه صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (153/ الأنعام)، فإذا اتبعنا ذلك الصراط، وأخذنا الآخرين نحوه بالحكمة والموعظة الحسنة، أعتقد أننا حينئذ نكون قد أدينا الأمانة، ونهضنا بالأمة نحو طريق التقدم والعزة والشموخ.

ثبت المصادر والمراجع والدواوين الشعرية

أولا: المصادر: القرآن الكريم

1. أخطاء المنهج الغربي الوافد، أنور الجندي، سلسلة الموسوعة الإسلامية العربية.
2. الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د. علي صبح، ج 1، 2، 3، ط 1، الجريسي، القاهرة.
3. المدائح النبوية، زكي مبارك، ط 1، دار الثقافة.
4. في الأدب الإسلامي المعاصر، محمد حسن بريغش، ط 2، الأردن، 1985م.
5. منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ط دار القلم، بيروت.
6. نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، د. عبد الرحمن رأفت باشا، ط 1.

ثانيا: المراجع:

1. الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، العقاد، ط 7، دار المعارف.
2. البداية والنهاية، ابن كثير، ط بيروت.
3. التاريخ الأدبي للعصرين العثماني والحديث، د. علي محمد حسن، ط الأزهر.
4. تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال، د. عبد الرحمن عمر الماحي، ط 1، الهيئة المصرية للكتاب.
5. جريدة العالم الإسلامي السعودية، يناير 2001م، مقال الدكتور علي صبح.
6. السمو الروحي في الأدب الصوفي، الحلوان، ط 1، المكتبة الأزهرية.
7. العمدة، ابن رشيق، ج 2، ط 2، المعارف.

8. الشعر العربي المعاصر، د. الطاهر أحمد مكي، ط مصر، 1980م.

9. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ط الفتوح الأدبية.

10. النقد العربي الحديث ومذاهبه، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ط 1، مصر، 1975م.

11. سيرة ابن هشام، ج 1، تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد، ط دار العلم.

12. طبقات فحول الشعراء، ابن سلام، تحقيق محمود شاكر، ط دار المعارف، مصر.

13. في الأدب واللغة، د. أحمد هيكل، ط 2، الهيئة المصرية للكتاب.

14. قصة الأدب المعاصر في مصر الحديثة، د. محمد عبد المنعم خفاجي.

ثالثا: دواوين الشعر:

1. ديوان حسان بن ثابت، ط دار صادر، بيروت.

2. ديوان الشيخ الرماسي، مخطوط.

3. ديوان الشيخ عبد الحق السنوسي، مخطوط.

4. ديوان الشيخ محمد عليش عووضة، مخطوط.

5. ديوان الفرزدق، ط 1، بيروت.

6. ديوان الملامح، عباس محمد عبد الواحد، ط 1، بغداد.

7. ديوان حسب الله مهدي فضلة، مخطوط.

8. ديوان عبد القادر محمد أبه، مخطوط.

9. ديوان قيثارة التوحيد، عبد الله شمس الدين، تحقيق عبد العليم مهدي.

10. ديوان محمد عمر الفال، مطبوع بالآلة الكاتبة.

11. قصيدة كشف المطمورة عن أبيات مغمورة، للشاعر عيسى عبد الله، مطبوع بالآلة الكاتبة.

الشعر العربي في إفريقيا

(السنغال نموذجاً)

ملامح عامة

ذ. الخليل النحوي(*)

طريق العربية إلى إفريقيا:

ارتبطت الجزيرة العربية وإفريقيا، منذ القدم، بروابط الجوار الجغرافي، وتبادل المنافع الاقتصادية، وكانت حركة الناس جيئة وذهابا تغذي التواصل الذي لا يمكن إلا أن يترك أثره في اللغة التي بها يتخاطب هؤلاء وأولئك.

ونحن واجدون أثراً لهذا التواصل في نقاط التقاء عديدة بين اللغة العربية واللغة الحبشية (الأمهرية)، حتى إن ابن عباس، وفريقا من العلماء يرون أن القرآن الكريم يتضمّن كلماتٍ حبشيّةً.

وقد توثقت هذه الصلات بظهور الإسلام وانتشار دعوته، حيث كانت إفريقيا دارَ الهجرة الأولى لصحابة النبي (، الذين شدُّوا رحالهم مرتين فارِّين بدينهم إلى الحبشة، حيث وجدوا الرعاية في كنف ملكها النجاشي أصحمة بن صخر، "ملك لا يظلم أحد عنده"(1).

ثم امتدّت الفتوح في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ففُتِحت مصر سنة 20 هـ فكانت أوّلَ قاعدة للإسلام ولغةِ القرآن بإفريقيا، وامتدّت الفتوح في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى إفريقية (تونس وما حولها من الديار الليبية والجزائرية اليوم) سنة 27 هـ.

(*) ذ. الخليل النحوي: باحث من موريتانيا.

(1) سيرة ابن إسحاق، ص 213.

ولئن كان الفاتحون قد ولّوا وجوهَهم شطرَ أوربًا، فعبروا البحر إلى شبه الجزيرة الإيبيريّة (عام 98 هـ) ووطّدوا فيها سلطانَهم، فإنّ الإسلام لم يفتأْ ينتشر شيئا فشيئا، عبر مناطق إفريقيا المجاورة.

ويروي المؤرِّخون أنّ القائد عقبة بن نافع الفهري واصَل فتوحاته في بلاد المغرب حتّى اجتازها، وبلغ بلادَ السودان...

وممّا يُؤَيِّدُ ذلك ما يرويه بعضهم من أنّ عقبةَ قد وصل مدينةَ ولاته (وكانت تُسمَّى آنذاك بيرو أو سير) من بلاد شنقيط، وخلّف فيه ابنَه العاقب[1] وما يرويه بعضهم من أنّ بلاد غانةَ كان يعيش فيها خلال القرون الأولى قومٌ يُسمّون الهنيهين، هم عربٌ من ذراري الجيش الذي أنفذه الأمويّون إلى بلاد السودان في صدر الإسلام[2].

فهل يكون هؤلاء من عقب الجيش الذي قاده عقبة في أواسط القرن الهجري الأول؟ أم تراهم يكونون من عقب الجيش الذي قاده حفيده حبيب بن أبي عبيدة ، في العقد الثاني من القرن الثاني للهجرة؟ أم عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة في القرن الثالث في العقد الثالث من القرن ذاته؟

أيًّا ما يكُن الأمر، فإنّ المؤرِّخين يتحدّثون أيضا عن تلك الحملة التي سيّرها عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية، فاتّجهت إلى بلاد السودان في حدود 114-116 هـ، وحفرت في طريقها الآبار، التي يسّرت السبيل في القرون اللاحقة لتواصلٍ مُكثّف بين شمال القارّة وبين شرقها وغربها.

فقد ازدهرت تجارة القوافل بين البلاد الإفريقية عبر محاور عدّة منها :

- طريق قلم - ولاته - السوس - مراكش.

- طريق تامدولت - أوداغست.

- طريق قلم - تيشيت - ولاته - تمْبكتو - توات - فزان - الإسكندرية.

---

(1) البكري، المسالك والممالك، 23، ج 2، ص877.

(2) الشيخ سيدي محمد الكنتي، الغلاوية (مخطوط).

- طريق سجلماسة - ولاتة - تُمْبكتو، وجنة، وغاو.

- طريق وادي درعة - آزوكي - نهر السنغال.

- طريق تربط بين غانة ومصر [1]

وقد تحدَّث المؤرِّخون عن هذه الطرق، وعيَّنوا عددَ المراحل الفاصلة بين العديد من الحواضر الإفريقية.

وكانت هذه القوافل تنقل من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وفي الاتِّجاهين المعاكسين سلَعًا ماديَّةً كالذهب والمنسوجات والأدوات النُّحاسية، والحُليّ، وأدوات الزينة والعطور، والقمح والذرة، والخيل وسرُجها، ولكنها كانت تنقل، في الوقت ذاته، البشر والقيم التي يحملونها، والثقافة التي يستنبطون.. وكانت هذه الثقافة (وقوامها اللغة العربية، والشرع الذي نزل بها) تنساب بِيسرٍ - بدون قسر ولا إكراه - في أرجاء القارَّة.

ويميل جلُّ المؤرِّخين - والأفارقة منهم بالذات - إلى أنَّ الإسلام انتشر في بلاد إفريقيا السوداء انتشاراً سِلْميًا، حيث وجد الأفارقة فيه دينَ الفطرة القريبَ إلى نفوسهم فاعتنقوه طواعيةً، دون أن يُحملَوا عليه بالسيف.

ورغم أنَّ البكري قد تحدَّث عن "تين يروتان" صاحب أوداغست في عشر الخمسين وثلاثمائة للهجرة، وقال إنه "قد دان له أزيدَ من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤَدُّون إليه الجزية"[2]، فإنَّنا نجده في الحديث عن غانة ينقل صورةً سمحةً من صور التعايُش السلمي بين المسلمين وغيرهم في ظلِّ دولة واحدة.

فغانة - كما يصفها - "مدينتان سهليَّتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة، فيها اثنا عشر مسجداً، أحدهما يجمعون فيه، ولها الأئمَّة والمؤذِّنون والراتبون، وفيها فقهاءُ وحملةُ علم (...) ومدينة الملك على ستة أميال من هذه (...) وفي مدينة الملك مسجدٌ يُصلِّي فيه مَن يفِد من المسلمين (...) وتراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيتِ ماله، وأكثرُ وزرائه"[3].

---

(1) الخليل النحوي : بلاد شنقيط، ص 95، غزوا إلى : أحمد بن محمد، مدخل لدراسة العمود الغربي للتجارة الصحراوية (رسالة جامعية مرقونة)، ص 16.

(2) البكري - م س - 850/2.

(3) م ن - 871/2.

وواضحٌ أنَّ الإسلام كان في تلك الديار وفي تلك الحقبة يؤدّي وظيفةً ثقافيةً اجتماعيةً يُجسِّدها بوضوح اختصاصُ المسلمين بالترجمة في بلاط ملك غانة.

ولم تفتأ هذه الوظيفة تتعزَّزُ مع انتشار الدين الحنيف، انتشاراً يَمُدُّه قيامُ دولٍ وممالكَ إفريقيةٍ مسلمة، لم يألُ حكّامها وعلماؤها جهداً في نشر الثقافة العربية الإسلامية.

وحسبنا أن نشير إلى دولة "التكرور"، مجاورةِ دولة المرابطين ومُعاصِرتِها، التي شدَّت عضُدَها في أواسط القرن الهجري الخامس، وكذلك مملكة غانة في أواخر عهدها، ومملكة مالي التي حجَّ بعضُ ملوكها، وأقاموا صِلاتٍ وثيقةً مع البلاد العربية، وكذلك دولة الصنغهاي، ودولة آل "فوديو"، ودولة ماسنا في مالي وغيرها من الدول ذات الشأن الثقافي.

وإلى العوامل السابقة ينضاف تعرُّبُ مجتمعاتِ شمال إفريقيا، فقد أصبحت إفريقيا -بفضل الإسلام- موطِنَ شعوبٍ عربية كثيرة: عاربةٍ ومستعرِبَة. وهي اليوم وطنُ ثلاثةِ أرباع العرب تقريبا، وهؤلاء يشغلون مساحةً تربو على 10.000.000 كم^2 في الأرض الإفريقية مقابل 3.500.000كم^2 فقط في آسيا... وبمقياس آخر، فإن ثلث سكان القارَّة الإفريقية اليوم عربٌ.

وقد هيّأ إفريقيا للتَّعرُّب الثقافي اختلاطُ دماء العرب والأفارقة بالمصاهرة في محيطات واسعة، وتشبث قبائلَ إفريقية كثيرةٍ بأنساب عربية، كما هو الشأن عند مجموعات من قبائل تشاد، ومن التكارير وغيرهم في غرب إفريقيا.

وهكذا تضافرت عوامل عديدة مكَّنت للإسلام وثقافته في إفريقيا، ولم يكن الفتح العربي عاملا أساسياً بين هذه العوامل، بل كان هناك أوَّلا احتكاكُ التجار المسلمين بسكَّان إفريقيا، وكانت هناك جهود الشيوخ والعلماء الدعاة القادمين من البلاد العربية، وهي جهودٌ تنامت، خاصة، على أيدي المتصوِّفة.

وكان هناك -لعلَّه العامل الأهمُّ- ذلك الإشعاعُ الذاتي المنطلق من بلاد السودان، والمُتَّجهُ إليها، وهو الإشعاع الذي رعته الممالك والدول الإسلامية، وكبارُ مشايخ الطرق الصوفية في المنطقة[1] ويسَّرَ ذلك كلَّه التزاوُجَ بين العرب والأفارقة، الذين أصبحوا في عدد من البلدان ذرِّيَّةً بعضها من بعض.

(1) أنظر مثلا: عبد القادر سيلا، المسلمون في السنغال. Marty (bul) Etudes sur l'islam au Sénégal

على أن دخول الإسلام في بلدان السودان الإفريقية منذ القرن الثاني الهجري (أو منتصف القرن الأول) لم تواكبه حركة تَعَرُّبٍ ثقافيٍّ فورية، فقد كان لا بد من قرون طويلة ليزداد الإسلام انتشاراً في القارة، ولتختمر ثقافته بوجدان أبنائها حتى يستوعبوا معارفه فهماً وهضماً، ويساهموا في إنتاجها تعليماً و تأليفاً، نظماً وشعراً.

فقد انفرد العرب قرونا طوالا بكتابة تاريخ إفريقيا، ووصف جغرافيتها البشرية والطبيعية، قبل أن يتمكّن الأفارقة أنفسهم من الإسهام في كتابة تاريخهم، وتطعيم الثقافة العربية الإسلامية بمصنَّفاتهم.

وهكذا ظلّت العربية تنتشر رويداً رويداً في إفريقيا، فلم تكن لغةَ الدين فقط - وحسبها رفعةً أن تكونَ كذلك - بل كانت أيضا لغةَ الإدارة والتجارة قروناً طويلةً، فيها كانت تُبرَم العقود، وتُكتَب المعاهدات، وتُحرَّر المراسلات، حتى إنَّ الدول الغربية التي بسطت سيطرتها على القارّة في القرون الأخيرة، قد تعاملت مع هذا الواقع، وتقبّلته حينا من الدهر طويلاً.

بل إن العربية قد أصبحت - كما يقول توماس أرنولد - "لغةَ التخاطب بين قبائل نصف القارّة الإفريقية" وتركت لغة القرآن بصماتها واضحةً في اللغات الإفريقية الإسلامية الكبرى، كالسواحلية، والهوسا، والفُلاّنية، واليوربية، والماندِنْكية، والولفية، بل امتدّ تأثيرها إلى لغات شعوب إفريقية لم يتغلغل الإسلام فيها كاللغة المالغاشية، ووصلت نسبة الاقتراض من مفردات اللغة العربية نحو 50% من معجم بعض اللغات الإفريقية (السواحلية مثلا) وبلغ عدد اللغات الإفريقية التي كُتبت بالحرف العربي نحو 30 لغة[1].

وفي ذلك يقول المفكر والسياسي السنغالي مامادو ديا " إن تعريب اللغات الإفريقية، وبعيداً من أن يكون ابتلاعا لها، قد خلّصها من الشفوية، وحوّلها إلى لغات مكتوبة، وقد دعم التعريب شخصيةَ هذه اللغات، ومكّنها من أن تنمو كما يشهد بذلك الأدب الإسلامي الناطق باللغات الإفريقية"[2].

---

(1) أنظر الخليل النحوي : **اللغة العربية في إفريقيا** - مجلة اللسان العربي - المجلد 36- 1413 هـ / 1992. وأنظر لمزيد من المعلومات : يوسف الخليفة بابكر في **العربية في اللغات الإفريقية** ، ص 11.

(2) أنظر الخليل النحوي - إفريقيا المسلمة، ص 46.

وفيه يقول "إيبادير تيام"، مثقّفٌ كبير ووزير سنغالي سابق: "بفضل اللغة العربية كان لنا (الأفارقة) في العصور الحديثة شعراء منا وفلاسفة ومفكّرون وموسيقيُون وملَحِّنون، ووعَّاظٌ ومربُّون ومُصلحون ودبلوماسيون، واقتصاديون ومعماريون ومهندسون، ولغويُّون وحقوقيُون وكيميائيُون وفيزيائيُّون وعلماء فلك، وباختصار، كان لنا بعض من أوائل باحثينا، وأوائل شخصيّاتنا ذات القيمة الإنسانية الكبيرة، ممَّن لا يغارون من دافنشي وأمثاله في شيء"(1).

بذلك كان "الاستعراب" في بعض اللغات الإفريقية (الهوسا) رديفا للحضارة، وبه كانت اللغة العربية - كما وصفها بعض الساسة المتأخِّرين - عاملَ وحدةٍ وطنية في القارّة (2).

ومهما يكن من أمر، فقد ضربت اللغة العربية أطنابها في بلاد السودان بإفريقية، خلال القرون الأخيرة، خاصة مع ظهور كبار العلماء والدعاة والمؤلّفين، أمثال آل فوديو (الشيخ عثمان ت 1817م، والشيخ عبد الله ت 1745 هـ، ومحمد بلو ت 1837م، ونانا أسماء بنت عثمان ت 1865) بنيجيريا، والشيخ عمر سعيد تال (ت 1780 هـ) ببلاد فوتا، فقد ترك هؤلاء العلماء المجاهدون كنوزاً من المصنَّفات والأعمال الأدبية الجليلة، المنظومة والمنثورة.

ومن قبل هؤلاء كان السعدي ومحمود كاتي قد قدّما، من خلال كتابيهما "تاريخ السودان" و"الفتّاش"، مساهمةَ إفريقيا البكر في تاريخ القارّة ومجتمعاتها (هذا طبعاً إذا استثنينا المبادراتِ العربيةَ المبكِّرةَ لتدوين تاريخ القارّة، ومنها مبادرات عربية وإفريقية).

ونحن واجدون في السنغال خاصة، نموذجاً متميِّزاً لتعرُّبٍ ثقافي آتى أُكلَه في حركةٍ شعرية نشطة.

مكانة الثقافة العربية في السنغال:

لامست الثقافة العربية بلاد السنغال منذ ألف سنة أو تزيد، فقد كان التواصل وثيقا منذ قرون طويلة بين ضفّتي نهر السنغال، الذي يحمل اسمَ واحدةٍ من أكبر

(1) العربية في اللغات الإفريقية، ص 238.

(2) كلمة وردت على لسان الرئيس السنغالي السابق "ليوبولد سدار سنغور"، قالها أيام كان نائبا في الخمسينات، مدافعا عن مطالبة مثقفي إفريقيا الغربية للسلطات الاستعمارية الفرنسية بمزيد من العناية باللغة العربية. ظ أنظر: الخليل النحوي، بلاد شنقيط، ص 369.

القبائل العربية ـ البربرية (على خلافٍ محدود الأهمية ثقافياً، محسومٍ بالقول بعروبة البربر سُلالياً، محسومٍ أكثرَ بعروبة بربر الصحراء ثقافياً) ألا وهي قبيلة صنهاجة التي حرّف اسمها إلى زناتة، ثم سنغان ثم سنغال لتكون علَماً على النهر الفاصل بين صحراء الملثّمين وبلاد السودان، وعلى بلاد السودان تلك حسب رأي بعض المؤرّخين (1).

وقد رأينا من قبل أن دولة التكرور كانت جارة وحليفة معاصرة لدولة المرابطين، ويُرَجّح أن تكون تلك الدولة قد قامت على ضفاف نهر السنغال. ومن المؤرّخين من يذهب إلى أن رباط عبد الله بن ياسين الذي اعتزل فيه مع أنصاره في بدء أمره، كان في منطقة " اندر " حيث يصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي. وتنتسب " اندر " (المُسمّاة في عهد الاستعمار: سان لويس) حالياً إلى الأراضي السنغالية..

ومهما يكُن من أمر، فقد تعزّز موقع الإسلام في السنغال بعد المرابطين بقرون، مع ظهور حركة الإمام ناصر الدين (ت 1085 هـ) الذي قاد من بوادي الجنوب الموريتانية جهاداً مُتنوّعَ الأساليب لإحياء دولة المرابطين، ونشر الإسلام، وفرض سلطانه في المنطقة، وقد عبأً ناصر الدين جماهير السكان في " والوجلف وكايور " (من بلاد السنغال) للثورة على ملوكهم الوثنيين، وتنصيب أمراء مسلمين بدلاً منهم.

وكان له ذلك، وغاظت حركته تلك الفرنسيين الذين كانوا يرقبون الأوضاع بامتعاض من مرصدهم التجاري في " سان لويس "، فشكوا مُرَّ الشكوى من الثورة التي أشعلها الإمام ناصر الدين في السنغال، ومن وقوفه بحزم في وجه تجارة الرقيق، محور التجارة الأطلسية آنذاك(2).

---

(1) أنظر إلى هذا القول ببعض التحفّظ، فما تزال كلمة (ستغان) معروفة في موريتانيا علماً على تلك البلاد، بينما تُطلق آزناكه (من زناتة ـ صنهاجه) على بعض قبائل البلاد.

- وقد ورد ذكر صنغانه في الكتابات القديمة، البكري مثلاً، وكلمة السنغال أقرب إليها، وربما كانت هناك علاقة في الاشتقاق وفي بعض الدلالة بين غانة وصنغانة وسنغان.

(2) عالج الدكتور أحمد (جمال) ولد الحسن حركة ناصر الدين في بحث غير منشور. أنظر أيضاً: النحوي: بلاد شنقيط، محمد بن باباه: آثار البدالي التاريخية.

ولئن سقط مشروع الإمام ناصر الدين بعد استشهاده، وغلب العرب المغافرة على الزوايا في حرب أهلية موريتانية، سعد بها المستكشفون وتجار المحيطات الغربيون[1] فقد أتيح لمنطقة فوتا (بمحاذاة نهر السنغال) أن تحقق جزءاً مما عجز عنه "الزوايا" الموريتانيون بإقامة "دولة الأئمة" (أو آلمامي) بقادتها الكبار أمثال "سليمان بال" و "الإمام عبد القادر كن"، فكان لهذه الدولة فضل يذكر فيشكَر في توطيد أركان الدين في البلاد.

ولقد حقّقت "الإمامة" في فوتا "إنجازات في ميادين شتّى، فقد حرّمت النخاسة في أراضيها (...) وشجّعت التعليم، واعتنت بمجالس العلم، وابتنت المساجد، وابتعثت طلبة العلم إلى موريتانيا المجاورة[2].

وفي دائرة جغرافية أوسع، وبقوّة أكبر، خاض الشيخ عمر الفوتي جهاداً مريراً لإقامة دولة مركزية تلُمُّ شتات المسلمين في غربي إفريقيا، وتواجه مطامعَ الاستعمار الفرنسي.

وقد سار على خطاه الشيخ "مبا جوخوبا" (1809 - 1867م) في جهاده لإخضاع الوثنيين والطغاة، والإمام "فودي كبا دومبويا" (1818 - 1901م) الذي اهتمّ بنشر الإسلام في قبائل "جولا" ومقاومة الفرنسيين.

وقد تألّقت الثقافة العربية الإسلامية في السنغال تألّقاً كبيراً منذ أواخر القرن الميلادي التاسع عشر، ولم يكن باستطاعة الإدارة الاستعمارية أن تتواصل مع المواطنين السنغاليين - المسلمين منهم وغير المسلمين على حد سواء - إلا عن طريق اللغة العربية، وهكذا كانت المراسلات بين مختلف الأطراف تُحرَّر باللغة العربية، بما في ذلك المراسلات بين الفرنسيين وبعض الأمراء الوثنيين في البلاد[3] وكانوا يتّخذون لذلك كتبة وتراجمةً من الموريتانيين أو المستعربَين السنغاليين.

---

(1) شربيه : حرب أهلية نشبت في البلاد بين فئات من الزوايا بقيادة ناصر الدين أويك (أبي بكر) بن أبهم (أبو محمد) وفئات من حسان. كان الزوايا يسعون فيها فقامت سلطة راشدة، وانتهت بهزيمتهم. درسها الأستاذ محمد المختار بن السعد في عمل جامعي جادّ.

(2) عبد القادر سيلا، مرجع سابق - ص 76.

(3) أنظر مثلاً : شارنو الحبيب كاه : الثقافة العربية الإسلامية في السنغال.

وكان للسنغال، بعد الحاج عمر الفوتي، عطاءٌ متميّزٌ وإشعاعٌ ممتدٌّ من خلال أعلامها الكبار من مشايخ الطرق الصوفية، ومن العلماء المؤلِّفين، أمثال الحاج " مالك سي" والشيخ " أحمد بمْبا" والشيخ " موسى كمرا" والحاج " أحمد دام" والحاج " عبد الله نياس" وابنه الحاج " محمد الخليفة"، لكن الإشعاع الثقافي المنطلق من السنغال امتدَّ بعيداً خارجَ حدودها مع شخصية فذَّة أخرى " شيخ الإسلام الحاج إبراهيم نياس"، فقد ترك - وترك أولئك الأعلام جميعا، وآخرون من أعيان البلد - تراثاً عربياً غنياً بالمنظوم والمنثور في مختلف المعارف الدينية واللغوية والتاريخية وغيرها، كما أرسوا تقاليد ثقافية تُعزِّز من حضور اللغة العربية في الحياة اليومية بالسنغال، من خلال الأذكار والمدائح والأدعية والمنظومات والأهازيج الدينية التي يُردِّدها الناس هناك في المساجد والمجالس، وفي مختلف المحافل والمناسبات.

وكان للمراكز الصوفية (طوبى، كَوْلَخْ، تيواون، كمْبرين، انجاسان، جنيجة ...الخ) في ذلك دور كبير [1].

وتستمد اللغة العربية مكانتها في السنغال أيضاً من انتشار التعليم العربي الإسلامي فيه، وقد تساءل الأستاذ عامر صمب متحدثًا عن ملكة التعبير باللغة العربية عند السنغاليين : " ما هو سرُّ النجاح اللغوي هذا ؟، وأجاب أنَّ سبب هذه المعجزة (هو) استيعابهم الثقافة العربية وعلوم الدين الإسلامي، فكُلُّ أدباء السنغال، مثل الحاج عمر، والسيدة رقية نياس الكولخية، لسان الحال الوحيد للنساء في عكاظ الأدب السنغالي، قد قرأ القرآن وحفظه صبيًا، ثم درس بوجه أرسخ علوم الدين كالتفسير والحديث والتوحيد والفقه والتصوف، ثم استوعب علوم الدنيا (كذا) كعلم اللغة والنحو والعروض والبلاغة في فنونها الثلاثة، أي البديع والمعاني والبيان... الخ" [2].

وفي المجال اللغوي والأدبي، نجد أن من السنغاليين مَن كان يدرس المعلَّقات، ومقصورة ابن دريد، ودالية اليوسي، والبوصيريات، والخزرجية في العروض.

---

(1) عامر صمب : **الشعر العربي السنغالي**، ج 1، ص 32.

(2) المرجع نفسه - 331/2.

ويقول الأستاذ عبد القادر سيلا إنه "بخصوص السنغال جاءت العروبة من موريتانيا، حيث كان المسلمون يرسلون أبناءهم لحفظ القرآن والتبحُّر في لغة الضاد"(1).

ويلاحظ الأستاذ عامر صمب أن الذين تخرَّجوا في موريتانيا وفي البلاد العربية (من السنغاليين) لهم نطق خال من كل عيب. وصارت سلامة نطقهم وصحته أشدَّ جودةً وأقوى وضوحاً، إذا طالت إقامتهم في البلاد" وكل ذلك - يقول الباحث السنغالي - يدل على أن للموريتانيين دوراً ذا بال فيما يتعلق بالتعريب في السنغال منذ عهد بعيد" (2).

وكان للاحتكاك بين السكان وانتشار التعليم العربي الإسلامي دوره الخاص في تطعيم اللغات السنغالية بمفردات عربية كثيرة.

وإذا وضعنا جانباً محاولات بعض الباحثين السنغاليين لإثبات وحدة الأصل بين اللغة العربية واللغات السنغالية (الولفية والسيرير خاصة) واللغة المصرية قديما(3) ، فإن باستطاعتنا على أي حال، أن نلاحظ حضوراً طيبا للمفردات العربية في المعجم الولفي، والمعجم البولاري، والولفية والبلارية هما اللغتان الكبريان في السنغال.

أما الولفية فيرى بعض السنغاليين أنها نشأت منذ قرون في عهد أمير قوي يدعى اندديان انجاي تقول هذه الرواية أنه ينحدر من سلالة أمير المرابطين أبي بكر بن عامر (دفين تكانت بموريتانيا) من زوجة له إفريقية وإن هذا الأمير سعى لتوحيد لهجات إفريقية كثيرة في لغة واحدة ذات جذور عربية أيضاً فكانت الولفية وكان نحو نصفها من مفردات ذات أصل عربي إلا أن تحريفاً كبيراً أدرك جلها(4).

---

(1) المسلمون في السنغال - م س، ص 145-149.

(2) الشعر العربي في السنغال م س، ص 31/1.

(3) موضوع محاولة مخطوطة لباحث سنغالي شاب (دمبا شك)، يتقفى خطى الشيخ أنتا جوب الذي كتب كثيرا في الأصول المصرية لشعوب السنغال، والأصل الزنجي للحضارة الفرعونية بمصر.

(4) وجهة نظر يتبناها أحمد خليفة نياس، ومما دوديا، أنظر : إفريقيا المسلمة، م.س، ص : 46.

ولئن تعين أخذ هذه الرواية بشيء من التحفظ لأسباب عديدة فإنه لا مناص من الوقوف عند دلالتها الأساسية ألا وهي إثبات علائق القربى التي تربط الولفية باللغة العربية.

وقد أورد الأستاذ كانجي قائمة من المفردات ذات المنبت العربي موضحاً أنها من أكثر المفردات شيوعاً في الولفية ومنها نجتزئ العينة التالية:

آجو(حاجة) آدينا(الدنيا) آدية (هدية) آلكو(مالك) آرف (حرف) السمان (السماء) اللوا (اللوح) آيب (عيب) بايمه (بهيمة) دابه (درجة)، فات (وفاة) فايده، جيب (جيب) كسار (خسارة) لرّ (ضرّ) مرتبا (مرتبة) نام (نعم) نود (نداء) رايه، سك (شك) صوبا (صبح) سترا (سترة) تفلي (تقل) خلم (قلم) خيمه، وخت (وقت)[1].

وقد نشر محمد مختار سيسي مقالة في " اللسان العربي" حول " تأثير اللغة العربية في إفريقيا" عرض فيها المفردات العربية في اللغة الولفية، فأحصى عدداً نورد منه (عيب)، فترا (فترة)، فتح (فتح) فن (فن) فاتاد (فات)، قاولو (قوال) قربوس، كجالك (كذلك)، كلمي (كلمة)، كاس لولو (لؤلؤ)، مدّ (مدّ)، مرجنو (مرجان) مصلحه، مرحبا، المالو (المال)، مسلا (مثلا)، نعم، نسمة (نعمة) نفقة، وقت، هيمه (همّة) هم (همّ)، هلكاد (هلك)[2].

وقد تجنّبنا في النماذج التي أوردناها من اللغتين الولفية والبلارية معجم المفردات الدينية، ذلك أن من الطبيعي أن يكون هذا المعجم عربياً خالصاً أو يكاد..

وعموماً فقد " أصبحت الثقافة الإسلامية العربية - على حدّ تعبير الباحث السنغالي عبد القادر محمد سيلا - جزءاً لا يتجزّأ للتكوين العقلي للإنسان السنغالي وثقافته، وسواء تعلّق الأمر (بما) قبل اتصاله بالغرب أو خلال فترة الاستعمار، أو بعدها"[3].

ويلخّص "المصطفى آن" مكانة اللغة العربية في السنغال قائلا:

" لو كان الأمر كما وجب أن يكون لصارت العربية لغتَنا الرسمية في السنغال"[4].

---

(1) العربية في اللغات الإفريقية ، م. س، ص : 58، (القسم الفرنسي).

(2) م. ن، ص : 42.

(3) المسلمون في السنغال، م.س، ص 146.

(4) عامر صمب، م. س، 230/1.

الشعر العربي في السنغال:

لقد رأينا أن القوم ما فتئوا يولون دراسة اللغة العربية وتدريسها عناية خاصة، وأن مراكزهم الروحية تُجَذِّرُ حضور اللغة العربية في بلادهم، وأن جسراً نشطاً يربط بينهم وبين جيرانهم من الموريتانيين، ينالون من خلاله الرفد والمدد، فلا ينضب لديهم معين الثقافة العربية الإسلامية، الذي يمتح منه الأدباء ويستقون.

لكن السنغال ـ على ذلك، ومنذ القرن الهجري الثالث عشر، والتاسع عشر الميلادي لم تعد تقتصر على الأخذ والاستمداد، بل نشأت فيها مراكز علمية وثقافية كبيرة، ضمنت للغة العربية ومعارفها إشعاعاً ذاتياً ينطلق من السنغال، وإليها، ويفيض عنها.

وكانت الحواضر الروحية الكبرى في السنغال محط رحال الأدباء والعلماء الشناقطة (الموريتانيين)، خصوصاً في المواسم الدينية، فكانت تلك المواسم تتحول تلقائيا إلى منابر أدبية تتعالى من فوقها أصوات الشعراء الموريتانيين، فكم من قصيدة عصماء أُلقيَتْ في حضرة هذا الشيخ أو ذاك من المشايخ السنغاليين الأجلاَّء، في طوبى دار الشيخ الخديم "أحمد بَمْبا أبكِّي"، أو في "تواون" دار الشيخ الحاج مالك سي، أو في "كولخ" دار الحاج عبد الله نياس، وابنه الخليفة الحاج محمد، أو في "مدينة"، دار الشيخ إبراهيم نياس بضاحية "كولخ".

وتمتاز مدينة الشيخ إبراهيم باحتضانها منذ نحو نصف قرن مهرجاناً شعرياً ينتظم كل عام في ذكرى المولد النبوي، يشارك فيه شعراء كثر من موريتانيا، وربما انضاف إليهم شعراء من السنغال ولبنان والمغرب.

لقد وجد السنغاليون في بيئتهم الثقافية تلك، ما يحرك سواكن الإبداع، ويثير كوامن الموهبة الشعرية، في قوم مطبوعين على الإيقاع ـ كما يقول أحدهم ـ مجبولين ـ على الحركات الموزونة (1).

وقد انتشر الأدب العربي، والشعر خاصة، في أطراف السنغال، إلى حد أن الأستاذ عامر صمب، اعتمد في كتابه عن الأدب العربي في السنغال تصنيفاً جغرافياً، فتحدّث عن مدارس :

---

(1) المرجع نفسه، 44/1.

- اينمان، بلد القاضي "مجخت كل"

- أندر، بلد الحاج ماجور سيسي وابن المقداد.

- أتييس، (وتُعرف عند الموريتانيين بـ: كيص) بلد ذي النون لي.

- سكون بلد الحاج أحمد دام.

- غنغيل بلد الشيخ موسى كمرا.

- كُلدا، بلد الشيخ محمد الأمين بن الزبير.

- كيدي، بلد الحاج عمر بن سعيد تال الفوتي.

- مرساسم، بلد الحاج بل بن فودي.

- دكار، بلد الحاج محمد محيي الدين كسمه.

- أنغجلن، بلد تيرنو يورو بال.

كما تحدث عن المدارس العربية في "كولخ" و "تيواون" و "طوبى"، وهي كبريات مراكز الاستقطاب الصوفي في السنغال.

وخلص من بحثه إلى أن الثقافة العربية الإسلامية "قد وجدت في الأرض السنغالية وطنا ثانيا في ميدان الأدب"[1].

بل إن عامر صمب يرقَى بعلاقة الأديب السنغالي بالأدب العربي إلى مستوى الجبلة قائلا " إن الزنوج، ولاسيما السنغاليين، مجبولون على كونهم أدباء حقيقيين بلغة الضاد.."[2] ويخُصُّ "مام بار أمبكّي"، فيقول " إنَّ براعة أدباء السنغال هي في القريض"[3].

ولئن كان الشعر سيدَ الآداب العربية، وديوانَ العرب، فلقد كان كذلك، ديوانَ المستعربين من إخوة العرب الذين حذقوا لغةَ القرآن، وخدموها خدمة الأبناء البررة.

---

(1) م.ن، 1/ 41.

(2) م.ن، 1/ 156.

(3) م.ن، 1/ 41.

وها قد مضى نحوٌ من قرنين والأرض السنغالية واحة خصبة من شعر وأدب وعلم رفيع.

وسيظل بإمكاننا أن نعتبر الحاج الفوتي، المولود سنة 1211هـ، 1798م رائدَ الحركة الشعرية العربية في السنغال، إلى أن نعثُر على شعراء ذوي شأن سبقوه، من أهل تلك البلاد.

ولنلقي ضوءاً على حركة الشعر العربي في السنغال، ينبغي أن نُلِمَّ - أولاً - بالروافد العربية التي غذَّت هذا الشعر، وننظر - ثانياً - في مكانته ورصيده المحفوظ، ونعرج - ثالثاً ورابعاً- على أساليبه وأغراضه.

أولا: مؤثرات عربية في الشعر السنغالي:

لقد أسلفنا القول في منزلة الثقافة العربية عموما في السنغال، وواضح أنه ما كان للشعر العربي أن ينمو إلا في كنف هذه الثقافة، وما كان له أن ينفكَّ عن تأثيرها..

وبعد ذلك يظل للشعر الشنقيطي (الموريتاني) أثره المتميِّز في الشعر السنغالي، ذلك أن "موريتانيا هي عكاظ إفريقيا"، على حدِّ قول أحد الباحثين السنغاليين[1].

وقد كان للجوار الجغرافي دوره في تمهيد سبل التواصل الحميم بين الموريتانيين والسنغاليين، فكانت رحلة السنغاليين لطلب العلم في موريتانيا ورحلة الموريتانيين للتدريس أو الكسب أو الدعوة أو حضور المواسم الدينية في السنغال، فرصةً لتحقيق المزيد من الاحتكاك والتلاقح بين الأوساط العلمية والأدبية في البلدين.. وجاءت المدائح والمساجلات الشعرية ترفد هذا التواصل وتُعزِّزه على مرِّ السنين.

ولا يتردد عبد القادر سيلا في القول إن الإنتاج الشعري السنغالي "تابع للعنصر الموريتاني، قلبا وقالبا"[2] فلا غرابة إذن أن نلمس رَحِماً أدبية بين شعر

(1) م.ن، 101/1.

(2) المسلمون في السنغال، م.س، ص147.

ابن المقداد في السنغال وشعر ابن أحمد يوره في موريتانيا، أو نجد مشابهه من شعر ابن رازكه واليدالي في شعر أحمد عيان سي، خاصة في مرقصاته، خفيفة الوزن، مثل قصيدته من بحر المجتث :

إلى متى يا غرامي　　تسبي عقول الكرام

ماحي دجى كل دجن　　مصباح كل ظلام

شيخ المشايخ فاضت　　به فيوض الأنام

وقصيدته اللامية المنسوجة على منوال ميمية الشيخ اليدالي :

ما لي غزالي لحظ الغزال　　أخو الدلال برح الخيال

رد السلاما لنا وقاما　　يبدي ابتساما مثل الهلال

من يدن منه لم يسل عنه　　إذ فيه كنه أسنى الخلال

أصحاب طه بهم يباهى　　لهم تناهى كل الكمال

ففي هذه القصيدة ما يذكّر بقصيدة اليدالي :

صلاة ربي مع السلام　　على حبيبي خير الأنام

والواقع أن الشعر الموريتاني نفسه تأثّر منذ نحو قرن من الزمن تأثُّراً ملموساً بالبيئة الثقافية في السنغال، فتزامن في البلدين ظهور شعر رقيق ملمع يوظّف اللهجة الحسانية (عامية الموريتانيين) واللغة الولفية (كبرى لغات السنغاليين) إلى جانب اللغة العربية في التعبير عن أدقّ الأحاسيس والمشاعر، في لبوس محبّب إلى الناس في كلا البلدين، وكان من رُوّاد هذا المنحى محمد بن أحمد يوره، والكبيد بن جب في موريتانيا، وابن المقداد، والقاضي مجخت كل في السنغال.

وكما أن الشعر الموريتاني - وإن تكُن له سمات مميّزة - متأثّرٌ بحركة الشعر العربي في محيطاته الواسعة، فإن الشعر العربي في السنغال يبقى أيضا سليل تلك البيئة الثقافية الرحبة التي غذته بنبع حياته، وأمدّته بأسباب نمائه.

يقول عامر صمب عن قالب الشعر السنغالي (ونضيف : وقلبه) يتأثر " تأثُّراً عميقاً بتراث المشرق والأندلس وموريتانيا " ويقول عن قصائد أحد الشعراء

السنغاليين: إنها "تُذكِّر بأشعار ابن الرقيات، أو أشعار جميل بثينة، أو أشعار مجنون ليلى، أو أشعار وضاح اليمين"(1).

وعموماً فإننا واجدون من أثر أولئك وهؤلاء أينما يمّمْنا، ونحن نقرأ آثار هذا الشاعر أو ذاك من شعراء السنغال....

وذلك ما يشير إليه، صراحة، أحمد عيان حيث يقول :

إن نسج القريض طوع جناني ... ولساني وكاغدي وبناني
وخفيف القريض عندي خفيف ... وطويل القريض طوع بناني
آخذ الشعر من طريق جرير ... وجميل وعروة وأباني
وسهيل ومعمر ويزيد ... وأبي طيب وشعر الأغاني

كذلك تحدث من قبل الشاعر الشنقيطي العم (المشهور بـ : لعميم) بن أحمد فال حيث قال :

أليس الشعر طوع يدي وقلبي ... وسهل الصوغ ويك على لساني
أصوغ البيت منه بلا عروض ... على أقوى وأقوم الاتزان

وإلى تلك المنابع أشار أيضاً الشاعر الشنقيطي سيدي محمد بن الشيخ سيديا، مستذكراً مسامراته مع أترابه :

ونحو الستة الشعراء ننحو ... ونحو مهلهل ومرقشين
وشعر الأعميين إذا أردنا ... وإن شئنا فشعر الأعشيين
ونذهب تارة لأبي نواس ... ونذهب تارة لابن الحسين

وهذا تيرنو حامد آن التلري ينحو نحو علقمة الفحل، حيث يقول مادحاً ثم واعظاً:

---

(1) عامر صمب، م.س، 329/2.

وإن يسألوني بالخديم فإنني   خبير بأوصاف الخديم طبيب
ولا تنس ذكر الموت والموت واقع   بعيد الشباب عصر حان مشيب

أما الحاج محمد انياس، فإنه ينحو نحو كعب بن زهير مُضمنًا أعجازَ لاميته المشهورة، في قصيدة منها:

بريم رامة قلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول
ترنو بفاتر جفن ليس يشبهه   إلا أغض غضيض الطرف مكحول
تريك قامة غصن البان مائسة   لا يشتكى قصر منها ولا طول
هي الشفاء لداء الحب لو صدقت   يشفي مضاجعها شم وتقبيل
تفتر عن برد عذب مجاجته   كأنه منهل بالراح معلول

أما الحاج منصور سي فيسلك، شيئًا ما، مسلكَ شاعر المعرّة حيث يقول :

تغافلت حتى قيل ليس له حجا   ولكنما دأب الكريم التغافل

وحين نقرأ للحاج عباس صال لاميَّتَه التي يقول فيها:

صاح اركب الحزم واصحب صادق الحال   ماضي العزيمة في الآتي وفي الحال
وكن مدى الدهر في سر وفي علن   بالله لله لا بالقيل والقال

نجده - وإن اختلف الرويّ - ينسج على منوال الشيخ إبراهيم الرياحي في سينيّته:

صاح اركب العزم لا تخلد إلى الياس   واصحب أخا الحزم ذا جد إلى فاس

ونحن واجدون في شعر الأذواق والأشواق لدى القوم ظلالا واضحة من أدب ابن الفارض والبوصيري وغيرهما.

وتطغى البيئة الثقافية على البيئة الطبيعية لدى الشاعر السنغالي، فنجده يحدو الأظعان (ولم يألفها في بيئته) ويشد الرحل، ويصف الناقة.

فهذا الشيخ الهادي توري، في قصيدة له طويلة، يقول :

ياراكـبـاً وجناء مـرقـالاً مـتى	أرخى الزمـام لـهـا سـواهـا تسـبق
يسـراتهـا مـثل الرمـاح وعـينهـا	مـثل الزجـاج ورأسـهـا كـالمطرق
تـخـتـال في رمل التـلاع وتوقـ	ـد النيـران في حـزن أمـام الأيـنق
أرخ الـزمـام لـهـا وأوّب دائمـا	وذر البطالة فـهـي شـر مـعـوق

ونجد خطاباً مماثلا في شعر الحاج مالك سي :

ألا أيهـا الحـادي النيـاق إليـهـم	سلامـا سليمـا شـامل الكل والجل
تقـول لـهم إنـي وإن كنت ذا نـوى	فـأمـرهـم أمـري وشـملهـم شـملي

أما الحاج محمد الأمين بن زبير فيقول :

دعـوت بناقـة هـوجـاء تهـوي	بهـا الأريـاح بـي لأزور زيـدا

والناقة أيضا هي أداة الشاعر ذي النون لي، للوصول إلى المحبوب الذي يتحدث عنه في شعر رقيق :

ولو كـان مـحـبـوبي يرق لعـاشق	لحن إلى حـالي وفـصـل خطابي
وفـي كل وقت أرتـجي منه قـربه	إذا صب في الكـاسـات خمـر عـتـابي
فطي مـسـافـات تليق بمـثلنـا	على ناقـة تطوي الفـلا كـعـقـاب

ولعل ذا النون كـان أصدقَ لهجةً حـيث اقـتصـر فـي حديثه عن الناقة على التمني:

فـيـا ليت لـي وجناء تخـرق بيـدهـا	كمـا يخـرق الثـوب المصـوف سوس

ولكنه كان في شعره ابن البيئة العربية بغوانيها ومفاتنها والأحاسيس التي تثيرها أطلالها وأطلاؤها في نفوس الشعراء العرب الأوُل .. أوليس هو القائل في مطلع إحدى قصائده :

مـغنى سـعـاد عـفـتـه هوج العـثيـر	وسـقـتـه واكـفـة الغـمـام المـمطر
أطلاؤهـا يـمـرحن في أطلالهـا	فكأنـهـا في الشعب شـعب العـرعـر
أوعـالـهـا تسـتن في أوعـارهـا	تـرعى خـزامـاهـا وغض الأزهـر

وعلى هذا النحو يندغم الشاعر السنغالي في البيئة الطبيعية للإنسان العربي مجسدًا ما للبيئة الثقافية من سلطان مكين على القلوب.

ثانيا: في المنزلة والرصيد:

يحتلُّ الشاعر - أيُّ شاعر - منزلة سامية في المجتمعات الإفريقية، وفي المجتمع السنغالي خاصة، وتتضاعف قيمة الشاعر العربي في ذلك المجتمع، بما قُيِّض له من الإفصاح بلغة عالية الشأن، تستمدُّ قدسيتَها من قدسيّة الوحي الذي نزل بها.

وقد كان الخلفاء وأصحاب البيوتات الكبيرة في السنغال نموذجا من أولئك الأمراء والخلفاء والشرفاء العرب الأُوَل، الذين يكرمون الشاعر، ويجلُّون الشعر، ويُجزِلون عليه العطاء.

وكان الشعراء السنغاليون يدركون أن الشعر مِرقاةٌ من مراقي المجد، فبذلوا الوسع في قرضه وإحكامه، ولم يترددوا في المباهاة بما أوتوا منه.

فهذا الحاج محمد انياس يتحدث بنعمة البيان :

قال العبيد الكولخي محمد ... سليل عبد الله وهو يحمد
من خصه بواضح البيان ... من بين كل البيض والسودان
تحدثا بنعمة الوهاب ... برغم أنف المنكر المرتاب

ويعتدُّ أحمد عيان سي بحلية الشعراء قائلا:

إن ألبس الشعر أقواماً بمحمدة ... فسوف تلبسني بالحمد أشعاري

أمَّا ذو النون لي فيُباهي بشعره :

وقافية قد بِتُّ أحكم نسجها ... تفوق معانيها اللطاف الغواليا

ما حاك مثل ثياب مدحي حائك ... في رقة المعنى وحسن المنظر

ويباهي بنفسه أكثر:

جماعة الشعر أياماً إن اجتمعوا ... فإنما علمي فيهم أنا ابن جلا

ويمضي تيرنو حامد آن التلري أبعد من ذلك متحدّيا:

يا غـــاديا تـركب الأهـوال والخـطرا ... وتدخل البـيـد كـيـمـا تـدرك الوطرا

فـــبـلـغن كل قـح من بني زمـني ... أنى توجـهت : أني أشـعـر الـشـعـرا

ذلك أيضا هو البلاغ الذي صدع به حيث قال :

أنا شـاعـر الـبـيـضـان والـسـودان ... ترب الـقـصـائد فـارس الـفـرسـان

وأنا الـمـجـيـد سليـقـة وجـبلة ... كـــالليث عند تزاحـم الأقـــران

وكان مما يرفع من الشاعر السنغالي أن يُزكِّيَه إخوانه من شعراء موريتانيا وعلمائها. وقد وضع القبول هناك لشعر بعض أهل السنغال، فكان له في موريتانيا رواةٌ يردِّدونه، ومجالسُ يُنشَد فيها فيهتزُّ له الناس.

وما تزال أنغام شعر بن المقداد -كما يقول عامر صمب- "تحزن وتطرب تحت الخيام الموريتانية البيضانية حتى يصيحوا انجذاباً : "اسكي" في الساعة التي يندى الندى (فيها) رمال شنقي"(1).

وقد قال الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل (موريتاني) في الشاعر السنغالي ذي النون لي، وقد راقه شعره:

"إنك لعربيٌّ ضلَّ عن قومه" فتردّد بذلك صدى قولة الشيخ محمد فال بن متالي في الشاعر الشنقيطي الكبير محمد بن الطلبه: "هذا عربي أخَّره الله".

ولعل الرصيد الضخم من الإنتاج الشعري لأدباء السنغال يُفصح أكثر من غيره عن علوِّ منزلة سيد الآداب العربية في تلك البلاد، فقد تاق كل متعلم بالعربية في تلك البلاد إلى أن يكون شاعراً، وكان منهم -بالفعل- شعراء كُثر، أغلبهم مُكثرون.

وقد قيل إن شعر الشيخ أحمد بَمْبا، في قصائده ومنظوماته الكثيرة قد بلغ نحو ثلاثين ألف بيت.

---

(1) م.ن، 329/2.

وقد صدر للحاج مالك سي في تونس عام 1333 هـ ديوان شعر يضم أكثر من 5000 بيت، ولم يستوف شعره، بينما صدر للحاج محمد إنياس بالقاهرة سنة 1955م ديوانان أحدهما بعنوان (مرآة الصفا) ويضم نحو 700 بيت. أما الثاني فهو بعنوان (الكبريت الأحمر)، ويضم أكثر من 3000 بيت.

ولِذي النون ديوانٌ مخطوطٌ يضمُّ نحو 6000 بيت، وللشيخ إبراهيم نياس مجموعة دواوين، صدرت في عدة طبعات منها مجموع موسوم بـ (الدواوين الست) يضم أكثر من 3000 بيت.

وتلفت النظر عند الشعراء السنغاليين المطوّلات الكثيرة، والتي ترد أحيانا معارِضة للبوصيري في همزيته وميميته، ولكنها تخرج أحياناً أخرى من إطار المعارضة، فلا نجد للنفَس الطويل فيها حافزاً من مجاراة شاعر سابق أو مبادراته.

ومن الشعراء الذين أكثروا من المطولات الحاج مالك سي، الذي ترك قصائدَ منها ما يربو عدد أبياته على الخمسمائة والستمائة والسبعمائة والثمانمائة بيت.

وقد تتبَّع عامر صمب نتاج الشعراء السنغاليين في كتاب ضخم من مجلَّدين موسوم بـ: " الهدية السنغالية من المرجان، في العقود الأدبية للعربان" ـ الأدب السنغالي العربي، فجمع بين دفَّتي كتابه أكثر من 8000 بيت شعر، ولم يكن من همِّه أن يورِد إلا نماذج لكلٍّ من الشعراء والأدباء الثلاثة والخمسين الذين تحدَّث عنهم في كتابه، وهو مرجعه الرئيسي في هذه الورقات.

ثالثا: في الأساليب:

هناك ـ لا شك ـ علاقة وثيقة، في الأساليب وطرائق التعبير، وأشكال البناء الأدبي، بين الشعر الموريتاني والشعر السنغالي. ومع ذلك فليس باستطاعتنا الارتقاء بهذه العلاقة إلى مستوى التبعية التي يتحدَّث عنها عبد القادر سيلا جازما حين يقول: إن الشعر السنغالي " تابع للشعر الموريتاني قلبا وقالبا" فللشعر السنغالي خصوصياته المميَّزة، وإن كان بها جزء من الشعر العربي في عصوره الخالية.

وليس في هيكل القصيدة السنغالية كبير شيء يستوقف، فهي مبنية بناء القصيدة العربية التقليدية، إلا أنه أقل احتفاء بالمقدمات الغزلية والطللية، ومنه طائفة (الشعراء الدعاة خاصة) يدخلون إلى غرضهم مباشرة من أول بيت، وربما مهّدوا بأبياتٍ ينقضون فيها المقدمة الغزلية، بالتنصُّل رأسا من ذكر المحبوبة شأن الحاج محمد انياس في قوله:

ما شاق قلبي صوت الشادن الغرد ... ولا ابتسام الثنايا الغر عن برد

ولا تثني ملاح بالحمي برزت ... تختال في حلل من عيشها الرغد

ولا وصال لدعد بعد ما مطلت ... وحبذا الوصل بعد المطل من دعد

لكن إلى زورة يحيا الفؤاد بها ... بعد الكرى من مفيض السر والمدد

والدارس واجد في الشعر السنغالي من المحسنات البلاغية، اللفظية والمعنوية قدراً غير يسير، ففيه من الكناية والاستعارة وأشكال المجاز، وفيه من المطابقة والمقابلة والتقسيم، وفيه من التجنيس والتطريز والتفويف ما لا ضرورة للإفاضة في تتبعه، بل حسبنا منه لمحات موحية، نُفضّل استجلاءها خارج إطار التقسيمات البلاغية المألوفة، إذ يروق لنا أن نتلمّس معالم الشعر السنغالي في قوالبه الشكلية، ناظرين في مستوى خضوعه لسلطان العمود الشعري، ومدى انصياعه لسلطان الحرف والكلمة والنص واللغة.

وإذ نعمد إلى هذا التصنيف، فإننا لا نجهل ما بين هذه المكونات من تداخل وتشابُك يحيل الفصل بينها، أحيانا، إلى ضرب من الاعتساف، قد نترخّص فيه لأسباب منهجية إجرائية.

1. في العمود الشعري:

نعنى في العمود الشعري بالنظر خاصة في البحر والقافية.

أما القافية، فقد خضع لها الشاعر السنغالي خضوعَ الشاعر العربي الأول، ولم يتخفف من سيطرتها المحكمة على القصيدة إلا في حدود المألوف أيضاً، والرجاز منهم يكتفون بالتصريح في البيت الواحد شأن أغلب الرجاز العرب.

ومن شعرائهم طائفة جنحت على التشطير والتخميس والتوشيح، فتخففت من سلطان القافية، أو لنقل إنها نوّعت القافية ولم تتحرر منها، فقد خمّس الحاج محمد

الأمين بن الزبير بعض مديحات أحمد شوقي، وشطّر الحاج محمد محيي الدين كسمة ميمية البوصيري.

ونوّع بعضهم القوافي الداخلية، كما نجد في رملية أحمد عيان سي، التي يلتزم فيها ضرباً من التربيع مع وحدة رويِّها الأخير:

أنت أنت المستغاث	إن ينب داء عياء
ومن الفخر يلاث	لك ثوب ورداء
أنت مأوى كل راج	لم يخب فيك رجاء
أنت منجي كل ناج	حيثما عز نجاء

ومن التربيع قول الشيخ إبراهيم نياس في مدحة نبوية:

أهلا بشهر المولد	ذكرنا بالمحتد
أصل الأصول السيد	حبيبنا محمد

ثلاثة أسطر على روي، ويعود في السطر الرابع إلى رويٍّ الدال.

ونجد نحو ذلك عند الحاج محمد محيي الدين كسمة في مرقصة، من مجزو الرجز أيضاً، يبدأها على هذا النحو:

بشرى لنا بطلوع سعـ	ـد سعود الأمة
سمي محي الملة	عمر طود السنة
ليث الوغى شاكي السلاح	مردي البغاة بالرماح
هادي الأنام للفلاح	جد سعيد القدوة

ويذكُر النصّان بمُربّعة العلامة الشنقيطي محمدي بن سيدي عبد الله، المعروف ببدي بن سيدنا التي يقول فيها من مجزو الرجز:

تهنئة الربيع	بمدحة الشفيع
بالمنطق البديع	أبغي بها مؤملي

وهي تنشَد في المجالس الدينية بكلٍّ من موريتانيا والسنغال، خاصة في شهر ربيع الأول.

وإزاء التنوع في القافية نجد طائفة من الشعراء السنغاليين، يعنون بترصيع البيت وتكثيف القافية الداخلية، بالتزام التجزئة، فيبالغون في الخضوع لسلطان القافية.

من ذلك قول ذي النون لي، من قصيدة له في بحر البسيط :

أهلا بفوث (كبا) أهلا بما كتبا
تراه زهر ربى يضاحك الشهبا
أبدا به عجبا تعنو له الأدبا
تخاله شنبا يفترُّ أو حببا
يرضيك إن كتبا يقفو إذا خطبا
آباءه الخطبا أباله فأبا
كم فارس ركبا في غسق وقبا
جواده طلبا لحوقه فكبا

وقد نحا ذون النون ذلك المنحى في قصيدة أخرى له (من بحر المتقارب) يقول فيها:

شبابك فرٌّ وشيبك كثر وعمرك مرٌّ فأين المفر

وهي ثلاثون بيتا يلتزم فيها هذا النمط من التقفية الداخلية بحرف الراء.

ويبدو أن الشعراء السنغاليين، بالتزام هذه الأنماط من التقفية الداخلية يجنحون من ناحية إلى تخفيف الأوزان الثقيلة وتنغيمها على نحو يخدم أغراض الإنشاد والتطريب ذات الحضور البين في التقاليد الأدبية ـ الدينية بالسنغال، ولعلهم، وراء ذلك، يريدون أن يُجلُّوا ملكاتهم اللغوية والإبداعية.

ولقد جاء أغلب شعر السنغاليين على البحور الشائعة المألوفة في الشعر العربي: الطويل والبسيط، والكامل والوافر، والخفيف والرجز.

وكان الرجز ـ كما هو شائع عند الشناقطة ـ البحر الغالب على المنظومات التعليمية ونحوها.

واستأثر الطويل ثم البسيط بكمٍّ كبير من إنتاج القوم، بل إننا نجد للشيخ إبراهيم إنياس مجموعة دواوين مدحية كلها على بحر الطويل، فهل كان اختيار الشيخ له نابعا من رغبة في الكيل بمكيال واف (طويل) في غرض أدبي استأثر بجل إنتاجه؟

على أن شعراء السنغال لم يلزموا في هذه البحور صيغتها الكاملة المألوفة، ولم يقصروا القول في البحور الشائعة دون غيرها.

فقد استخدموا البحور السيّارة في صيغها المشطورة والمجزوة، ومن ذلك ما عرضنا له آنفا من شعر ذي النون، إذ يمكن اعتبار فائيته تلك من مشطور البسيط:

أهلا بغوث (كبا) أهلا بما كتبا

تراه زهر ربى يضاحك الشهبا

أما رائيته التي أشرنا إليها آنفا أيضا فيمكن اعتبارها من مشطور المتقارب، وقد مرت بنا بعض نماذج مجزو الرجز في مربعة للشيخ إبراهيم انياس، وأخرى للحاج محمد محيي الدين كسمة.

وقد كتب شعراء السنغال في مجزو الرمل، ومنه همزية أحمد عيان سي، التي عرضنا لها آنفا:

(أنت أنت المستغاث إن ينب داء عياء)

ومنه قول الحاج عبد الله بن إبراهيم بن محمود جوب، من غامبيا:

هاج قلبي باهتزاز نحو حب في الحجاز

نور عيني أنس قلبي روح جسمي وانتهازي

ومنه قصيدة الشيخ إبراهيم انياس :

صار من وصل الغواني واعتزل ذكر الأغاني..

ومن شعرهم في الكامل مع إعلال عروضه وضربه بالحذذ، قول ذي النون من قصيدة له :

العود لولا النار ما عرفا والروض لولا الزهر ما وصفا

وترى هلال الشهر منبلجا ويزيد رونقه إذا انتصفا

وقد كتب الشعراء السنغاليون في بحور أخرى، خفيفة الوزن، مثل المجتث، وقد أشرنا قبلُ إلى قصيدة منه، لأحمد عيان سي.

(إلى متى يا غرامي　　تسبي عقول الكرام)

وله فيه من قصيدة أخرى :

برهان شيخي أجل　　له المفاخر كل
حوى مقاما سنيا　　عنه المشايخ كَلُّوا
شيخ تقي نقي　　حديثه لا يُمَلُّ
له المواهب فيها　　فيض الغمامة قل

وللحاج أحمد دام أبيات في بحر الهزج، مطلعها:

ألا يا أيها ذا الصب　　أسير القلب في زينب

والآن. لنتساءل: هل طمح الشعراء السنغاليون للانعتاق من قيد البحور الخليلية، أو ترك المألوف من بنيتها إلى غير المألوف؟

قد يبدو ذلك مستبعداً..لكننا وجدنا بعضهم ينظم في أوزان غير مألوفة, فلنتأمل هذه النماذج لأحمد عيان سي :

مالي غزالي لحظ الغزالي　　أخو الدلال برح الخيال
رد السلاما لنا وقاما　　يبدي ابتساما مثل الهلال
من يدن منه لم يسل عنه　　إذ فيه كنه أسنى الخلال
أصحاب طه بهم يباهى　　لهم تناهى كل الكمال

أرقت ليلا من حب ليلى　　وحب ليلى فيه هلاكي
خود عروب تريك ثغراً　　حب الغمام له يحاكي
سل عنه بدراً وقينقاعا　　وما دهاهم يوم الدراك
فقد أتتهم منا ليوث　　تعدو إليهم فوق المذاكي
فغادروهم وكل رأس　　منهم يحاكي رأس السواكي

يسلك الشاعر السنغالي في النص الأول مسلك الشاعر الموريتاني الشيخ محمد اليدالي في مدحته الذائعة في تلك البلاد :

صـــلاة ربي مع الســـلام   على حـبـيـبـي خـيـر الأنام

بادي الشقوف داني القطوف   بر عطوف ليث همـــام

ذاك الرفـيـع الغـوث المنيع   ذاك الشـفـيع يوم القـيـام

آيات طه ليـسـت تبـاهـى   ولا تـنـاهـى عـلـى الـدوام

وقد تحدث الشيخ اليدالي عن نصه هذا، فبين سبب تأليفه, وتحدث عن الميزان الذي وضعه عليه, فقال:

"مررت يوما، وأنا على جناح السفر، ببعض أرباب الملاهي يرددون نغما من الألحان المطربة الملحونة، وفنًا من الأغاني الحسنة الحسانية الموزونة، فاستحسنت أن أمدحه عليه الصلاة والسلام، بقصيدة عربية على أسلوب تلك الأنغام، فنسجت على منوالها، وحذوت على مثالها، فأتيت إلى ذلك الأسلوب بقصيدة عربية أعجوب".

وهكذا يكون هذا النص موازنا لبحر من الأزجال الشعبية، باللهجة الحسانية، (عامية الموريتانيين). لكن اليدالي يمضي قدما في الحديث عن وزن قصيدته فيقول:

"وزن هذه القصيدة ليس من أوزان البحور الستة عشر بزيادة المتدارك، إلا أن أشبه البحور بها مشطور مخلع البسيط. والمتزنة به هذه القصيدة من أجزاء التفعيل: مستفعلاتن، مرة واحدة، وليس من أجزاء تفعل الشعر المعروفة"(1).

هكذا يرى اليدالي أنه وضع قصيدته على وزن جديد، وقد تبعه في استعمال هذا الوزن الشاعر السنغالي في نصه الأول:

(ما لي غزالي لحظ الغزال ...) .

---

(1) أنظر : أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، أطروحة دكتوراه دولة مرقونة، ص 130-140.

وامتاز في نصه الثاني :

(أرقت ليـــلا من حب ليلى   وحب ليلى فـيــه هـلاكي..)

بأنه ألغى الحدود المنغمة، وكسر التقفية الداخلية، فجاء نصه هذا أقرب إلى مخلَّع بحر البسيط، بل إنه متزن به، إذا اعتبرنا شطره مركبا من جزئين تساعيين على حدِّ قول حازم القرطاجي، وتقديره "مستفعلاتن مستفعلاتن". قال : وكأنهم يلتزمون حذف السين من الجزء الثاني، وأورد بعض نماذج الشعر القديم من ذلك(1).

وعليه لا يبقى لليدالي - ولا لأحمد عيان سي من بعده - من حظ التجديد في قالب الشعر إلا تشطير مخلَّع البسيط.

ولعلَّ في ذلك كفاية. إذ هو كثير من قوم درجوا على التقليد والمحاكاة، ولم يكونوا يرون في الخروج عن سنن الأولين فضلا لشاعر أو غيره.

فإذا أضيف إلى ذلك احتفاؤهم بأوزان قل المحتفون بها، وتقادم العهد بها في تاريخ الشعر العربي، كان لهم في ذلك بعض سبق ومزيد فضل.

بقي أن نشير إلى أن بعض الشعراء السنغاليين نوّع البحر في متن القصيدة الواحدة، فالحاج محمد انياس ترك قصائد منها ما يتكوّن من ثلاثة بحور، يستأثر كل بحر بجزء من القصيدة، ويجمع الروي شتات الأبحر المختلفة، كما هو الشأن في همزيته المكوَّنة من بحور الكامل والخفيف والبسيط.

2 . في سلطة الحرف:

نرمي في هذا التفريع إلى تبيان ما للحرف الهجائي من منزلة خاصة أنزله إياها شعراء السنغال.

ولا يهمنا في هذا المقام البحث في نسبة تواتر حروف معينة في قوافي القصائد، فذلك خارج عن قصدنا، ولكننا نريد أن نلفت النظر على "ظواهر حرفية" في شعر القوم، منها ما هو متعارف لديهم مألوف، ومنها ما يجنح به بعضهم إلى التميز في بعض شعره.

---

(1) أنظر : منهاج البلغاء، ص 238-240.

من تلك الظواهر حرصُ كبار الشعراء ومشايخ الصوفية على استغراق الألفباء العربية في قصائدهم.

فعند الشيخ إبراهيم انياس مثلا - وعند غيره منهم - تُشكِّل قصائد الديوان برَوِيِّها فهرسا الفبائيا، ذلك أن كلَّ قصيدة تنتهي بحرف من الحروف الهجائية.

ويراعون في ترتيب القصائد الترتيبَ الهجائي (أ ب ت ث ...) أحيانا، والأبجدي (أبجد هوز ...) أحيانا أخرى.

وهم في ذلك يعتبرون ألفَ الإطلاق (إشباع الفتحة) حرفا، وإن كان الرويُّ ما قبلها، كما يعتبرون الهمزةَ حرفا، ويعتبرون الألف المقصورةَ حرفا، وربما اعتبروا لام الألف (لا) حرفا مستقلاً.

وربما جاء شعرهم في ذلك على نظام "الروضة" بحيث ينتهي البيت بالحرف الذي يبدأ به.

وربما جاءت القصيدة أو بعض مقاطعها محبوكة الطرفين كقصيدة الحاج عباس صال التي تبدأ جميع أبياتها بحرف الباء وتنتهي به:

بشــرٌ ولكن لا يرَى كـفـؤًا له   بصــرٌ، وعـبـد للإله مـحـبَّب

بذر الوجـود، وجـوده مـتـدفِّق   بـاب الإلـه وبـابـه لا يُـحـجَب

بل إن الشاعرَ هنا يذهب بعيدا في ملازمة الحرف فيبدأ به أعجازَ بيته أيضا.

ولِذي النون قصيدة من 140 بيتا يلتزم في كلُّ خمسة أبيات منها البدءَ بأحد الحروف الهجائية، وله قصيدة يبدأ كلُّ بيت منها بأحد الحروف الهجائية.

وللشيخ إبراهيم انياس كذلك قصائد مُطرَّزة في أوائلها بالحروف الهجائية، يبدأ كلُّ بيت بحرف من الحروف على الترتيب الأبجدي (أبجد هوز ...).

وللشيخ أحمد بَمْبا قصائد على نظام " الروضة" تبدأ أبياتها بالحرف الذي تنتهي به.

ويبدو المديح - وخاصة المديح النبوي - الغرضَ الشعريَّ الذي استأثر بجُلِّ القصائد الألفبائية، فكأنَّ القومَ يريدون بمسلكهم هذا أن يُوظِّفوا المعجمَ العربيَّ كلَّه

في الثناء على الممدوح، حتى لا يبقى حرف من حروف الهجاء إلا وأودعوا فيه وبه مِن ذَوب عاطفتهم ما يرجون به الحظوةَ عند الممدوح.

وفي هذا الضرب من الصنعة ما يُذكِّر بأرتقيات صفيٍّ الدين الحلي، وببعض قصائد ابن دريد.

والقوم في مسلكهم هذا ينظرون إلى الحرف، بما هو رمز لأصوات اللغة، وسلَّمٌ لاستيعاب المعجم، فلا يُميِّزون بين حرف وحرف، وهم - على ذلك - أهل مشربٍ صوفي يعتبر الحروف مستودَعَ أسرار دقيقة.

ولكن "الظاهرة الحرفية" في شعرهم تذهب ببعضهم نحو العناية بحروف معينة ذات خصائص مميَّزة، فقد تكون الخاصيةُ خطِّيَّةً، ومن ذلك بعض نماذج الشعر المقطع التي وجدناها قديما في شعر صفي الدين الحلي، وفي أشعار مقامات الحريري، وفي شعر بعض الشعراء الموريتانيين مثل الحسن بن محمد عبد الجليل، ووجدناها لدى شعراء السنغال، كما في قول الحاج إبراهيم انياس"

زار زوري وازداد وُدًّا وورِدا ورِدا ... وروى ذا رآه درًّا وورِدا

ووداد آل دراء وزاد ... رب وارزق وارأب ودادا ووردا

ولعل الوظيفة الأساسية لهذا الضرب من الشعر إبراز الملكة اللغوية والعروضية للشاعر، فهو من أبواب المباهاة، ومدرج من مدارج المفاخرة بين الشعراء منذ عصور طوال.

وقد تكون للحرف الذي يُعنى به الشاعر خصوصيةٌ باعتبار موقعه من كلمة أو عبارة، فيكون الخضوع لسلطة الحرف حينئذ - وقد تعدَّد - خضوعا لسلطة الكلمة، فإن تعدد كان خضوعا لسلطة العبارة والنص.

3 . في سلطة الكلمة:

لا تهمنا هنا المفردة المعجمية في عمومها، فالشعر لغة واصطلاحا - وكذلك النثر - هو منظومة كلمات، إنما يهمنا لهاث الشاعر خلف كلمات ذات سمة خاصة، يذعن لها فتفرض عليه سلطانها، ونعني خاصة بالكلمات التي يحاول الشاعر من خلالها الإفصاح عن ملكة لغوية، أو ملكة بلاغية، فيتخيَّرها لذاتها قبل أن يتخيَّرها للمعنى الذي يتلبَّسها.

وهكذا نتساءل : ما هو حظ غريب اللغة في الشعر السنغالي؟ وإلى أي مدى كانوا يحتفون بالمحسنات اللفظية؟.

أما الإغراب في اللغة، فمن حقنا أن نجزم بدءا بأن الشعر السنغالي في عمومه قريب المأخذ، أليف المفردات، لكن من الشعراء مَن نمَّ شعره بثقافته اللغوية، فلم يخل من مفردات غريبة غير مألوفة.

لنتأمل هذه النماذج :

فمنها للحاج أحمدام :

ألا يا أيهذ االصب   أسير القلب في زينب
فما اللالاء والطأطاء   والظخياء والكرنب؟
وما اليعبوب واليعسوب   والشنخوب والكبكب؟
وما السكِّيت والجِنتيت   والكبريت والفرنب؟
وما الثلاث والنفاث   واللكاث والشوشب؟

ولذي النون لي :

مغنى سعاد عفته هوج العثير   وسقته واكفة الغمام الممطر

* * *

وأرسلت السما مثعنجرات   فتبسم من حواليها الزهور

* * *

ملاذ البرايا في الشدائد كلها   وشمس الضحى إن ادلهَمَّ الغياطل

ولتيرنو حامد آن التلري :

قسما بخوصٍ يعملات ضُمَّرٍ   تُغري الفلاةَ مفاوزا والبيدا
مطلنفآت رزح ويلمُها   عيسا ترى إرقالهن وخيدا

وللشيخ إبراهيم نياس:

وشق له البدر المنير وأسبلت   غمام بِوَدقٍ دائما يتثجَّج

فهل يخشين يوح لدى كبد السما		نباحا لِمغلول الكلاب ضريرا

* * *

أراني قد أطلقت طرفي ذا هوى		فسمت بما تعي به كل عِرهِس

* * *

ينسيك عن جيداء لمياء ساجيا		لها الطرف كالبرغوز والثغر كالبرق

عليه صلاة الله ثم سلامه		تُزيل طخاء القلب والهمز واللمزا

* * *

فيشكره طرسي ونقسي ولقلقي		مدى الدهر فهو المتنقى والمُمَجَّد

* * *

مرادي عين الحق تيدك لائمي		فليس سوى الذكر الحكيم بعاصم

نسوق هذه النماذج للإشارة أولا إلى أن التعمُّق في اللغة، والإلمامَ بغريبها كان همًّا من هموم الشعراء والعلماء في السنغال، وذلك ما يشير إليه النص الأول الذي يشحذ فيه الشاعر عدداً من المفردات الغريبة، متتبعا في ذلك خُطى بعض مَن سبقوه مثل الحريري.

أما النماذج الأخرى فنستنتج منها أن القوم يستدعون الغريب أحياناً تحت ضغط القافية، ولكنهم يُدرجونه أحياناً أخرى - وليس ذلك بكثير - في متن البيت حيث لا تُلجِئُ الشاعرَ ضرورةٌ تقفيةٍ ولا ضرورةٌ تبلغ، وفي هذه الحالة - على نُدرتها - يكون غريب اللغة رشحا بثقافة الشاعر المعجمية.

ويبدو لنا، بوجه عام، أن سلطان غريب اللغة لم يكن كبيراً على شعراء السنغال، فلم يكونوا يوغلون في اطلابه، وقد كان للقوم نزعة بلاغية يطلبون بها من المحسنات اللفظية والمعنوية ما يرونه حِليةً للشعر، على أنها لم تكن نزعةً سائدة، بل هي عند بعضهم دون بعض، وفي بعض شعر الشاعر دون بعض.

ومن بديع الجناس قول ابن المقداد:

من كان جارا لموسى أو غدا موسى		جارا له فهو في أمن من البوسى

من قاوَم الشيخَ بالأشياخ كان كَمَن		يقاوم الصارم البتّار بالموسى

وله :

إذا رأيتَ أبا سبعين أدمُعُه		تبدي على الخدِّ ما جنَّ الفؤاد وكن

لا تعذلوه ولكن فاعذروه فهو		شيخ رمته فتاة المصر "زينب كن"

ومنه لترنو حامد آن التلري :

بلغنْهم أني وجدت (كحيلا)(*) قد غدا للزمان طرفا كحيلا

سل سبيلا إليه واسأل سواه بعيون يُريكَها سلسبيلا

وللحاج ماجور سيسي:

شوقي إليهم وسوقي نحوهم ولهم توقي وجوهر نظمي في مديحهم

وللشيخ أحمد بمْبا :

أسير مع الأبرار حين أسير وظنَّ العدى أني هناك أسير

ولذي النون:

شراب الهوى يحكي سرابا وعذبه عذابا وعُقباه تجي بعقاب

* * *

أطلاؤها يمرحن في أطلالها فكأنها في الشعب شعب العرعر

أوعالها تستن في أوعارها ترعى خزاماها وغض الأزهر

وقد وضع الحاج محمد الأمين بن زبير قصيدة من 25 بيتا تنتهي كلها بكلمة خال، بمعان مختلفة، يعارض بها خمسة أبيات منتهية بنفس الكلمة كان قد كتبها بطرس كرامة (لبناني).

أما ردُّ الأعجاز على الصدور، ففي شعرهم منه نماذج كثيرة، منها للحاج عباس صال :

ويطلبون لذي الفحشاء معذرة ما أمكن العذر شرعا أيما طلب

وللحاج عيان سي :

بنت يده من العلماء قصرا تقاصر دونه أيدي البناة

وللشيخ أحمد بمبا قصيدة يكاد يلتزم فيها هذا الضرب من المحسنات اللفظية، ويكثر فيها من التجنيس :

(*) علم جغرافي.

مسيري مع الأخيار لله بالنبي | وما لي لغير الله عوض مسير
يسير بي الجذب الذي قادني إلى | كريم عليه ما أروم يسير
شكوري بأقلامي وقلبي وجثتي | لمن كان لي بالجود وهو شكور
يجيرني الكافي به من أذى العدى | ومن كل سوء وهوجلٌ مجير

وقد نحا الحاج ماجور نحو الأقدمين في التفويف وحشد أفعال الأمر، فجمع في بيت واحد أربعة عشر فعلا:

صِلْ زُرْ أَقِمْ واهجر اصرمْ جروة وأَقِلْ | وصد واسل وحب اعتب وبنْ ودُم

وذلك هو عددُ الأفعال الواردة في بيت المتنبي :

أَقِلْ أَنِلْ أقطعْ احمل عل أسل أعد | زد هش بش تفضل ادن سر صل

إن سلطة الكلمة هنا (وهي في هذا النموذج صيغة صرفية - فعل الأمر - لا مفردَة بعينها) تشفُ عن سلطة نصٍ سابق يجاريه الشاعر، ويطمح إلى مجاراته أو مجاوزته، ولكن الكلمة في هذا النموذج، وفي النماذج الأخرى التي أوردناها ليست خلوا من المعنى. إنها ظرفه ووعاؤه لا ريب.

ولئن استأثر الظرف بعناية أكبر في بعض النماذج، فإن المظروف (المعنى) كان ضالَّتَهم المنشودة في جلِّ شعرهم، ولم يكن البهرج اللفظي يستحوذ عندهم على سبل القول. هذا على أن الذين عُنُوا بالبديع والمحسنات البلاغية، وأجادوا الصنعة اللفظية كانوا - في الغالب - أهدى إلى بسط المعاني، وتجلية الأغراض، وتبليغ الفكرة التي يستبطنون في قالب شعري ملائم.

والكلمة، بما هي وعاء المعنى، لبنة في بناء النص: النص الذي يكتبه الشاعر، والنص الذي يستدعيه فيملي عليه.

4 . في سلطة النص:

نقصد بسلطة النص هنا أن يكون الشاعر محكوما بنص سابق، يُطوِّع له شعره بضرب من ضروب المجاراة أو المحاكاة الجليَّة..

وطبيعي أن تقوى سلطة النص السابق كلَّما قوي النزوع إلى التقليد، وكان النسج على منوال الأولَين غايةَ الشاعر وطِلبتَه.

كذلك كان الشأن عند شعراء السنغال، وعند جُلّ معاصريهم ومجاوريهم من الشعراء الموريتانيين، ولا يهمنا في هذا المقام أن نتمعّن في البحث عن علائق التناصّ بين الشعراء السنغاليين، وشعر الذين سبقهم من شعراء العربية في مختلف العصور، بحسبنا أن نقف عند "ظواهر نصّيّة" يتعامل فيها الشاعر مع نصٍّ سابق، تعاملا مكشوفاً، واعياً مقصوداً.

وفي هذا الباب تندرج تجارب التشطير والتخميس والتضمين والمعارضة والمحاكاة لقصائد كثيرة لعلّ أهمّها البوصيريات (وخاصة الميمية والهمزية) ولامية كعب بن زهير (بانت سعاد) ولامية ابن الوردي :

(اعتزل ذكرَ الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب مَن هزل)

وميمية اليدالي :

(صلاة ربي مع السلام .. ..

ولامية بدّي بن سيدينا :

(تهنئة الربيع أبغي بها مُؤَمّلي)

ويمتدّ استدعاء النص في الشعر السنغالي إلى ما هو أسمى وأرفع : إلى آيات القرآن الكريم .. ولئن لم نقف على نماذج من الاقتباس في النصوص الشعرية التي بين أيدينا، فإن للنص المُحكَم حضوراً في بعض القصائد، ولكن بطريقة التطريز التي تُحوِّل الآية إلى حروف مقطّعة يحلي كل حرف منها رأس بيت من أبيات القطعة أو القصيدة.

فللشيخ أحمد بَمْبا - مثلا - قصائد ومنظومات مُطرَّزة بآيات شريفة :﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[1]،

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً ﴾ [2].

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ ﴾ [3].

(1) سورة الأعراف، (الآية : 196).
(2) سورة النساء، (الآية : 75).
(3) سورة غافر، (الآية : 44).

وللشيخ إبراهيم نياس قصائد مُطرَّزة باسم محمد ﷺ، وبالآية :﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

5. في سلطة اللغة:

نقصد بسلطة اللغة هنا لغةً معيَّنة يتخاطب بها الناس، وليس مستوًى من مستويات التعبير باللغة الواحدة، ولأننا نتحدَّث عن الشعر العربي، فمن الطبيعي أن تكون اللغة المهيمنة ذات السلطة هي اللغة العربية، إلا أننا نلِجُ هذا المولجَ لنبَيِّن حدودَ سلطة هذه اللغة على الشعر السنغالي، لا بالنظر إلى ما قد يشوب النص عند هذا الشاعر أو ذاك من اضطراب لغوي، صرفي أو نحوي أو إملائي، أو معجمي أو عروضي، فذلك بحث في المستوى والدرجة، ولسنا إليه، وإنما بالنظر إلى ما قد يخالط اللغة العربية في الشعر السنغالي من لغات أخري منطوقة في محيط الشاعر.

إن لِتِلك اللغات (أو بعضها) سلطةً نسبيَّةً في تلك البلاد، فقد عانقت الولفية (كبرى لغات السنغال) العربيةَ في حضن العروض الخليلي، ونشأ من لقائهما شعر حميم، أثيرٌ عند القوم، آخَّاذٌ بقلوبهم، مُفصِحٌ عن دخائل وجدانهم، وكُتب لهذا الضرب من الشعر المُلَمَّع قبولٌ واسعٌ كان مسرحَ أخيلة الشعراء وإبداعاتهم، أفارقة كانوا أو عربا، في السنغال وموريتانيا معا.

وكان من أوائل الذين سلكوا هذا المسلك في المزج بين اللسان المبين واللغة الولفية القاضي مَجَخْت كَل (ت 1902م) وابن المقداد، وتبعهما في ذلك عبد العزيز سي وآخرون.

وإذا لم يكن الموريتانيون قد سبقوا إلى تركيب هذه العجينة (وإن سبقهم إليها آخرون مزجوا قديما بين العربية والفارسية مثلا)، ومهَّدوا سبيلها لإخوانهم السنغاليين - وهو أمرٌ قريب الاحتمال - فإن محمد بن أحمد يورة، وهو معاصر للقاضي مَجَخْت كَل (وإن تأخَّر عنه) قد كتب شعراً عذباً رقيقاً ثنائي اللغة (عربياً - ولفياً)، وتبعه في ذلك الكبيد بن جب .. ثم أحمد بن أحمذيه وآخرون، وفي شعر الشيخ الشيخاني بن الطلبه مفردات قليلة من الولفية.

وهذه نماذج من الشعر السنغالي المُلَمَّع، وقد وضعنا الكلمات الولفية فيها بين قوسين.

ومنه للقاضي مَجَخْت كَل:

لم أنهمت بعد شيب عبرة وبِمَه — أراقها كلمتا سعدى (بمه وبمه)[1]

مالي أراني إن لامست غانية — عصر الشباب تقبل أو تقل (يبمه)[2]

واليوم إن لمست خودا يدي لعبا — تأففت ثم نادت: يا أبي (سرمه)[3]

وإن لهوت تلهت، أو دنوت نأت — وإن أسل فجواب عندها (خممه)[4]

ولابن المقداد:

مني سلام إليك كان موجبه — إن كنت ذا فْضة[5] منها (البلم درم)[6]

ولا ترد سؤالي دائما أبدا — (دنال في[7]) عاجلا (تنك دنال كرم)[8]

وتستوقفنا في هذين البيتين مفردات ولفية لا يبعد أن تكون ذات أصل عربي: فـ (درم) أصلها درهم، و (في) المؤدية لمعنى قضاء الدَّين تحيل على مفردات الوفاء في اللغات العربية، أما (كرم) فيتَّجه إلى أن تكون من مادة كرم العربية، وانزياح معناها نحو الشكر في الولفية لا يبعدها كثيراً عن مدلولها العربي.

ولابن المقداد:

يا خود إن غراب البين منك (سوخ)[9] — فزرت أطلب من وصل لديك (سرخ)[10]

ضننت بالوصل حتى بالحديث ولا — أرى ضنينا سواك ﴿الدهر﴾ ضنَّ بـ (وخ)[11]

لا تمنعي الوصلَ ممَّن يستهام به — أتمنعين وِصالَ المستهام (لتخ)[12]

---

(1) اتركني وشاني

(2) خذني.

(3) خل مكاني.

(4) لا أدري.

(5) الفضة في العامية الموريتانية تطلق على النقد، سكة كان أو ورقاً.

(6) أعرني درهماً.

(7) سأفي لك بالدين، سأقضيه.

(8) سأشكرك.

(9) كلامك.

(10) صدقة،إغاثة.

(11) كلمة.

(12) لماذا.

وللحاج عبد العزيز سي، من قصيدة طويلة :

(دكل متكتلل) [1] شيخا عالما ورعا	مَن كان يصحبه فالله يحميه
من السوادين والبيضان (ديسك كس)[2]	شرقا وغربا - وربي - من يضاهيه
(نكل لبريل ب ف ج هادي كمفل	دو دان[3]) ما دام مولانا يقويه
حبيبنا هاد (موم لا جس مريلفون	تدد[4]) عن كل شيء ليس يغنيه

وللقاضي مَجَخْت كَل قصيدة جارية على أصل الملمع، تتكون أعجاز أبياتها كلها من كلمات ولفية، وللشيخ أحمد بمبا بعض نصوص شعرية يمزج فيها العربية بالولفية.

وعموما، فقد قرب هذا النوع من الشعر من البيئة المحلية، وجسّد حالة التداخل اللغوي والثقافي بين سكان السنغال وسكان موريتانيا، وقد أبرزت هذا التداخُلَ نصوصٌ لشعراء من البلدين تتضمن أيضا ألفاظا من الحسّانية (اللهجة العربية للموريتانيين) وتضمنت بعض النصوص مفردات قليلة من الفرنسية.

إلا أن أغلب شعراء السنغال قد وقفوا شعرهم على العربية فلم يخلطوها بغيرها، وكذلك شأن الذين خلطوا، فقد كانت أغلب آثارهم الشعرية عربية خالصة.

رابعا: في الأغراض الشعرية:

يشيد عامر صمب بما في الشعر السنغالي من الأحاسيس والتخيل، وأناقة الكلام، واختيار الألفاظ، وفي بعض الأحيان من التكلف .. وهو يحتج لهذا الشعر بما فيه من الصنعة اللفظية، مستشهدا بقول أبى هلال العسكري ليس الشأن في إيراد المعاني، فإن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، ويعلق الباحث السنغالي قائلا: إذا صحّ ذلك عند العرب صح أيضا عند السنغاليين، فإن بيت القصيد في اللفظ... .

---

(1) أنت فاعلمك.

(2) لايرى.

(3) طب نفسا فهذا فضل له من عند الله ومن أيده الهادي فلا غالب له.

(4) رأيته يقيس سيرته على التي هي أحسن وينصرف (الشروح عن عامر صمب، بقليل من التصرف).

تلك نظرة قد لا تحظى بتأييد الأدباء والنقاد المحدَثين، ومع ذلك فلسنا نعرضها لنردَّها أو نقبلها .. لكننا - على أية حال - لا نرى أن الشعر السنغالي كان حفِيًا بالصنعة اللفظية إلى ذلك الحد، فرغم ما عرضنا له من نماذج تُفصح عن منازعهم البلاغية، فإن كدحَهم في كتابة الشعر كان، في غالب الأمر، لأداء الفكرة، مع بذل الوسع في سلامة وعائها لغة وعروضا.

وكان من القوم طائفة اعتبروا الشعر أداةً لتبليغ رسالة يحملونها، فلم يألوا جهداً في توظيفه لتلك الغاية، فكانت قيمة الشعر عندهم هي قيمة مضمونه أولاً، وإلى ذلك ترمز موازنة الشيخ إبراهيم نياس بين شعره وشعر الشاعر الموريتاني محمد عبد الله بن السيد، وقد كان هذا الشاعر مدَّاحا للشيخ إبراهيم، فقال له ذات يوم، وقد سمع بعضَ شعره فيه : أنت أشعر مني، لكن ممدوحي خير من ممدوحك.

وكان المحتفون بالمحسنات البلاغية من السنغاليين يقرضون أحيانا كثيرة وغايتهم المضمون، فلا تجد للصنعة أثراً طاغياً في كثير من شعرهم، وقد كاد شعراء السنغال لا يدعون بابا من أبواب المعاني إلا طرقوه، ولا غرضا من أغراض الشعر إلا تناولوه، ففي شعرهم المدح والرثاء، والفخر والحكمة والسياسة (الوطنيات)، والغزل والإخوانيات، والتأملات الروحية وغير ذلك.

ويمكن توزيع الشعراء السنغاليين إلى فئات :

فمنهم فئة كادت تختص في غرض من الأغراض لم تَعدُه إلى غيره إلا قليلا، ومن هذه الفئة مَن يمكن أن نسميهم " الشعراء الدعاة" وهم كبار القوم ممَّن استحوذت أغراض دينية صرفة، كالمدح والنصح والابتهال، على جلّ شعرهم، ومن هؤلاء فارس شعراء السنغال ورائدهم عمر الفوتي، والشيخ الخديم أحمد بَمْبا البكّي، والحاج مالك سي، وشيخ الإسلام إبراهيم نياس.

ومنهم فئة قليلة طغت الإخوانيات والوجدانيات على شعرها، ولعل خير مُمَثِّل لهذه الفئة ابن المقداد، بومضاته الشعرية التي يعجن فيها المواجد والعواطف الرقيقةَ ببدائع الصنعة اللفظية.

ومنهم فئة صالت وجالت في فضاءات المعاني، فكان الشعر العربي لديها سِجِلاً لمشاعرها وعواطفها وانفعالاتها ومعارفها في سبحها الطويل في الحياة، ومن هؤلاء ذو النون لي، وأحمد عيان سي، وتيرنو حامد آن التلري.

وقد كان للشعر عند السنغاليين وظيفة تعليمية، فانبرى عدد منهم يكتبون الأراجيز، يُيَسِّرون بها للناس حفظ المعارف الدينية واللغوية، أو ينصحون ويعظون، أو يدونون الأحداث، أو يجادلون الخصوم، وفي المقتطفات المرفقة نماذج من تلك الأغراض.

وخلاصة القول أن الشعر السنغالي بإخوانيات ابن المقداد، وبوجدانيات ذي النون لي، وبوطنيات أحمد عيان سي، وبمدحيات الشعراء الأقطاب من المشايخ، وبروائع الآخرين ... هذا الشعر هو قطعة نفيسة من الشعر العربي في مرابعه الغربية، وهو قائم على أن خريطة العروبة الثقافية هي أوسع مما يتصور الكثيرون، وحريٌ بالغيارى على الثقافة العربية الإسلامية، وعلى الأدب العربي بالذات، أن يكتشفوا أدبهم في تلك الديار النائية ويحتضنوه.

الاتجاه الإسلامي
في الشعر النيجيري الحديث

د. محمد مسعود جبران(*)

أود ـ في البداية ـ أن أتقدم بشكري الوافر، وتقديري الخالص إلى إدارة الثقافة في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "الإسيسكو" بالمغرب، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية بليبيا على تفضلهما بالدعوة الكريمة لي وزملائي الأساتذة الباحثين للمشاركة في أعمال هذه الندوة الدولية في الجامعة الإسلامية بالنيجر المضياف، وأنوه كثيراً بالإدارة المذكورة في اختيار موضوع الندوة "**من أجل أدب إسلامي فاعل ومتفاعل**"، إذ لا قيمة للأدب وبخاصة إذا كان إسلامياً إلا أن يكون موصوفاً بهذا النعت الإيجابي، وإنني أذهب إلى أن هذا الموضوع سوف يسدُّ فراغاً كبيراً في حياة المسلمين الفكرية والثقافية، وآمل أن يصل الباحثون الغيورون في دراساتهم واستنتاجاتهم، مع الجهود الرائدة السابقة، إلى كشوفات علمية ونتائج محددة، ترأب الصدع الحاصل في حصوننا المهددة من الداخل، وتهتدي إلى توصيف العلاج الناجع الذي يقاوم بفاعلية، فيروسات الغزو الثقافي والفكري الوافد من الخارج، ويربط الأجيال المقبلة بتراثها الأصيل.

إن الإنسان إذا اشتدت به الأعاصير، وعصفت به العواصف، يتمسك بثوبه، ولا ثوب نتمسك به في هذه المحن الماحقة إلا الإسلام، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (1) وما العناية بالأدب الإسلامي إلا من هذا الباب.

(*) كلية الآداب، جامعة عبد الله بايرو ـ نيجيريا.

(1) سورة آل عمران، (الآية : 85).

وأحب أن ألفت النظر -قبل الحديث عن الموضوع- إلى أن الأدب الإسلامي شعرَه ونثرَه، يحتاج منا، في جمعه ونشره والتبشير به بين الأجيال، إلى أن نتدرع له بمنهجين واضحين هما : المنهج الوصفي أولا، والمنهج المعياري أخيرا.

المنهج الوصفي الذي ينبني -كما لا يخفى عنكم- على جمع مادة الأدب الإسلامي عبر العصور التاريخية، وفي الأماكن المختلفة التي أظلها الإسلام بظله الوارف شرقا وغربا، والمنهج المعياري التنظيري الذي يقوم منطقيا على المنهج السابق ويتلوه لاستخلاص طبائع هذا الأدب وموضوعاته وآفاقه وأشكاله وشخصياته، فيتولد عن ذلك تاريخ الأدب الإسلامي ونقده وأدبه المقارن، (.... إنه الوصف الذي أدى بالمنظمة الموقرة إلى الاهتمام به.....)، ولا يمكن أن تتم صورة الأدب الإسلامي الفاعل المتفاعل إلا بالجمع بين المنهجين الوصفي والمعياري، ويأتي بحثي هذا "**الاتجاه الإسلامي في الشعر النيجيري**" ضمن هذا السياق.

لقد انطلقت حركة الشعر العربي الإسلامي الحديث في نيجيريا، بل في مدن صُكُتو والهوسا، وزاريا، وبرنو، وكشنة، مع انطلاقة الحركة السياسية والجهادية المميزة التي نهض بها الشيخ المصلح عثمان بن فودي (1169-1244هـ)(1) لتأسيس مملكة صُكُتو الإسلامية في الشمال من هذه البلاد الواسعة في القرن الثالث عشر الهجري ، التاسع عشر الميلادي، ضمن الحركات السياسية والإصلاحية الكبرى في العالم الإسلامي، تصحيحية إصلاحية شملت وجوه الحياة العامة في الشمال، وفي أطراف أخرى متفرقة من البلاد (2).

ولسنا في حاجة في هذا البحث إلى الحديث المفصل عن التكوين الفكري والثقافي والأدبي الذي عرفت به شخصية هذا المصلح، كما عرف به أخوه العلامة عبد الله بن فودي، أو أولاد عثمان بن فودي الذين انتهجوا نهجه بعد وفاته، من

---

(1) ولد عثمان بن فودي بأرض غوبر، ونشأ في حجر أبويه الصالحين، وتلقى علومه على أيدي كبار الشيوخ في عصره، تميزت شخصيته بالاستقلالية والحزم والدعوة إلى الإسلام، مع ما عُرف به من العلم والفقه والصلاح، وهو أشعري العقيدة، قادري الطريقة، وبتلك الخلائق كوَّن بحزمه دولة عظيمة إسلامية أجهضها فيما بعد الاستعمار الإنجليزي الحاقد، راجع في حياته "**الإسلام في نيجيريا**" 91، **الثقافة العربية في نيجيريا، وجذور الحضارة الإسلامية، وإفريقيا والاستعمار الأوروبي**.

(2) راجع في طبيعة الحياة العامة وأشكالها قبل ظهور حركة الشيخ عثمان بن فودي، **الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلمية قبل كيان دولة صكتو** لقريب الله محمد الناصر كبر، **والثقافة العربية في نيجيريا**، للدكتور علي أبوبكر، **وحركة اللغة العربية**، للدكتور شيخو غلادينثي، **وجذور الحضارة الإسلامية** لبريما باري.

أمثال أمير المؤمنين محمد بللو، ومحمد البخاري، وبنته أسماء بنت عثمان بن فودي[1]، فقد تميزت شخصيات هذه الأسرة المؤسسة الرائدة ـ كما أخبر المؤرخون ـ بالعلم والأدب والإصلاح والجهاد، وبالتأليف ورعاية الحركة الفكرية والأدبية في نيجيريا وغرب إفريقيا.

وصفوة القول إن الحركة الأدبية والفكرية ظهرت في القرن التاسع عشر متزامنة، بل منبعثة من مرحلة التأسيس لمملكة صُكُتو في شمال نيجيريا، والتي امتد إشعاعها فيما بعد إلى مناطق يوربا وبرنو وكنو وكشنة، وغيرها من الأماكن[2].

أما هذا البحث فسيقتصر من ذلك كله على التعريف بحركة الاتجاه الإسلامي في الشعر النيجيري الحديث من حيث المضامين والخصائص الفنية، منذ ظهور الحركة الفودوية الإصلاحية إلى القرن العشرين، وسأعرض ،خلال هذا التناول والتعريف بشيء من التحليل، النماذج الشعرية المتميزة، ذات التعابير الجميلة المصوِّرة للمشاعر الصادقة في شتى الأغراض.

لقد شارك في بناء صرح الشعر النيجيري الحديث، بل واتجاهه الإسلامي جملة من شعراء القرن التاسع عشر والقرن العشرين نجتزئ هنا بذكر بعضهم لتسهيل مهمة المتتبع في معرفتهم.

فمن شعراء القرن التاسع عشر نذكر عثمان بن فودي، وأبناءه محمد بللو، ومحمد البخاري، وأسماء، وشقيقه عبد الله بن فودي، وعبد القادر بن عثمان بن محمد، وعلي بن عبد الله بن فودي، ومحمد سعد بن محمد بللو، والشيخ عمر بن محمد الأمين الكانمي، ويوسف عبد القادر القرقوري، وإلياس بن محمد تكر الكشناوي وغيرهم.

ومن شعراء القرن العشرين محمد بن عثمان بن عبد الله بن حمدي ابن موري أمير زكزك، والأديب علي بن حمزة النافطي، والأديب القاضي أبو إسماعيل إبراهيم بن عثمان، والوزير جنيد بن محمد البخاري، والشيخ محمود بن محمد، والشيخ إبراهيم بن أحمد بن عمر الوالي، والشيخ محمد الناصر بن محمد كبير،

(1) راجع في ذلك المراجع المذكوره.

(2) راجع ناصر مرتضى إبراهيم، المدائح النبوية عند بعض علماء زاريا.

والشيخ أحمد التجاني بن عثمان، والشيخ محمد الثاني، والشيخ أبو بكر عتيق بن الخضر، والشيخ إبراهيم صالح الحسني وغيرهم[1].

وبهذه النتاجات وغيرهم من شعر هؤلاء الشعراء تكوّن ديوان الشعر العربي الحديث في نيجيريا، والذي أخذ في عمومه طابع الاتجاه الإسلامي متأثراً -كما سبقت الإشارة- بالدين الإسلامي القويم، وبصدى الحركة الإصلاحية الفودوية في صُكُّتو، ولم تكن حركة الشعر العربي والإسلامي الحديث في نيجيريا مقصورة على أولئك الأعلام من الرجال الشعراء فحسب، بل امتدت لتشمل إبداعات بعض الشاعرات المسلمات مثل أسماء بنت عثمان بن فودي التي كانت أبرز ما خرّج عصرها.

إن الناظر في النصوص الشعرية الكثيرة والوفيرة من قرائح أولئك الشعراء جميعا، سوف يقف على حقيقة مهمة جديرة بالتقدير والعناية، وهي اعتدادهم الشديد -بالرغم من تنائي ديارهم في السودان الأوسط والسودان الغربي- باللغة العربية باعتبارها لغةَ القرآن العظيم، وافتخارهم بنظمها المعجز، وبالسنة النبوية البليغة، وباطلاعهم جميعاً على جملة من الآثار العربية منظومة ومنثورة، وذلك لتشرُّب الروح العربية الإسلامية، والترويّ بالمائية الشعرية من دواوين فحولها، وليعكسوا أثرها الباهر فيما بعد في النتاج الذي سنعرض له[2].

يقول الدكتور شيخ أحمد سعيد غلادينثي "وليس من الصعب تحديد ما وصل إلى أولئك العلماء من كتب الأدب في تلك الفترة، فهي قليلة جداً لا تتجاوز القصائد الجاهلية ومقامات الحريري، وقصيدة كعب بن زهير الشهيرة "بانت سعاد" وبعض أشعار حسان بن ثابت، والبردة للبوصيري، وسيرة ابن هشام، وقد وصل إليهم كثير من المنظومات العلمية كألفية ابن مالك في النحو، وألفية العراقي في مصطلح الحديث، والعشرينيات لأبي زيد عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد الفازازي في مدح النبي ﷺ، وأمثال ذلك، وقد يلتقطون بعض الأبيات التي تتخلل الكتب العلمية كالشواهد، وأما الكتب الكثيرة التي وصلتهم فهي كتب التفاسير والفقه والحديث والنحو والبلاغة والعروض والتوحيد والتاريخ"[3].

---

(1) راجع الدكتور علي أبوبكر الثقافة العربية في نيجيريا.

(2) راجع الثقافة العربية في نيجيريا وحركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا.

(3) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، 101.

إن هذا الانجذاب إلى الثقافة العربية والإسلامية، والتأثر بما انتهى إلى هؤلاء الشعراء النيجيرين من شعراء العربية في بعض عصورها، جعل جملة منهم وبخاصة في القرن التاسع عشر يقيدون من بعض دواوين وقصائد أولئك الشعراء بالمحاكاة أو المعارضة أو التخميس أو التشطير، وحكمنا النقدي هذا لا ينسحب إلا على طائفة ممن خُصُّوا بالذائقة الأدبية الرقيقة.

ومن هنا يمكن القول إن الطابع الغالب على شعر هذا الاتجاه إنما هو طابع التقليد والاتباع، شكلا ومضمونا، بل التقليد الذي يخلو - في أجود نماذجه - من أي مظهر من مظاهر التجديد والإبداع، إذ أن مجموع هذا الشعر تولّد من منطق الإعجاب المطلق بالنموذج العربي في بناء القصيدة، وبدا مقلدا لبعض أمثلته في الأوزان والقوافي والألفاظ والتعبير، وحتى في مظاهر التحسينات البلاغية.

وسنعرض في هذا البحث لتوكيد ذلك الحكم من خلال دراسة مضامين هذا الشعر وطابعه أولا، ثم نأتي لبيان الخصائص الفنية الظاهرة فيما وصلنا من هذه الأشعار، من حيث بيان طبائع البناء الهيكلي للقصيدة، والألفاظ والتعابير، والمحسنات والأخيلة.

أولا: مضامين الاتجاه الإسلامي في الشعر النيجيري الحديث:

لقد تأثر شعراء هذا الاتجاه في القرنين التاسع عشر والعشرين في نيجيريا - كما تقدمت الإشارة - ببنية القصيدة أو عمود الشعر العربي، من حيث المضامين والأغراض المعروفة منذ العصر الجاهلي أو عصر ما قبل الإسلام، فعملوا على محاكاة الشعراء العرب في أبواب المدح والرثاء والوصف، والهجاء والغزل، والعتاب والاستعطاف، والشكوى والحنين، وفي الموضوعات المستحدثة والجديدة التي ظهرت بظهور الدين الإسلامي، مثل الحب الإلهي والنبويات، ومدائح الرسول ﷺ وأشعار المناسبات الدينية، وشعر الدعوة والحض على الجهاد، وذكر الغزوات والمعارك ضد أعداء الدين، كما شاركوا في غيرها من الأغراض والمضامين الشعرية المعهودة في سياقات الشعر العربي.

ومن الملاحظ أن هؤلاء الشعراء النيجيريين التزموا - عبر القرنين المذكورين - مع مراعاة التقاليد الخاصة بكل غرض ومضمون، وما يتصل به من أصول مقررة

عند النقاد وعند المبدعين ـ بالقيم الإسلامية المحترمة التي نجدها سارية في بنائية قصائدهم.

وقد تناولت في هذا البحث من تلك المضامين :

الشعر الديني ومتعلقاته، وشعر المدح والرثاء، والفخر والغزل، والنسيب والشكوى، واقتصرت من ذلك في هذا البحث على دراسة الشعر الديني والمدح.

1. الشعر الديني:

ونعني بالشعر الديني الشعر الإسلامي الذي جلا فيه شعراء هذا القطر أشواق أرواحهم، ومشاعرهم العقدية الصادقة نحو أحداث وشخصيات ومناسبات دينية، معبرين عن عواطفهم الخالصة، ومتأثرين في نتاجهم بالقيم والمثل الإسلامية، مثل إبداعهم الشعري في الحب الإلهي وتعظيم الله سبحانه ومناجاته، وشعر النبويات، والشوق إلى الحرمين الشريفين، ومثل شعر الجهاد وذكر المغازي ومحاربة أعداء الله، ومثل أشعار التربية والتوجيه، والأمثال والنصائح وغير ذلك من الموضوعات التي تندرج غالبا فيما يطلق عليه الشعر الصوفي.

والشعر الديني على ذلك التصور باب واسع، ومجال فسيح في الأدب العربي بعامة، وفي الأدب النيجيري بخاصة، بل إنه يعد أفسح الأبواب، وأرحب الألوان في شعر القرنين التاسع عشر والعشرين.

ولا غرابة في أن يتسع هذا الباب، وأن تغزر مادته، وذلك لما ذكرناه من تأصُّل عقيدة الإسلام في هذا الشعب وفي شعرائه وعلمائه وأدبائه، ولتنائي ديارهم عن أراضي الحجاز، وشدة شوقهم لتلك الديار، ولأسباب أخرى متعددة ذكرنا بعضها سابقا، منها تأثير الحركة الفودوية على هذا الشعر.

وسنتناول في هذا الشعر الديني عددا من الموضوعات هي:

1. المدائح النبوية.

2. الشعر الصوفي ومشمولاته.

3. شعر الجهاد وذكر المغازي.

* **المدائح النبوية:**

باب المدائح النبوية، وتمجيد ذات الرسول ﷺ غرض من القول مهم في آداب العرب والمسلمين عامة، وهو تعبير عن وجدان المبدعين، وتصوير لخلجاتهم الروحية والنفسية نحو رسولهم ونبيهم الأعظم، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(1) . يقول الدكتور زكي محفوظ في تحلية نصوصه هو "لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص"(2).

وقد انتشر هذا المديح في الشعر النيجيري الحديث انتشاراً كبيراً، إذ أسهم فيه -كما ذكر الباحث مرتضى إبراهيم- علماء صكتو من أمثال عثمان بن فودي، وعبد الله بن فودي، ومحمد بللو، ومحمد البخاري، وبعض أدباء يوربا من أمثال الشيخ محمد الأمين بن عبد القادر الصارمي، وبعض علماء كانو من أمثال أبي بكر عتيق الكنوي، والشيخ محمد الناصر كبر، وبعض علماء كشنة مثل الشيخ الحاج إلياس بن محمد تكر الكشناوي، كذلك أسهم فيه أدباء زاريا من أمثال الشيخ شئت بن عبد الرءوف، وبعض علماء برنو من أمثال الشيخ أبي الفتح، والشيخ شريف إبراهيم صالح وغيرهم(3).

لقد أبدع أولئك الشعراء جميعاً نصوصاً كثيرة في مدح النبي (وفي إجلاء شمائله والترضي على عترته المشرفة، وجاءت بالطبع متفاوتة في قيمها الفنية، متباينة في قوتها الإبلاغية والبلاغية، ولكنها في الجملة مجلى لعواطف وأحاسيس صادقة.

وإن من أقدم النصوص التي وصلتنا من شعر الاتجاه الإسلامي النيجيري والمعبرة عن تلك الأحاسيس النفسية والروحية، القصيدة الدالية المشهورة للشيخ عثمان بن فودي التي تضمن مطلعها التشوق لزيارة الرسول ﷺ (4).

---

(1) سورة آل عمران، الآية : 31.

(2) المدائح النبوية في الأدب العربي، 17.

(3) المدائح النبوية عند بعض علماء زاريا.

(4) الثقافة العربية في نيجيريا.

هل لي مسير نحو طيبة مسرعا لأزور قبر الهاشمي محمد

وقد جعل الشاعر هذه القصيدة مظهراً لأشواق روحه الوامقة، ومعرضاً لحبه الصادق لهذا النبي العظيم، الذي حلاه بتحليات مناسبة لقدره، إذ جعله شمس الضحى، وتاجَ الهدى، وبدرَ الندى، والوابل الهطَّالَ، ومن أبياتها الواصفة لخلجات وجدانه قوله فيها(1) :

قد كدت شوقا أن أطير لقبره ما لي سرور دون زورة سيدي

شمس الضحى تاج الهدى بدر الندى لا خير إلا في اتباع محمد

هو وابل عمَّ الأنامَ عطاؤه بل كل خلق الله دون محمد

لو سرت طيبة نلت غاية مطلبي متعفِّرا في ترب نعل محمد(2)

تأتي بعد هذه القصيدة ـ زمنيا ـ القصيدة الهائية التي قالها الأمير محمد بللو، يمدح فيها النبي ﷺ، والتي وصفه فيها بالطهر والنقاء وإغاثة الملهوف(3) ومطلعها :

أيا طاهر الأوصاف يا طيب الحلا ويا غوث ملهوف طريد وملجاه

وقد وظف الشاعر أبيات القصيدة أو جملة منها في أن ينصره في دعوته وإصلاحه.

ولمحمد بللو قصيدة مدحية ميمية في تعظيم الذات المحمدية مطلعها :

لأحمد في قلبي زفير غرامي يفور عليه بالجوى وأوام

ومن هذا الشعر الجيد في معناه ومبناه ما قاله الشيخ أبو بكر عتيق في ديوانه المسمى " **هدية الأحباب والخلان**" ضمن قصيدته "مفتاح الأغلاق في مدح حبيب الخلاق".

ومن الشعراء الذين أكثروا من هذا المدح الشريف، وأبانوا عن شدة التعلق بذاته ﷺ، الشيخ محمد الناصر كبر الذي أبدع ونظم نصوصاً كثيرة في الإشادة بعظمته وفضله، والتشوق إلى تربته وقبره.

---

(1) الثقافة العربية في نيجيريا.

(2) راجع أدب العليات في أدب المغاربة والأندلسيين في كتاب فتح المقال في وصف البغال، لأحمد المقري.

(3) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا، 957.

الشعر الصوفي:

ليس من قصدنا أن نقف هنا لنُعرِّف التصوُّف ومادةَ اشتقاقه وأصوله، والحديث عن أعلامه[1]، وإنما نقول كلمة مختصرة وهي أن التصوف المراد هو علاقة انقياد العبودية لأوامر ونواهي الربوبية، أو كما جاء تعريفه في عوارف المعارف " التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعملٍ مع اتباع"[2].

وقد اشتهر متصوفة ومتأدبون من شعراء العربية والإسلام من أمثال الحلاج، ومحيي الدين ابن عربي، والنضري، وأبي الحسن التستري، وابن الفارض، والبرعي، وحافظ الشيرازي، والبوصيري، أبدعوا شعراً في تصوير حبهم وانقيادهم وطاعتهم، وأثرت أشعار كثيرة رائعة، بهرت من جاءهم بعدهم من أهل الأذواق فاهتدوا بها واقتدوا في صوغ الشعر، يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي: "للصوفيين على اختلاف طبقاتهم، وعلى مرِّ العصور أدب إسلامي رفيع، ومجال واسع في الشعر والنثر، وباع طويل في كل أغراض الأدب وأخيلته وأساليبه"[3].

وما من ريب في أن الشعر الصوفي يشكل مادة ضخمة في سياق الاتجاه الإسلامي في الشعر النيجيري الحديث، ومردُّ ذلك -كما لا يخفى- إلى تغلغل الإسلام في النفوس، وإلى أن معظم الشعراء ينتمون إلى طرق صوفية روحية متعددة، تحدث عنها صديقنا الدكتور شيخ عثمان كيرا في الجزء الثاني من رسالته القيمة للدكتوراه "الشعر الصوفي في نيجيريا" فأشار إلى أن أهم تلك الطرق إنما هي القادرية، والتيجانية، والمهدية، والعروسية، والسنوسية.

كما أشار أيضا إلى بعض شعراء تلك الطرق، وبخاصة شعراء القادرية، وقد تناول هؤلاء الشعراء الصوفيون عدداً من الموضوعات تتصل باهتماماتهم الروحية الغالبة على حياتهم، مثل الدعوة إلى التخفف من أعباء الدنيا، والتزهيد

---

(1) راجع في ذلك: كمال جعفر، التصوف، وسمير عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، وأبو العلاء عفيفي، التصوف، وعمر فروخ، التصوف في الإسلام، وحسن عاصي، التصوف الإسلامي.

(2) عوارف المعارف، 63.

(3) الأدب في التراث الصوفي، 63.

فيها، والإقبال على ذات الله تعالى، ومناجاته، وطلب العفو والرضا والرأفة منه، ومثل السعي إلى التوسل بالرسول ﷺ والتشفع به، والحديث عن المقامات، ومدح شيوخ طرقهم الصوفية، والعارفين بالله من عباده الصالحين، وسنجتزي من الحديث عن ذلك بطرف دال على تلك الموضوعات والمضامين الصوفية عند شعراء نيجيريا المحدثين.

أ) المناجاة الإلهية:

وشعر المناجاة الإلهية يراد به الحب الإلهي المشار إليه في الآية القرآنية ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [1] والمراد به انعطاف قلب العبد بطاعته، واجتناب نواهيه، والانقياد لأوامره، وهذا ما عبر عنه ذو النون المصري بقوله: هو سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا يكون فيها إلا المحبة، وتكون الأشياء لله وبالله.

وهذا المعنى شائع في شعر المتصوفة من أهل الرقائق وأهل الحقائق عبر العصور، ويبدو لنا في نصوصهم ونصوص الشعر النيجيري في الأشعار التي يجلو فيها الشاعر عظمة الله تعالى، وجلاله وجماله، وفيها يلوذ بحضرته وعظمته مستعيناً مستغيثاً، مظهراً ذله وضعفه أمام جبروته، راجياً مستنصراً بقوته، مبدياً شوقه الروحي العارم.

والحب الإلهي أو المناجاة الإلهية ـ كما أسلفنا ـ غرض قديم وأصيل عني به الشعراء منذ القدم، وقد اطلع شعراء نيجيريا على تلك التجارب الذوقية فتأثروا بها وصاغوا على منوالها.

ومن النصوص التي نقرأها لهم في هذا الباب القصيدة المسماة "المستجابة" للأمير محمد بللو بن عثمان بن فودي، والتي يناجي فيها ربه سراً وجهراً، ويرتمي في واسع رحمته ليرجو تحقيق أمانيه: [2].

---

(1) سورة المائدة : الآية : 54.

(2) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، 951.

أناديك يا مولاي في السر والجهر بأسمائك الحسنى السنية كالدر
لتكفينا من كل سوء وفتنة وترزقنا رزقا كفافا مدى الدهر
إلهي ومولاي ترى ما العدا سعوا وكادوا به فينا من الكيد والمكر
فكد يا إلهي كل من رام كيدنا وخذه إذا يبغي علينا على قدر
فنصراً عزيزاً يا إلهي لقومنا فمنك نرجّي الفوز باللطف والنصر
أغثنا أغثنا أنت مالك أمرنا وعجل بيسر لا يعقّب بالعسر
ويسر لنا يا رب نصب دعائم من الشرع في هذي البلاد على الفور

ومن هذه النصوص ما قاله الحاج محمد النفاخ في بائيته معظما الذات الإلهية ومناجياً إياها ضعفه وعبوديته وعجزه، ليحظى منها بالرضى والقرب والقبول :[1] .

أتيت بابك يا مولاي ذا هرب والقلب منكسر ومنك ذا رهب
أتيت بابك مضطراً ومفتقراً إليك فانظر لقلب فيك مكتئب
قد كنت في أسر نفسي والهوى فعلى مثلي يحق البكا من كل منتحب
فاصرف عنان هواي عن سواك إلى هواك دوماً فيا ذا القهر والغلب

كذلك نجد من الشعراء الذين أحبوا الله، وأكثروا من مناجاته في شعرهم الشيخ محمد الناصر كبر، الذي أبدع في ذلك نصوصاً قصيرة دالة على ذلك الحب، وأخرى مطولة، ونورد من نماذجه القصيرة في هذا اللون قوله: [2].

ذكرتك لا أبغي بذلك جنةً ولا أتقي ناراً وأنت مراد
فإن كنت لي مولى فأية جنة وأية نار تتقى وتراد

ومن نماذجه المطولة قصيدته التي مطلعها :

إلهي يا إلهي يا إلهي إلهي يا مهيمن يا رقيب

---

(1) نيل البغيا من إنتاجات الشيخ يحيى، 26.
(2) م. ن، 97.

وقصيدته الأخرى التي مطلعها:[1] .

ذكـرتك لا أبغي سـواك ولا أرى لـغـيرك أيا كـان نفـعـاً ولا ضـرا

ب) التزهد :

وقد تناولوا في شعرهم فيه، كشعراء التصوف في العالم قديماً وحديثاً، التزهد في الدنيا، والتهوين من شأنها، وأنها دار فناء ومعبر إلى الآخرة التي هي خير وأبقى، فالعاقل الذي عاش فيها ورأى خداعها وزيفها، حري به ألا يغتر ببريقها الخداع، وألا يعطي جهده وطاقته في سبيل جمع حطامها المنقضي، وهي المعاني الدينية الإسلامية الواردة في الكتاب العظيم والسنة المطهرة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

ولم يرد هذا الشعر في قصائد مستقلة بذاتها، إنما يذكره الشعراء ضمن قصائدهم الدينية، سواء في النبويات أو الحب الإلهي، أو أشعار الغزو والجهاد، وذكر المغازي، وشعر الأمثال والإصلاح والتوجيه، ونحن نقتصر هنا على سوق أمثلة من ذلك.

يقول عمر الفوتي في قصيدته "تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين":

إن هذه الدنيا غرور باطل واعمل لدار دائم يا غافل

لا تطلبوا فيها سوى ما ينفع في الحال والمآل لا ما يودع

لا تطع النفس ولا الشيطانا تفلح وترضي ربنا الرحمانا

من ترك الدنيا لأجل الله ينال ما يشاء عند الله

وحاسبوا أنفسكم من قبل أن تحاسبوا يوم العقاب والفتن

ويقول الأديب البرناوي أبوبكر الملقب بالمسكين :

إياك إياك وخضراء الدمن فإنما الدنيا بلايا وفتن

وأنها أخدع من سراب وطالبوها أخسر الطلاب

---

(1) شعر الشيخ محمد الناصر كبر.

(2) سورة العنكبوت، الآية : 64.

ولا نريد الإطالة بسوق هذه الأبيات الكثيرة والمتناثرة في أشعار هؤلاء الشعراء، وهي في الجملة، كما ذكرنا، تزهد في بريق الدنيا وخداعها.

ج) التوسل والتشفع :

والمراد به الشعر الذي يذكر فيه ما يتقرب به إلى الله تعالى بما يحبه ويرضيه من الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين والأعمال الصالحة، وقد استشهد القائلون بالوسيلة بنصوص من كتاب الله في جوازه، كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]، وأوردوا في ذلك أدلة أخرى من السنة.

وقد شاع هذا التوسل والتشفع في الشعر الديني في الأدب النيجيري الحديث، فتوسلوا، طلبا لرضى الله تعالى وعطفه عليهم، بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبالأنبياء والرسل، والصالحين من عباده، وتشفعوا بمشايخ الطرق الصوفية من التجانية والقادرية والعروسية وغيرها من الطرق المنتشرة في بلادهم.

فمن التشفع بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، والأنبياء والرسل عليهم السلام، قول محمد بللو في القصيدة المسماة " المستجابة ":

أناديك يا مولاي في السر والجهر ... بأسمائك الحسنى السنية كالدر
وبالمصطفى الهادي الرشيد محمد ... وأصحابه والآل والتبع الغر
وبالأنبيا والرسل والملك والرضا ... وبالأوليا والصالحين أولى الأمر
لتكفينا من كل سوء وفتنة ... وترزقنا رزقا كفافا مدى العمر

والشعراء في هذا التوسل يُعْلُوْنَ من قيمة الرسول الكريم، ويرفعون درجته، لأنه المصطفى المفضل على سائر الرسل، على نحو ما نطالعه في قول الشيخ يحيى بن محمد النفاخ :

(1) سورة المائدة : الآية : 35.

(2) سورة الأنفال : الآية : 33.

صلني بأحمد خير خلقك من غدا ... في كل داء خير جالنيوس
سر الخليقة من حوى القلوب أهـ ... ل صفاء وذُكَ سر مغناطيس
صني به فيه النجاة بهذه الد ... نيا وفي يوم هناك عبوس
فيه نجا نوح وتيب عن آدم ... وبه ارتقاع المعتلي إدريس
ولقد نجا هود به مع صالح ... لوط شعيب أرميا جرجيس
نار الجليل خبت وكلم ذو العصى ... أحيا المسيح به أهل رموس

وهكذا تمضي القصيدة إلى عدد من الأبيات توسل فيها الشاعر بالنبي الكريم، نبي الرحمة، لأنه رأى فيه ما يرضي الله وما يحبه.

ومن ذلك تشفع محمد بللو في مرثيته التي قالها في عمه، فقد رأى أن خير ما يتشفع به ويتوسل في أن يجعل الله الفقيد من أهل القبول، جاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:[1].

سقى الله الكريم ثرى إمام ... ونيل القرب من رب السماء
بجاه محمد كهف البرايا ... شفيع الخلق بين الأنبياء
صلاة الله مع أزكى سلام ... عليه وآله أهل الصفاء

د. شعر الإصلاح والتوجيه:

كذلك يندرج ضمن الأدب الديني أو الشعر الإسلامي في دواوين شعراء نيجيريا المحدثين ما يطلق عليه شعر الإصلاح والتوجيه، ونعني به الشعر التربوي التهذيبي، أو شعر الحكمة والأمثال، ومن نماذجه المختارة ما قاله عبد الله بن فودي في حائيته[2]، ومن أبياتها:

ولا تخش في إظهار دين محمد ... بقولة قال تأتسيه كنائح
ولا تخش تكذيبا وإنكار جاحد ... وهزء جهول ظل والحق صابح
وليس لما تبني يد الله هادم ... وليس لأمر الله إن جاء ضارح

---

(1) حوكة اللغة العربية وثقافتها في نيجيريا.
(2) الثقافة العربية في نيجيريا.

وما قاله الشيخ عمر الفوتي في "تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين"، وهي منظومة حافلة بالتوجيه، ومن أبياتها:

يا أيها الإخوان لا تشتغلوا بالمال والبنين خيرا اعملوا

إذ هذه الدنيا غرور باطل واعمل لدار دائم يا غافل

وللأديب البرناوي الملقب بالمسكين نصوص متعددة في هذا الباب، وظفها للحكم والأمثال، والتوجيه والإصلاح، نجتزئ منها بهذه الأبيات

ومن تمنى أن يكون أكرما فليتق الله يكن مكرما

ومن أطاع النفس والشيطانا أضاع حق الله والإخوانا

ولا تمدن إلى المعالي يدا تقاصرت عن النوال

من طلب العلم لوجد الحق تكفل الله له بالرزق

هـ) شعر الجهاد وذكر المغازي:

منذ أن ظهرت الحركة الإصلاحية الإسلامية في صوكتو من شمال نيجيريا، سعت جماعات الكفر والوثنية في القرن التاسع عشر إلى محاولة محاصرة هذه الحركة، وإلى التضييق على زعاماتها، مما اضطر الشيخ عثمان بن فودي إلى توجيه انتقادات لاذعة للتصرفات الاستبدادية الجائرة لملوك بلاد الهوسا بصفة عامة، والملك "يونفاباوا نفاتا" ملك "غوبر" على وجه الخصوص[1]، وهو الذي حاول اغتيال الشيخ عثمان وتصفية أتباعه، ولكنه نجا من كيده بأعجوبة، فحمله ذلك على جهاد هذا الملك، ومقاتلة غيره من الوثنيين، ودخل معهم جميعا في معارك وحروب ضارية [2].

ولم يقف أمر الجهاد ضد أعداء الدين عند هذا الحد على عهد الشيخ عثمان، بل امتد بعده في عهود خلفائه الذين قاتلوا أولئك الأعداء، واتسع جهادهم فيما بعد ليشمل الجهاد ضد المستعمرين الأوربيين الإنجليز في زمن إمارة أمير المؤمنين محمد بللو، وزمن أخيه أبي بكر العتيق، وعهد علي بابا نجل محمد بللو.

---

(1) إفريقيا والاستعمار الأوروبي، 49.

(2) م. ن.

لقد نهض أبناء الشيخ عثمان وأحفاده بدور بطولي ضد الوثنيين والاستعمار البغيض الذي تكالب بحقده على مناطق الدولة الإسلامية ابتداء من الربع الأخير من القرن التاسع عشر[1].

ولا خفاء في أن الشعر قد نهض أيضا بدور إعلامي وتحريضي مماثل للدور العسكري، فقد صور بعض الشعراء أشكالا من تلك المواجهة مع الوثنيين والمسيحيين المستعمرين، ولئن لم يصلنا شعر الجهاد وذكر المغازي قدر كبير، بسبب الحروب والفتن فقد وقفنا على نصوص منه، تبين عن ملامحه.

من ذلك شعر الأمير محمد بللو الذي قاله بعد غزوة كنو، وهو الشعر الذي يفخر فيه ببلاء جنده وشجاعته، وانتصار الدين على الكافرين، والقصيدة، كما سنرى تحفل بالحركة والحيوية:

سائلوا عنا وعن أعدائنا ... يوم دار الحرب في كنو الأغر
قد تركناهم بها مثل الهبا ... أو كأحطام هشم المحتضر
إذ زحفنا لهم وقت الضحى ... بجنود كجراد منتشر
وكأن الخيل في أرجائها ... حدأ تخطف أشلاء البقر
فلقيناهم وأوغلنا بهم ... برماح وسهام كالمطر
واشرأبوا فرمينا مثلها ... فأقمنا هكذا حتى الظهر
فدعونا يا نزال للوغى ... فدخلنا حصنهم وقت العصر
فسقيناهم منايا فرووا ... فهم مثل جذوع منقعر

كذلك وصف شقيقه محمد البخاري العديد من المعارك اللاهبة والوقائع الطاحنة، مثل وقعة "غوبر"، ووقعة "كداي"، ووقعة "أبر"، فأجاد الوصف والتصوير.

يقول في تصوير معركة غوبر: [2].

---

(1) م.ن،49.

(2) شعر محمد البخاري، من خزانة أمير كنو، 231.

ألا من مبلغ عني كلامي لقومي بعد توفير السلام
بأنا قد أتينا أهل غوبر بجمع فيه آساد التحام
كرام من بني روم بن عيص وعقبة قد كفانا من الملام
نقودهم بتدبير ووعظ وتشويق إلى دار السلام

وتحدث الشاعر بعد تلك الفاتحة عن موعد المعركة وكثرة الجيوش:

إلى أن قد أتينا بعد ظهر ديار القوم في لجب لهام
فصفوا واستعدوا ثم طاروا علينا بالرماح وبالسهام
قتلنا منهم ما ليس يحصى وأُبْنَا بالغنيمة والسلام

ويقول واصفاً معركة "أبر" ورباطة جأش جيشه:(1)

مقاديم في الروع لا ينكصون إذ الخيل جالت بهم في العوال
بأيمانهم مرهفات طوال وبيض رقاق وزرق تصال

كما وصف نفسه بين جموع جنده بقوله :

إذا قيل من للندى والخطوب أشارت إليه أيادي الرجال
وقاد الجيوش وساد الشيوخ غلاما بحلم وحسن الفعال
فمن مثل سيدهم في الحروب ومن مثله في اكتساب المعال

2. المدح :

لقد تبين مما ذكرناه سلفاً أن أغلب شعراء نيجيريا في الولايات المذكورة في القرنين التاسع عشر والعشرين ينتمون عقدياً إلى الإسلام وإلى طبقة المصلحين والأمراء المسلمين، وينتمي أكثرهم إلى طبقة العلماء والفقهاء والقضاة وشيوخ الصوفية وطرقها المتعددة.

ومن هنا تأثر فن المدح عندهم بهذه النزعة الوقورة المحافظة، بعيداً عن آفات الغرض والهوى، وخاليا من آفة التكسب، بل بدا في جل نصوصه المدحية للعلماء والفقهاء والمجاهدين والأعيان المحترمين، مشيداً بالفضائل النفسية

(1) م. ن، 232.

للممدوحين، منوها بخصالهم المعنوية، وواصفاً ما تحلو به من مثل وقيم، ومن أبرز الشعراء الذين تناولوا هذا الغرض وأبدعوا فيه الأمير محمد البخاري، وأبوبكر عتيق، ومحمد الناصر كبر.

فقد مدح الأمير محمد البخاري، وهو من شعراء الطراز الأول، عمه العالم الأديب الشيخ عبد الله بن فودي، بقصيدة لامية مطولة، أظهر فيها صادقا مناحي العظمة في شخصيته، وقد بدأها بفاتحة طللية تقليدية، جرى فيها على عادة الشعر العربي في عصر ما قبل الإسلام، ذكر فيها المنازل والديار، ووقف فيها مستخبرا الرسم والطلل.

أصحوت أم هاجت هواك منازل عفا معارفها البلى وهواطل
بتلاع ثامي أو بجن فما بها إلا نعام ترتعي وفراعل
دار عهدت بها الحلول وكل من أهوى معي والعيش غض باجل
ولقد وقفت برسمها مستخبراً عن أهلها والدمع مني سائل
لله درك هل وقوفك نافع برسومها أم هل لدمعك طائل

ثم خلص من تلك الوقفة الطللية التقليدية إلى غرضه الرئيس :

فدع الديار وذكر أخدان الهوى وخرائد في مشيها تتمايل
واسلك طريق أولي الهداية واغتنم فرصا تمر وأنت عنها غافل

ودعا بعد حسن التخلص، إلى التمسك بالصفات التي اشتهر بها شخصية عمه عبد الله بن فودي، وهي الزهد في الدنيا، وطلب السيادة بالعلم والجد والتحصيل، وهذا المنحى من التمهيدات الشعرية الرائعة، ومضى الشاعر بعد ذلك إلى رصد الممادح في الممدوح، وأشار إلى علمه الواسع، وعنايته منذ صغره بالتحصيل والتأليف، وإلى شدته وحزمه في الكبر والرجولة.

شيخ العلوم خديمها تباعها خدن التقى الحبر النبيل الكامل
علم الهدى سعد الزمان عماده حانٍ رفيق بالأنام حلاحل
ذو شدة في دينه متواضع ذو هيبة برٌ أمينٌ عامل
علامة القرآن حاوي السبق في علم الحديث وللبلاغة كافل

ولا خلاف، من حيث المنهج المعياري والتنظيري، في أن شرط مدح الرجل بما هو فيه أصل نقدي مهم، لا يزال يعول عليه النقاد المعاصرون في فن المدح، وهو الأصل النقدي الذي أبدعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في نقده لشعر زهير بن أبي سلمى[1]، ومما يذكر لمحمد البخاري أنه التزم بهذا الشرط في النص السابق، وفي مدحه لصديقه محمد الجيلاني[2].

ومن أمداح الشعراء النيجيريين ما قيل في الثناء على شيوخ الطرق الصوفية الكثيرة، مثل القادرية والتجانية والعروسية، مثل مدح أبي بكر عتيق في الشيخ أحمد التجاني، وله في ذلك نصوص كثيرة. ومن روائع الأمداح ما قاله الشيخ يحيى النفاخ في الشيخ المذكور، ولقد قيل في شيوخ القادرية شعر مدحي كثير، نذكر منه ما قاله محمد بللو بن أبي بكر كنوا القوراوي الصكتي في مدح الشيخ محمد الناصركبر:

هو العارف البحر المحيط حقيقة   وأنى تجاريه مياه الركية
أحاط علوما بالشريعة وارتقى   فكيف يداني موج بحر ببركة
فتى عارف بالله قبل بلوغه   مجلي على الأقران في كل غلوة
إلى أن فنى في الله جل جلاله   فذاك فنى عن أن فنى في المحبة

والمدح في هذا الشعر لم يكن مقصوراً على الشخصيات النيجيرية من حكام وأمراء وأعيان وعلماء وأدباء فحسب، بل شمل في عدة نصوص منه شخصيات غير نيجيرية، فقد مدح الإمام الشيخ محمد عبده من مصر بقصيدة من الشاعر عمر إبراهيم، وبأخرى من أحد الشعراء المتأخرين[3]، ومدح الشيخ إبراهيم نياس من السنغال بعدة قصائد منها قصيدتا يحيى النفاخ، وقصيدة محمد الناصر كبر[4]، كما مدح أحمد أحمد أبو السعود من تجار السودان بقصيدة من الشيخ يحيى النفاخ، ولهذا الشاعر مدح في بعض شيوخ شنقيط وفاس وأشرافهما[5].

---

(1) راجع تاريخ النقد عند العرب، بدوي طبانة.
(2) شعر محمد البخاري، في خزانة أمر كنو.
(3) الثقافة العربية في نيجيريا، 581.
(4) نيل البغيا، 69,95,94 ، شعر الشيخ محمد الناصر كبر.
(5) ملامح من ديوان الشيخ يحيى بن محمد النفاخ، محمد الأول أبوبكر.

فقد مهد الشاعر عمر إبراهيم لمدح الشيخ محمد عبده، والثناء على إصلاحه بحالة الضعف والركود الفكري الذي كان سائدا في القرن الرابع عشر الهجري، وكيف ضاق العقلاء من أهل الإسلام بحالة التقهقر، ورفعوا عقائرهم مستنجدين بالله في أن يرزقهم بالداعية المصلح، والإمام الموجه، فاستجاب لهم ببعث هذا المجدد المسلم.

لذاك قد أحاط بالإ سلام حال أجحد
فالناس إما نائم أو يقظان أمرد
دعاؤهم قد ارتقى إلى السماء يصعد
إذا نداء من عل أنت لها محمد
فأنت رمح الله أو فيصله المهند
مرشدك القرآن وال سنة حين تسند

ومن روائع اللقطات في وصف الممدوح في هذه القصيدة، التفات الشاعر إلى تلك المواقف الرائعة التي برز بها محمد عبده في ردوده العلمية والعقلية على المستشرقين "هانوتو" و "رنيان" اللذين طعنا في الإسلام، فكان لرده عليهما أطيب الأثر في الدحض والإقناع.

تقطع بالحجة لا بالحد شركا يرد
ترصد رنيانا كما يرصد شاة أسد
ترصد هانوتو اللد ود نعم هذا الرصد
فأنت برج للهدى موطد مشيد

فما من ريب في أن الشاعر بهذا التوصيف يحدد صفات الممدوح، ويدل على معالم شخصيته الخاصة كما عرفها المعاصرون له والمقربون منه، ويخرج في مدحه من طابع التعميم غير المقبول والأوصاف الفضفاضة، ومن ملامح هذا التحديد قوله أيضا في بيان أن شخصية محمد عبده تجمع بين الشرع والعقل، وكيف كانت دعوته في جمعية العروة الوثقى سبيلا للنهوض بأحوال المسلمين(1).

---

(1) الثقافة العربية في نيجيريا، 581.

وفقت بين الدين والعـ قل اسـتـقـام الأود
فـأنـت فـيـه قـائـد والقـائـد المنفـرد
والشرق يخطو خطوة إلـى الأمـام يعـمـد
بالعروة الوثقى جمعـ ـت شـملـهم مـحـمـد
أيقظتـهـم مـن رقـدة غـطيطـهـا مـنـدد
أديت أمـرا واجـبـا يرضى عليك الصـمـد

هذا وقد تعرضنا في بحثنا المطول الذي اخترنا من هذا الغرض لاستقراء باب الرثاء وباب الفخر وباب الشكوى والعتاب وغيرها، فوقفنا من خلالها على التزام هؤلاء الشعراء بالشرائط المطلوبة في كل باب، مع التزامهم بالقيم والمثل الإسلامية التي تَسِمُ الأشعار فيها بميسم الاتجاه الإسلامي وطوابعه.

ثانيا: الخصائص الفنية:

بإجمال يمكننا القول إن الشعراء النيجيريين قلدوا في شعرهم العربي، العرب في أوزانهم وقوافيهم، واستخدموا في أشعارهم الوحدات الموسيقية "التفعيلات" ولاذوا بالأوزان الخليلية، الأوزان القصيرة، والأوزان الطويلة، وذلك ظاهر فيما عرضناه، وفيما لم نتمكن من عرضه، وعولوا كثيراً على البيت المغلق، واستخدام القوافي المختلفة، والتزموا بها في قصائدهم، اتباعاً لبعض شرائط عمود الشعر الذي فصل القول فيه الإمام المرزوقي.

ولا يعني ذلك أنهم لم يستخدموا الأوزان المستحدثة، فقد استخدموها ولكن بندرة وقلة ملحوظة، فقد تأثر عمر إبراهيم في موشحه " الكون ممات لولا الحب" بهيكلية الموشح الأندلسي، إذ جعل له مطلعاً أو مذهباً، ثم جعل هذا المطلع بل صدره ملتزما مع التغير في الشطر الثاني، ليكون قفلا، ثم أتبع ذلك بما يسمى في الموشح بـ" الدور"، وأمثل ذلك بقوله:

مطلع:

يا حبيبي يا حبيبي اصغ سمعا للحبيب

الدور:

هل أتاك اليوم إني صرت عظيما في الشعارِ
ذهب اللحم بخاراً صاعداً من حر نار
ماثلا فوقي سحاباً لا أرى ضوء النهارِ
وهو لا ينزل مطراً أو يراك بجواري

قفل:

هل تبالي بنحيبي يا حبيبي يا حبيبي

وهكذا هذا الموشح الطويل، إلى أن أتمه بـ " الخرجة"، وهي قوله:

يا حياتي يا خلودي في مآبي المستطاب

وعلى ذلك جاء موشحه تاماً، وليس أقرع[1]، بيد أن هذا التقليد للأندلسيين في هذا الفن المستحدث قليل ونادر في الشعر النيجيري، وربما الذي تم تقليدهم لهم فيه في الاتجاه الإسلامي في هذا الشعر ما شاع في شعر الأندلسيين المتصوفة والزاهدين من استخدام لازمة "صلوا عليه وسلموا تسليما" عقب كل بيتين، على نحو قول مالك بن المرحل الأندلسي:[2].

ألف أجل الأنبياء نبي بضيائه شمس النهار تضئ
وبه يؤمل كل محسن ومسئ فضلا من الله العظيم عظيما

صلو عليه وسلموا تسليما

فقد جاراه الشيخ محمد الناصر كبر، أو جارى هذا الأسلوب الأندلسي في قصيدته التي مطلعها:

الحمد لله الذي منا حبا محمد أَعْنِي الكريم الأطيبا
خير الورى نسبا وخيرهم أبا ولذلك كان السيد المعلوما

صلو عليه وسلموا تسليما

(1) مراجع الأدب العربي في الأندلس، 339.
(2) مالك بن المرحل أديب العدوتين، 354.

وعلى الرغم من شيوع "العشرينيات" لأبي زيد في بلاد نيجيريا منذ القديم، فإن هؤلاء الشعراء لم يوفقوا في مجاراة هذا الشعر المبني في كل وحدة من وحدات حروفه الثمانية والعشرين على عشرين بيتا، يبتدئ كل بيت منها وينتهي بالحرف نفسه، كما لم يجاروا المعشرات، وكلاهما ضرب من الشعر الأندلسي المستحدث، كان من أبرز شعرائه في الأندلس، الفازازي ومالك بن المرحل.

على أن الضرب الذي أكثروا من ممارسته والقول فيه إنما هو المخمسات أو التخميس، فلقد أثرت لهم فيه نماذج كثيرة، وقصائد وفيرة، نذكر من ذلك هذه المقاطع من تخميس الشاعر مصطفى بن الحاج عثمان لقصيدة عبد الله بن فودي الحائية التي يقول فيها[1].

ألا يا خليلي صدقتك الروائح　　علمت يقينا هيجتك النصائح
ولكن لهت عنها النفوس الجوائح　　طربت فأشجاني الطيور الكوالح
وفرحني منها الغيوث الروائح
ضحكت فأبكاني غراب يصايح　　سررت فأشجاني الطيور النوائح
مرضت فأشجاني فحول نواطح　　وخوفني أيضا ذئاب بوارح
وأمنني منها الظباء السوابح

وهو تخميس طويل أحاط فيه بأبيات قصيدة ابن فودي المشهورة.

ومن الذين أكثروا في صياغة هذه التخميسات الشيخ أبوبكر عتيق في ديوانه "**هدية الأحباب والخلان**"، فله فيه تخميس تحت هذه العناوين "ترحيب وتوديع"، و"الغرر البهية في استعطاف خير البرية"، و"مفاتيح الأقفال في التوسل بأكابر الرجال"، و "المواهب الأحدية في مدح الحضرات المحمدية"، و"المدد الرحماني في مدح سيدي أحمد التجاني، والتوسل إلى الله به وبأكابر أصحابه ذوي القرب والتداني"[2].

---

(1) الثقافة العربية في نيجيريا، 541.

(2) هدية الأحباب والخلان، 196,186,181,154,106.

ومن شعراء نيجيريا المتأخرين الذين عالجوا هذا اللون من أشكال الشعر، أعني المخمسات، الشاعر محمد الناصر كبر، قال رضي الله عنه مخمسا قصيدة الشيخ أبي بكر عتيق سنكا كنو، المعنونة بـ "المواهب الأحدية في مدح الحضرات المحمدية" :[1].

يا أشرف الخلق يا أعلى الورى عرفا   يا أكرم الخلق يا أسمى الورى شرفا

يا أعظم الخلق يا أوفاه مغترفا   يا رحمة الله يا من قد رمى فصفا

ونال ما ليس يدريه الذي وصفا

أتى لبابك المضطر مرتجيا   الناصر الكنوي يشدوك مستحيا

يقول ما قال عتيق منك مجتديا   أزكى صلاة وتسليم عليك أيا

مشكاة مصباح رب العرش يا صدفا

ومن أروع التخميسات ما قاله الشيخ عمر بن محمد الأمين الكانمي الذي وضع كتابا في تخميس قصيدة " نسيم الصبا"[2]، قال الدكتور علي أبوبكر " وتدل هذه القصيدة على شاعريته"[3].

وخلاصة ما لاحظناه عن طبيعة الألفاظ، والتعابير المستعملة في شعر هذا الاتجاه، أن شعراء هذا الأفق مالوا في غالب النتاج الشعري، بباعث من رسالتهم العقدية في الإبلاغ والإيصال، إلى البعد عن التصعيب في تداول الألفاظ، وجنحوا إلى استعمال المأنوس من التعابير والتراكيب على نحو ما مر بنا في النماذج الكثيرة التي استشهدنا بها، وهذا لا ينفي بالطبع وجود بعض القصائد الحوشية الغامضة التي مال فيها أصحابها إلى الإغراب والتعمق، قصدا منهم لإظهار مخزونهم اللغوي، أو مجاراة الفحول من الشعراء على نحو ما نقرؤه في قصيدتي الشيخ عبد الله بن فودي " الجيمية"، و" الحائية"[4]، أو في بعض قصائد الأمير محمد البخاري، وخاصة قصيدته " السينية"[5].

---

(1) شعر الشيخ محمد الناصر كبر، 98.

(2) الثقافة العربية في نيجيريا، 294.

(3) م.ن.

(4) م.ن، 533.

(5) م.ن، 541.

وقد حرص هؤلاء الشعراء على أن يزينوا أشعارهم في مختلف الأغراض بالتصوير البلاغي الذي يزيد الشعر وضوحا، ويضفي على لوحاته رونقا، ولكنهم لم يبالغوا ولم يكثروا من هذا الاستخدام، فاستعملوا التشابيه والاستعارات والكنايات، ومن علم البديع القديم التلميح الذي اصطلح المعاصرون على تسميته " الاستدعاء"، واستعملوا الاقتباس والتضمين والمبالغة والطباق. أما ألوان البديع المستحدث الذي ظهر في شعر أدب الدول المتتابعة، فقد استعملوا شعرا أو شكل الدائرة في الشعر، وهو الذي يسمى " المدور"، وبنى بعضهم أوائل أبيات قصائده على حروف آية من الآيات، مثل قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[1]، أو قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2]، وقوله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [3].

وصفوة القول المستفاد من هذا البحث المعتمد على مجرد المنهج الوصفي، إن الشعر العربي الحديث في نيجيريا، أو بعبارة أخرى، إن شعر الاتجاه الإسلامي في هذه البلاد، يؤرخ لظهوره وبدئه مع ظهور الحركة الإصلاحية الإسلامية التي نهض بها الشيخ عثمان بن فودي، والأسرة الفودوية في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وإنه تفاعل من خلال القرنين الماضيين، مع تعاليم الإسلام وقضاياه ومع عقيدته ورؤاه، وسار شعراؤه من منطقهم العقدي في مسير طبائع الشعر والأدب العربي الإسلامي، من حيث المضامين التقليدية مثل المدح والرثاء والوصف والهجاء والشكوى والحنين والعتاب، والمضامين التي جدّتْ بظهور الإسلام، مثل الشعر النبوي والأمداح والحب الإلهي، وذكر المقامات والتشفع والتوسل.

وقد استطاع هؤلاء الشعراء في المدائن الإسلامية النيجيرية مثل صوكتو وبرنو وكشنه وكانو وزاريا وغيرها من المدن، وجلهم ينتمي، كما ذكرنا، إلى طبقة المصلحين والأمراء والفقهاء والقضاة، وإلى طبقة المثقفين الذين تشربوا روح الدين القويم، أن يطوعوا تلك المضامين الشعرية المختلفة التقليدية والجديدة لهذه

---

(1) سورة البقرة، آية : 257.

(2) سورة آل عمران، آية : 68.

(3) سورة آل عمران، آية : 173.

الروح الدينية، فجاء عطاؤهم الشعري مكتنزا بالقيم الشعورية والفكرية والفنية، ملتزما بقضايا الدين والأمة معبرا عن الخوالج الشخصية والغيرية، متسما - كنصوص الأدب الإسلامي بعامة- بالعفة والطهر، بريئا من الفحش والانحراف والعبثية، ومن جميع ما قرأناه من شعرهم تشكل مظهر هذا الاتجاه الإسلامي في الشعر النيجيري الحديث.

وقد تأثر شعراء نيجيريا المحدثون بأشعار العرب، والشعر ديوان العرب، من حيث مظهرية بعض الأشكال والصياغة والتراكيب، على نحو ما تأثروا من حيث المضامين، وعلى الرغم من ضآلة صلة الكثير منهم بالتراث العربي الواسع، وشعر الشعراء المشاهير في مختلف العصور الأدبية، حسبما ذكر ذلك الدكتور شيخو سعيد غلادنثي، فإن جملة منهم تفتحت على بعض مناحي التراث، المتمثلة في شعر بعض شعراء الجاهلية، وشعر صدر الإسلام، وبعض شعراء الأمويين والعباسيين، على نحو ما طالعناه في شعر عبد الله بن فودي ومحمد بللو ومحمد البخاري ويحيى النفاخ وأبي بكر عتيق، كما تأثروا بشئ من أشكال الشعر الأندلسي، وشعر الدول المتتابعة فيما ذكرناه من أشكال المخمسات والموشح والشعر الهندسي.

تلك هي جوانب التأثر في هذا الاتجاه من حيث المضامين والخصائص الفنية.

على أن الملاحظة التي تقرر في هذا الملمح أن هذا الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي الحديث في نيجيريا، لم يكن، على الرغم من تحقق ارتباطه بوشائج مع التراث القديم، على صلة وجدل ثقافي مع مظاهر تطور الشعر العربي الحديث في العالمين العربي والإسلامي، فغاية ما انتهى إليه من تلك الصلة، الاستمداد من أدب الدول المتتابعة، إذ لم نجد، من خلال الأشعار التي وقفنا عليها، أثرا لتفاعل شعرائه مع الاتجاهات والتيارات التي عرفها شعراء العربية المحدثون منذ القرن التاسع عشر مثل اتجاه البعث والإحياء، التي يمثلها في مصر محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وفي العراق الزهاوي، والرصافي، والكاظمي، وفي الشام شفيق جبري، وخليل مردم، والزركلي، ومحمد البزم، أو جماعة الديوان التي يتزعمها عبد الرحمن شكري، وعباس محمود العقاد، وجماعة أبوللو التي كان من شعرائها أحمد زكي أبو شادي، وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، بله جماعة المهجر الشمالي، والمهجر الجنوبي.

ومـا من ريب في أن الاستعمار الانجليزي البغيض كـان له الدور البـارز في تغريب اللغة العربية عن هذه الديار، وفي فصل هؤلاء الشعراء وعزلهم عن تيـار الحركة الفكرية والأدبية الإسلامية، وتغييبهم عن تراث أمتهم.

وربمـا أفضت بنا هذه الملاحظة إلى القول إن شعراء ما قبل الاستعمـار في القرن التاسع عشر، كانوا أكثر قربا من التراث، وأشد دنوا في القدرة على محاكاة الأشعار العربية القديمة من حيث المحتوى والإطار، مما جعل شعرهم أقوى نسجا، وأمتن ديباجة من شعراء القرن العشرين.

المصادر والمراجع

أولا : المطبوعة

الأدب العربي في الأندلس

للدكتور عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، 1976م.

الأدب في التراث الصوفي

للدكتور عبد المنعم خفاجي، القاهرة، مكتبة غريب.

الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني

لآدم عبد الله الألوري، د. ب، د.ط، د.ت.

التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة

للدكتور إبراهيم هلال، مصر، دار النهضة العربية، 1979.

التصوف الإسلامي مفهومه تطوره ومكانته

للدكتور حسن عاصي، لبنان، مؤسسة عز الدين، 1994م.

الثقافة العربية في نيجيريا

للدكتور علي أبوبكر

جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي

لعثمان برايما باري، القاهرة، دار الأمين، 2000م.

حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا

للدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنثي، الرياض، شركة العبيكان، 1993م.

دليل الناقد الأدبي

للدكتور ميجان الرويلي، والدكتور سعد البازعي، بيروت، المركز الثقافي العربي.

الديوان المبارك

لمحمد الناصر كبر، كنو، الشاويش، 1999م.

ديوان نيل البغيا من انتاجات الشيخ يحيى

نشر الحاج محي الدين التجاني، لبنان، دار الفكر، د.ت.

مالك بن المرحل (أديب العدوتين)

للدكتور محمد مسعود جبران، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2002م.

هدية الأحباب والخلان

الشيخ أبوبكر عتيق، تحقيق محمد الأمين عمر، كانو، زاوية أهل الفيضة التجانية.

ثانيا: المرقونة

شعر الشيخ محمد الناصر كبر

المتولي شيخ كبر، إشراف الدكتور محمد طاهر سيد، قسم اللغة العربية، جامعة عبد الله بايرو، 1414هـ 1994م.

الشعر الصوفي في نيجيريا

دراسة موضوعية تحليلية لنماذج مختارة من إنتاج العلماء القادريين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. للشيخ عثمان كبر، إشراف الدكتور سركي إبراهيم، جامعة عبد الله بايرو، قسم اللغة العربية، 2000م.

شعر محمد البخاري

مرقون بخزانة كتب أمير كنو

مجموع الوزير في ذكر مناقب الأمير

عبد القادر غطاط، تحقيق يحيى إمام سليمان، إشراف الدكتور سركي إبراهيم، جامعة عبد الله بايرو، قسم اللغة العربية، 2000م.

ثالثا: الدوريات

مجلة دراسات عربية

العدد السادس، السنة 86 / 1987م، الدكتور سركي إبراهيم، نظرة سريعة حول الأوزان الشعرية المستخدمة في ديوان الشيخ محمد الناصر كبر.

مجلة دراسات عربية

السلسلة الجديدة، عدد خاص، العدد الأول، السنة الأولى، 1422 هـ، 2001م.

- ميمية الشيخ محمد الناصر كبر، "زهرة الربيع في مدح الشفيع"، دراسة تحليلية للدكتور شيخ عثمان كبر.

- قاضي الوزير عبد القادر مالنوراج ومرثيتيه للوزير محمد البخاري في ميزان الأدب الصاق، للدكتور سمبو ولي جنيد.

مجلة غرب إفريقيا للغة والأدب والدين والنقد

العدد 2، السنة 1999م، للأستاذ الدكتور محمد الأول أبوبكر، "ملامح من ديوان الشيخ يحيى محمد النفاخ".

الشاعر والأديب الغيني
الحاج مختار الكبير

د. محمد الأمين جابي(*)

مقدمة :

يعتبر خُلُوُّ تاريخ الأدب العربيّ من إسهامات الأدباء الأفارقة ثغرةً كبيرةً، إذْ فَقَدَ - بذلك - جزءا غاليا من مكتسباته الثمينة، فالذي يُؤَرِّخُ لهذا الأدب لا يستطيع أن يُقَدِّمَ تأريخًا شاملاً ومتكاملاً له، يغطّي المساحةَ الجغرافيّة التي غطّاها بالفعل عبر التاريخ، خاصةً إذا علمنا أنّ العرضَ الطبيعيَّ لتاريخ الأدب العربي لا يتوقّفُ عند ذكر انتشاره في ربوع الجزيرة العربية وما جاورها من منطقة الشام، ومصر، والأندلس، والمغرب العربي.

والمُتَتَبِّع لخريطة انتشار الإسلام يلاحظ انتشارا موازيا ومساويا للأدب العربي عبر هذه الخريطة، ويلاحظ كذلك أنّ الإسلام حمل معه - إلى جانب علومه ومعارفه الخاصّة به - أدبا عربيًا صرفا يتمثّل في جملةٍ من النصوص الشعريّة والنثريّة التي أصبحت من لوازم حذق اللُّغة العربيّة، ووسائل التوسُّع في فهم القرآن الكريم، وتذوّق بلاغته السامية.

ولقد تلقّت الأمّة الإسلامية - مع العلوم الشرعيّة - علومَ اللُّغةِ العربية والأدبِ العربي، على اختلاف بيئاتها وثقافاتها، فنشأ نوعٌ من التكوين العلمي والأدبي لديهم زائدٌ عن الضرورة من الدين، ممّا نسمّيه أدبا إسلاميًا بحكم كونه نتاجا للتّفَقُّه في الدين، وأثرًا من آثار "طلب العلم" الذي فرضه الله على المسلمين.

(*) الجامعة الإسلامية بالنيجر. ابن أخ الشاعر.

والذي نريد الوصول إليه هو أنّ إغفالَ الأدب الإفريقيٍّ من حيث التأريخ والتدوين والتحقيق والنشر، أدَّى إلى تقليص المساحة التاريخية والجغرافية التي غطَّاها الأدبُ العربي - بالفعل - أثناء مرافقته انتشارَ الإسلام، فمن الثابت أن انتشارَ هذا الدين في أرجاء المعمورة رافقه انتشارٌ موازٍ له في رقعة الأدب العربي، واتِّساعٌ في أطرافه، وتنوعٌ في توجُّهاته، فكان للمسلمين - أينما كانوا، ومهما اختلفت حضارتهم وثقافتهم - تراثٌ علميٌّ وأدبيٌّ ناتجٌ عن كونهم مسلمين.

ولا يُعقَل أن يعدم الأدب العربي في إفريقيا السوداء مناخا طيِّبًا ينمو فيه ويتطوّر، خاصّة وأنّ الأفارقة نالوا من التفقّه في الدين، وحِذْقِ لغة القرآن حظًّا وافراً، وتلَقَّوْا من معارف الوحي قدراً كافياً، فنتج عن هذا وذلك ثقافةٌ إسلاميةٌ في مضمونها، عربيّةٌ في وعائها اللُّغويِّ والأسلوبيِّ، إفريقيّةٌ في ملامحها البيئيّة.

وعلى الرغم من وجود بعض الاهتمام لدى المتخصِّصين في تاريخ إفريقيا بالحركة العلميّة والأدبيّة التي قامت في عددٍ من الإمبراطوريّات والممالك الإفريقية، مثلِ مالي والسنغاي، ومملكتي التكاررة وغانة، إلاّ أنّ هذا الاهتمامَ لا يتعدّى مجردَ عرضٍ تاريخيٍّ للتأثير العلمي الذي مارسَه الإسلام في المنطقة، واستعراضٍ لأسماءِ علمائها البارزين، ولا يصل الاهتمام بالتراث العلمي الإفريقي إلى مستوى جمعه، وتحقيقه ونشره.

ومع ما يقال - عادة - عن هذا التراث من أنّه تعرَّض للضياع، فإنّ كثيراً منه ما زال حيًّا مُدَوَّنًا في شكل مخطوطاتٍ، بل إنّ العطاءَ العلميَّ والأدبيَّ ظلَّ متواصلاً في إفريقيا السوداء على مدار القرون، ويوجد في مركز " تمبكتو " - على سبيل المثال - الكثيرُ من المخطوطات التي تمثِّل بدايةً طيِّبةً لإحياء التراث العلمي والأدبيِّ في "إفريقيا"، كما يوجد من بين المقتنيات الثمينة التي تحتفظ بها الأُسَر العلمية العريقة في إفريقيا، الشيءُ الكثير من هذا التراث العلمي الخالد.

والواقع أنه ليس لدى المثقّف العربيِّ إلمامٌ كافٍ بالأدب العربي الإفريقيِّ، ولعلَّ أحسنَ انطباعٍ لدى القليلين منهم ممَّن أَلَمَّ بشيءٍ من ذلك بحُكم تخصُّصه العلميِّ، لا يعدو أن يكون انطباعاً سطحياً عن روعة ما تركه بعضُ المشاهير من العلماء الأفارقة من إنتاجٍ علميٍّ، وتُعتبر آثارُ الشيخ ابن فودي رحمه الله، وآثار آل بيته من هذا القليل الذي يستطيع أيُّ دارسٍ مُتخصِّصٍ في تاريخ إفريقيا الإسلامي

أن يُؤَكِّدَ معرفتَه ببعضه، واطِّلاعَه عليه، فلقد أُتيحَ لِنيجيريا من الظروف التاريخيّة ما جعل علماءَها على صِلَةٍ مستمِرَّةٍ بعلَماء العرب، خاصَّةً في الشمال الإفريقيّ، كما ساعدَتْ الظروفُ نفسُها على طباعةِ كثيرٍ من المؤلَّفات القيِّمة التي خلَّفها آل الشيخ.

ويحفِلُ الغربُ الإفريقيّ بالعديد من المؤلّفات القيِّمة التي ما زالت مغمورةً، ومنها آثارٌ علميَّةٌ لا تقِلُّ روعةً عمَّا تركه علماء نيجيريا وأُدباؤُها، بل يُمكِن القولَ بأنَّ من بين تلك الآثار العلميّة والأدبيَّة ما يختلِف عن الروائع التي خلَّفها علماء نيجيريا وأدباؤها من حيث الكمِّ والنوعِ، نقول ذلك، ونحن نُدرِكُ أنَّ لكلِّ منطقةٍ إفريقيَّةٍ خصائصَها الجغرافيَّةَ والتاريخيّةَ والثقافيَّة التي تَجعلُ الاختلافَ بينها وبين غيرها من مناطق القارَّةِ واقِعًا لا يمكن إنكارُه.

ولعلَّ الاهتمام الذي نلْحظه لدى الباحثين العرب بعلماء نيجيريا ومؤلَّفاتهم، والتنويهَ الذي يبرزُ من خلال أبحاثهم الخاصّة بالحركة العلميّة والأدبية في نيجيريا، ناتجٌ - بدون شكٍّ - عن عدم اطّلاعهم على القدر الكافي من الروائع الإفريقية الأخرى التي شاء سوءُ طالعها أن تبقى غيرَ منشورة ولا متداولَة، ونحن نعتقد جازمين أنَّ عمومَ الشعر العربي النيجيري - مع تسليمنا بجودته - لا يُمثِّل عمومَ الشعر العربي الإفريقي كله، فهناك خصائصُ فنيةٌ تطبع الشعر في نيجيريا تختلف عن الخصائص التي تطبعه في غيرها من مناطق الغرب الإفريقي، والسبب واضحٌ في اختلاف البيئات الطبيعية منها والثقافية، والظروف التاريخية التي مرَّت بها كل منطقة إفريقية.

ويُمكن القول بأنَّ غينيا والسنغال ومالي تُعتَبَر مثلثا ذهبيًا في إفريقيا يستطيعُ الباحثُ الجادُّ أن يجد فيه كنوزا، من روائع الشعر العربي، تختلف من حيث الكم والنوع عن روائع الشعر العربي في نيجيريا وتشاد مثلا، ويجد في تلك الروائع من الخصائص الأسلوبية ما لا يجده في هذه الروائع.

ولا شكَّ في أنَّ رحلةَ الشعر العربي من الجزيرة العربية إلى ربوع الشام ومصر، ثم الأندلس والسودان، أكسبته خصائصَ لم تكن متوفِّرة فيه في بيئته الصحراوية، فلقد تشبَّع بالكثير من صور التعبير، وأساليب البناء، وضروب الأخيلة، فتوسَّعت آفاقه، وتعددت ألوانه، ورقَّت حواشيه، وتهذَّبت آلياته، نتيجة لثراء البيئة الطبيعية التي استقرَّ فيها الشعراء وتنوُّعها.

والمتتبع لخريطة الشعر الإفريقي يجد نوعا من التفاوت بين اتجاهاته ومساراته، ويجد في هذه الاتجاهات والمسارات أجواءً شعريةً مختلفةً، وصوراً تعبيريةً متباينةً، ومن المفيدِ أن تتضافر الجهودُ المخلصةُ في مجال جمع التراث العربي الإفريقيّ من مصادره المختلفة، ويتوسّعَ مجالُها لتتناول مناطقَ إفريقيّة أخرى، فحصر الدراسة على نماذجَ محدودة من الإنتاج الأدبي في إفريقيا اجترار لا مبرر له، ولا تُرجى منه فائدة كبيرة، ونستطيع التأكيدَ على أنّ الباحثين سيعثرون في مناطق إفريقية أخرى على كنوزٍ من الأدب العربيّ الإفريقيّ الرائع تُشبِع فضولَهم العلميّ.

ومما لا شكّ فيه أنّ الازدهارَ الذي حصل للأدب العربي في الأندلس، حصل ازدهارٌ في إفريقيا موازٍ له، سواءٌ أكان ذلك من حيث جودة الإنتاج، أم من حيث تعدُّد الأغراض الشعرية، وإن كان ثمة فرقٌ فيكون في الظروف البيئية والتاريخية التي من شأنها أن تطبعَ أدبَ أمةٍ بمميزاتٍ خاصة بها. .

ونقدِّم نموذجاً واحداً من أعلام الأدب الإفريقي بلغ من الشهرة في المصادر العربية حدّاً بعيداً، وحصل له من القبول لدى نقّاد العربية ما لم يتهيّأ لأديب أو عالمٍ إفريقي، وهو إبراهيم الكانمي الذي "قدم على المغرب قبل الستمائة" على حدّ تعبير ابن الآبار[1] وحصل على تقدير كبار نقّاد العربية، أمثالِ "ياقوت الحموي" الذي وصفه بأنّه: مشهودٌ له بالإجادة، ووصف ابن حمُّويه شعرَه بقوله "إن الكانمي يُعرب عن شعرٍ فصيحٍ، ولفظٍ صحيحٍ، ووزنٍ مستقيمٍ، ومعنى قويمٍ" وقال عنه الصفدي إنّه كان "جيِّدَ النظم"[2]، ومن جيد شعره قوله يمدح أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب :

مـا بَعْـدَ بابِ أبي إســحـاقَ منزلةٌ	يسمو إليها فتًى مثلي ولا شرَفُ
أَبَعْـدَ مـا بَركَتْ عنسي بساحته	وصرتُ مِنْ بَحْرِه اللُّجِيِّ أغترِفُ
همُّوا بِصَرْفِي وقَدْ أَصْبَحْتُ مَعْرِفَةً	فكيف ذلك واسمي ليس ينصرِفُ

---

(1) محمد ابن شريفة "إبراهيم الكانمي، أنموذج للتواصل الثقافي بين المغرب والسودان" جامعة محمد الخامس، الرباط، 1991م، ص 19.

(2) المرجع نفسه، ص 28-29.

وواضحٌ من هذه الأبيات أن الشاعر مُتمكِّنٌ، ويمتلك من أدوات صناعة الشعر ما يمتلكه أمثالُ المتنبّي وابن الروميّ والبحتريّ وغيرهما، ومع ذلك، فإنّ ما تركه هو وغيره من شعراء إفريقيا السوداء، من روائع الشعر وعيونه، لم يحظَ بشرفِ الانضمام إلى التراث الشعري الضخم الذي يحفلُ به تاريخُ الأدب العربي، ولم يجد له مكانا من بين عيون الشعر العربي الذي يُدَرَّسُ في المدارس والجامعات، بل إن مؤرِّخي الأدب العربي لا يُدْرجونه بين الأعمال الأدبية الرائعة التي يحفل بها التراث العربي الإسلامي، ولقد أدّى ذلك كلُّه إلى وجود فجوة في تاريخ الأدب العربيِّ أفقدت الأدبَ العربيَّ تكاملَه وتنوعَه وثراءَه، بل وأدّت إلى طمس بعض معالمه العالمية.

والواقع أنَّ انقطاعَ الصلة بين علماء القارة الإفريقية وأدبائها ونظرائهم في المشرق والمغربِ العربيين، أدّى إلى أن ينموَ الشعر العربي الإفريقي نمواً ذاتيًا داخل بيئته القديمة، وضمن بنيته الفنية التقليدية، فالصِّلات العلمية التي تزامنت مع الصِّلات التجارية إبَّان ازدهار الممالك الإفريقية، لم تستمرَّ في ربط شمال القارَّة بجنوبها على الرغم من حصول نوعٍ من التحسُّن في مجال الاتِّصالات ناتجٍ عن الكشوف الجغرافية والاختراعات العلمية.

ولا شك في أنَّ العالمَ العربيَّ استطاع أن يحافظَ على تراثه العلمي، رغم الغزو الثقافي الذي تعرَّض له عبر التاريخ، فنشطتْ فيه حركةٌ علميةٌ وأدبيةٌ واسعة النطاق، شملت ليس فقط مجالَ المحافظة على الهويّة العربية الإسلامية، وإحياءِ اللغة العربية، ولكن أيضا، شملت مجالَ جمعِ التراث العلمي الذي خلَّفه الأجداد، وتحقيقِه ونشرِه بمختلف الوسائل والطرق.

إلاّ أنَّ هذه النهضةَ العلميةَ المباركةَ لم تأخذ في الاعتبار الأدبَ الإفريقي كتراثٍ قيِّمٍ لا يقلُّ أهميَّةً عن الأدب العربي الأندلسي، وكان -مثله- قد نشأ في مناخٍ غيرِ عربيٍّ، وفي بيئةٍ جغرافيةٍ غير عربيةٍ كذلك، ولقد ظلَّ هذا الإنتاجُ الضخمُ مدوَّنًا في مخطوطات قديمة لم تستطع مقاومةَ الزمان طويلا، فذهب الكثير منها ضحيَّةً للضياع أو الحرائق أو التلف، وبقي القليل منها مُتَفَرِّقًا لا يضمُّه مكانٌ، ولم يَحْظَ -في الواقع- أيُّ إنتاجٍ علميٍّ عربيٍّ إفريقيٍّ باهتمام الباحثين العرب وعنايتهم، ولم تَجْرِ محاولةٌ لإدراج روائع الشعر العربي الإفريقي ضمن النصوص الأدبية التي تُدَرَّس في الأدب العربي، ولا يتضمَّن تاريخُ هذا الأدب إشارةً إلى ما أنتجه الأفارقة من أعمال أدبية تمثل حلقة مُهِمَّةً من سلسلة الأعمال العظيمة التي خلَّفها رجالُ الأدب العربي على امتداد التاريخ.

ولا ينكر أحد مقدارَ العناية والاهتمام اللذين توليهما المؤسسات العلمية في الغرب بحملة الثقافة الغربية من الأفارقة، فبالإضافة إلى التسهيلات التي يجدها الأديب الإفريقي في مجال التعريف به، ونشر أعماله الأدبية، توجد عناية خاصة بالموهوبين منهم، لدرجة أنَّ شاعرا إفريقيا، مثل ليوبولد سيدار سنغور، يحظى بشرف الانضمام إلى عضوية الأكاديمية الفرنسية، وهو شرف لا يطمح إليه من الفرنسيين أنفسهم إلا عدد قليل، ولا شك في أنّ فرنسا لا تقوم بمثل هذا التقدير من أجل سواد عيني سنغور، وإنما لكونه من الذين أسهموا في توطيد أركان اللغة الفرنسية في غرب إفريقيا.

ونعتقد بأن رجال الأدب العربي لفي أمسِّ الحاجة إلى إعادة صياغة تاريخ الأدب العربي، وجدولة عصوره المختلفة، وتتبُّع مساره الجغرافي ليشمل المناطق التي طرقها بالفعل عبر التاريخ، وذلك بهدف العرض الموضوعي له، ولا بد من إدراج ما ثبتت جودتُه من الإنتاج الشعري العربي الإفريقي في قائمة الروائع الأدبية التي أنتجها عباقرة الشعر، ويتم ذلك خلال دمج طبيعي له مع هذه الروائع، يُراعَى فيه التسلسل التاريخي، أو تجانس المضمون والأغراض، ولا بد من إيجاد عنوان ثابت للشعر العربي الإفريقي تدرَس تحته عيونٌ مختارة من إنتاجات شعراء إفريقيا، فإغفال هذا الإجراء جناية على الأدب العربي الإسلامي الذي يعتبر -بحق- من المكاسب الثمينة التي لا ينبغي التفريط فيه.

ملامح الشعر العربي الإفريقي:

إنّ من الإنصاف أن نُقِرَّ بأنَّ عمومَ الإنتاج الأدبي الإفريقي في العربية، يفتقر إلى بعض المُمَيِّزَاتِ الجيِّدة التي طبعت عمومَ الإنتاج الأدبي العربي، وذلك لنشأته وتطوُّرِه في ظروفٍ بعيدةٍ كلَّ البعد عن المراكز الثقافية الرئيسة في العالم العربي، وتخلُّفِه عن التأثُّر بالتيَّارات الأدبية الكبرى التي دبَّت في الحركة الثقافية والعلمية في المشرق والمغرب الإسلاميين عبر التاريخ، وهو تَخَلُّفٌ لا يستهان به، إذ أدَّى إلى جمود الأدب العربي الإفريقي عند مرحلة تاريخية معينة، وهي مرحلة سيادة الصناعة اللفظية.

إنَّ نظرةً إلى التراث العلمي العربي الإفريقي تكفي لتأكيد سيادة الشعر الميادينَ التي طَرَقَها العلماءُ والأدباءُ الأفارقةُ منذ بدءِ إنتاجهم العلمي والأدبي، وعلى الرغم من تنوُّع الأغراض الشعرية التي تَعَرَّضُوا لها، فإن الغالبية العظمى من

إنتاجهم في هذا المجال لا تعدو أن تكونَ من قبيل الشعر الديني ذي الطابع الصوفي، ويُغَطِّي مدحُ الرسول ﷺ أكبرَ مساحةٍ في هذا اللون من الشعر.

ويندر - بالمقابل - وجودُ الشعرِ الوجدانيِّ الصِّرف، خاصَّة الشعرُ العاطفيُّ الذي يعبِّر خلالَه الشاعرُ عن لوعة الحبِّ، ويصف فيه مفاتنَ المرأة، ويتغزَّل بأنوثتها، والسبب راجعٌ إلى أنَّ هؤلاء الشعراءَ كانوا علماءَ شرعيين في الأصل، ولم يدخلوا مجالَ الأدب إلا من بوَّابة العلوم الشرعية التي تزوَّدوا فيها بالعديد من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ونصوص الفقه، وشيءٍ غيرِ قليلٍ من كلام المتصوِّفَة وأهل الزهد، وكانوا يرون من العبث تكريسَ أشعارهم للتغزُّل في النساء، والتشبُّب بهنَّ، خاصّة، وأنّ قولَه تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾(1)، لم يغبْ عنهم طرفةَ عين.

ولعلَّ القدر الذي وصل إلى الأفارقة من الشعر العربي لم يَكُنْ كافيًا لكي يَطَّلِعُوا على آفاق واسعة من الشعر، فباستثناء المعلقات، والنماذج الشعرية القليلة التي وصلتهم من مثل مقصورة ابن دريد، ودالية اليوسي، وما وقع بين أيديهم من قصائد وردت في مثل مقامات الحريري، ودواوين المديح النبوي، لم يعرفوا - بصورة عامة - روائع المتنبي وأبي تمام والبحتري وابن الرومي، ولم يقفوا على روائع جرير والأخطل وأبي العلاء المعري، ولم يطلعوا على الشعر العربي في مرحلة الإبداع كما يتضح ذلك جليا في عيون الشعر الأندلسي، ولقد بقيت خبراتهم محصورة في القليل من النماذج الشعرية التقليدية.

أضف إلى ذلك أنَّ تدنِّي المستوى العلمي للناسخين الذين تعاقبوا على كتابة الشعر العربي الإفريقي أسهم بقسط وافر في الهبوط بالمستوى الشعري الرفيع الذي كان هذا الشعر قد بلغه على مدار التاريخ، إن هذه النقطة هامة للغاية، فثقافة الناسخ وذوقه الأدبي ضروريان للمحافظة على أصالة النص الأدبي الذي ينسخه، ولقد نال الشعرَ العربيَّ الإفريقيَّ كثيرٌ من الضرر نتيجة لنسخه وتكرار نسخه، الأمر الذي أدى إلى تراكم الخطأ فوق الخطأ، وضياع الصيغة الأصلية التي سجَّلها صاحب النص الأدبي، كما نتج عن ذلك أن طلاب العلم تعلموا هذه الأخطاء كما هي

(1) سورة الشعراء، الآية : 224.

دون رقابة معجمية تعيد النص إلى أصله، وتتداول الأوساط العلمية في إفريقيا كثيرا من الطرائف في هذا الباب يدل على مدى الضرر الذي يصيب الإنتاج الأدبي نتيجة لجهل النساخين(1).

وثمة عامل آخر أدَّى إلى جمود الشعر العربي الإفريقي، وهو عكوف الشعراء الأفارقة على النماذج الأولى التي وضعها الرواد الأوائل من سلفهم الشعراء، أمثال الشيخ عثمان بن فودي، رحمه الله، ليس فقط في أغراض الشعر التي طرقها هؤلاء الرواد، وكانت محدودة ، ولكن أيضا في القوالب الفنية التي صبُّوا فيها أشعارهم، فلقد بقيت هذه النماذج منابعَ ينهل منها المتأخرون، وينسجون على منوالها بالمحاكاة تارة والتخميس والتشطير تارة أخرى، وبذلك أصبحت القصائد العربية التقليدية نماذج أولية تولدت عنها نماذج ثانوية من الإنتاج المحلي البحت.

وقد أدَّى عزوفُهم عن الأغراض الشعرية الأخرى إلى خلوٍّ عموم الشعر العربي الإفريقي من الكثير من روائع التشبيه، ودقائق الوصف، ورقائق التعبير، كما أدَّى إلى تقلُّص دورِ الخيال في قصائدهم، وافتقار هذه القصائد إلى القدر اللازم من المقاطعِ الشعريَّة المُعبِّرَةِ عن الذات الشاعرة التي ينطلقون منها، وليس مِن قبيل المبالغة إذا أضفْنا إلى ما سبق انعِدامَ الوصف الرقيق للطبيعة وما فيها من سحرٍ وجمالٍ رغم ما في الطبيعة الإفريقية من مناظر خلابة لا تقل عن مناظر الأندلس سحراً.

والذي يقرأ الشعرَ العربيَّ الإفريقيَّ، يلمس فيه ملامحَ من الشعر الجاهلي، ويلمس شيئا من الجرس الموسيقي الذي تتميَّزُ به المعلقاتُ، ويجد فيه شيئا من المناخ الشعري الذي ساد قصائدَ شعراءِ العصور التالية للعصر الجاهلي، ويلمس بصفة خاصة عنايةً واضحةً بالصناعة اللفظية، وولعا بالغريب المهجور من

(1) ومنها ما ذكره لي والدي الأديب والشاعر الغيني المعاصر الشيخ محمد كاسو جابي من أنه ضمَّهُ مع مجموعة من أدباء جيله في غينيا، مجلس تذاكروا فيه أخبار الشعراء الآفارقة، ومنهم الشاعر السنغالي ذو النون الذي كانت أشعاره متداولة بينهم، وكانت الإشكالية تتمثل في التحقق من إسمه، فقد كتب ناسخ شعره إسمه خطأ "سمن المنبوذ" ودار جدال طويل وعريض حول هذا الإسم الغريب الذي ألقى بظلال من التعتيم على الشاعر السنغالي، ولم يصلوا إلى حلٍّ، وفي الليل، لم ينم الشيخ محمد كاسو، كان يفكر في حل لهذه المعضلة، وعند الفجر، تراءى له الحل، لقد اكتشف وجود خطأ في كتابة الإسم الذي لم يكن في الواقع سوى كنية أحب الشاعر السنغالي أن يذيل قصيدته بها، وقد سار الشيخ في استنتاجه على النحو الآتي : الشاعر إسمه ذو النون، وهو الإسم الذي عرف به سيدنا يونس عليه السلام، فلا غرابة إذن أن يطلق السنغالي على نفسه كنية "سمي" المنبوذ" لأن يونس هو الذي عناه القرآن الكريم بقوله تعالى :" فنبذ بالعراء".

الكلام، ولا يكاد يعثرُ على تصويرٍ حيٍّ لخبرةٍ شخصيةٍ، أو تعبيرٍ مؤثّرٍ عن الوجدان، أو وصفٍ رقيقٍ للذات الشاعرة المنفعلة.

ومن جملة التبريرات التي تُساق بهذا الخصوص، سيادةُ التكوين اللغوي على التكوين الأدبي لدى الشعراء الأفارقة، وتكفي نظرةٌ إلى سلسلة الكتب التعليمية التي كانت مقررةً على طلاّب العلم لإدراك ذلك، فالتعليم العالي، الذي كان يتمُّ في المجالس العلمية، لم يكن يستهدف سوى تكوينٍ لغويٍّ يُزوِّدُ المتعلّمَ بثروةٍ قاموسيةٍ كافيةٍ، وذلك من خلال كتب اللغة المعروفة مثل مقامات الحريري، ومختار الصحاح، والقاموس المحيط، وفقه اللغة للثعالبي.

وعلى الرغم من شيوع تعلُّم دواوين الشعر التقليدية في هذا العهد، لم يكن ثمَّة تخطيطٌ تربويٌ مُسَبَّقٌ يهدف إلى تذَوّق الشعر العربي، وصقل الملكة الشعرية لدى المتعلمين، إلا أنَّ تَعَلُّمَ هذه الدواوين أسفر عن تذَوّقٍ حقيقيٍّ للشعر لدى كثير من طلاب العلم، أدّى بالتالي إلى تفتّح مواهبهم الشعرية، فكرّسوا حياتهم لصقل هذه المواهب، وإن بقيت النزعة اللغوية متأصلةً فيهم، تطغى على أشعارهم، وتسود تعابيرهم.

إنّ الاهتمامَ بالصنعة اللفظية كان سمةً غالبةً على الإنتاج الأدبي الإفريقي، ولقد سيطر أسلوبُ المقامات على الشعراء الأفارقة لدرجةِ أنّهم لم يتخلصوا من سيطرة الحريري حتى في عصور ازدهار أدبهم، فهذا شاعرٌ إفريقيٌّ مرموقٌ من شعراء القرن الحادي عشر الهجري، حوالي القرن 17 الميلادي، وهو عبد الله بن فودي، الأخ الشقيق لعلاّمة زمانه عثمان بن فودي[1] وشاعر الدعوة في عهده،

---

(1) ولد سنة 1169 هـ (1744 م) وهو من كبار العلماء المجددين في هذا القرن، وصفه إبنه العلامة الإمام محمد بلو - في كتابه " إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ص57 بأنه " شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، العالم الرباني، والغوث الصمداني، علامة الدنيا، وطالع المرتبة العليا " . أما الشاعر عبد الله بن فودي، المولود عام 1180 هـ 1766 م، فكان من كبار علماء إفريقيا، ومن أغزرهم أدباً، رافق أخاه المجدد الكبير في غزواته التي قام بها في بلاد الهوسا ضد الوثنيين، وسجلها في قصائد رائعة تدل على علو كعبه في الشعر، ذكره ابن أخيه " محمد بللو " في كتابه " إنفاق الميسور، ص 211 " بأنه " كان آية في تحقيق العلوم، مفرط الإطلاع على المنقول في الفنون، جامع شتات العلوم، فاضل وقته، وأعجوبة أوانه " وذكر له من المؤلفات " نظمه على النقاية، ونظمه على مفتاح الأصول، وسلالة المفتاح "، أنظر محمد بللو في إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ص 81.

ومن عيون شعره قوله :

فابيَضَّ وجهُ الدين بَعْدَ مِحاقِه   واسْودَّ وجهُ الكفر بعد تَبَلُّجِ
والسنَّةُ الغرّاءُ أصبح ينجلي   والبدعةُ السوداء ليلٌ يدجي
طُمِسَتْ معالمُها وأخلق ثوبُها   والدين في بِرعٍ يميس مدبج

يتميز شعره بجزالة اللفظ، وبساطة التركيب، ومع ذلك لا تخلو قصائده من الألفاظ المهجورة، ولا من نفوذ الحريري وسلطته، يقول وهو يتحدّث عن أخيه:

عُثْمانُ مَنْ قد جاءنا في ظُلْمَةٍ   فأزاح عنّا كُلَّ أَسْوَدَ دجدج
ودعا إلى دين الإله ولم يَخَفْ   في ذاك لومةَ لائمٍ أو فجفج
فانماتَ خَلْقٌ حين صات لِصوتِهِ   وعلا له صيتٌ فُوَيْقَ الأبرج
كمْ سُنَّةٍ أحييْتَها وضلالةٍ   أَخْمَدْتَها جَمْرًا ذكا بِتَأَجُّجِ
وظللتَ في أرضٍ عوائدُها عَدَتْ   وتخالفت سننُ النبي الأبهج
فاسْتَنْسَرَتْ بُغثانها وتَنَمّرَتْ   جِرْذانُها ترمي بنصلٍ سلمج

وواضحٌ من الأبيات السابقة ولعُ الشاعر بالغريب المهجور من الألفاظ، ونزوعُه إلى الأساليب القديمة في التعبير عن الأفكار، كما تفتقر القصيدة إلى الخيال ودقّة الوصف، ويتّضح تأثرُه بِلُغَة الحريري في مثل قوله " فاستنسرت بغثانها " وذلك من عبارة مشهورة في المقامات يقول فيها صاحبها على لسان أحد أبطاله الخياليين " إن البغاثَ بأرضنا لا يستنسر، والتفريقَ بين الفِضّة والقَضّة أمر متيسر".

ويوجد هذا القاسم المشترك بين شعراء إفريقيا جميعا، قاسِم الصنعة اللفظية، ولغة المقامات، فهذا شاعرٌ مرموق من موريتانيا، وهو أحمد البكاي، يتغزّل بـ " الكُنتاوية" فيختار لوصفها أوعرَ الألفاظ وأخشنَها مما لا يتناسب مع رقّة هذه المرأة، وذلك بسبب تعارض مقاطعها الصوتية مع وصف محاسن غادة مثل " الكنتاويّة" لا نشكُّ في أنها كانت من أكثر الغادات رقّة ورشاقة، وذلك خلافا لعادة شعراء الجاهلية أنفسهم الذين - رغم شيوع الكلمات الوعرة في أشعارهم - كثيرا ما تخفُّ حدّةُ الخشونة في لهجتهم، وتميل مقاطع كلماتهم إلى الرقة والبساطة كلما طرقوا وصفا للمرأة، فلا يستعملون كلمات فخمة - في العادة - إلا في وصف الإبل أو الفرس.

يقول أحمد البكاي في بيتين أحدهما رفيق رقيق، والآخر خشن غليظ مكتظ بالكلمات المهجورة ذات الجرس الثقيل على الأذن :

غيداء كُنتاوية أموية   قرشية، ومن الطراز الأول
خرعوبة رعبوبة بهنانة   وهنانة نفج الحقيبة عيطل

وهذا شاعر آخر في أقصى الغرب الإفريقي، من شعراء "طوبى الغينيّة "وهو الحاج مختار جابي"[1] يقول :

عنِ اللَّوْمِ والتيْتار يا هِنْدُ عزلِي — وعَسِّي، ومِنْ ماءِ الشراهة شَوْلي
وقائلةٍ عمَّ العصامُ جفونَها — نَشَدْتُكِ ربِّي بالأضيَّةِ إنزلي
تَمِيسُ وتَرْنُو حَيْثُ يمُّمَها الهوى — بأحورَ سحّارٍ وساقٍ مُخَلْخَلِ
ومِن كيدها حزمًا جعلتُ تَخَلُّصِي — بأمدوحةِ الجحجاحِ في كلِّ محفلِ

والذي يقرأ هذه الأبيات يُخَيَّلُ إليه أنّه يقرأ لشاعرٍ جاهليٍّ يخاطب محبوبته هندا بالعبارات المألوفة في البيئة الصحراوية، الجرسُ الشعريُّ نفسُه، وأسلوبُ التقديم والتأخير ذاتُه، وبالجملة، ليس من السهل على الإنسان العادي أن يفهم هذه الأبيات إلا بالاستعانة بالقواميس القديمة.

ومهما يكن الباعث إلى تَوَعُّرِ الشاعر الإفريقي، ولجوئه إلى استخدام الغريب من اللفظ، والمهجور من الكلمات، فإن من جملةِ الأسباب التي لا يمكن إغفالُها عند الحديث عن هذه الظاهرة، النزعةُ الشديدةُ لدى الشاعر الإفريقي إلى إبراز مقدرته اللغوية بين أقرانه، خاصّةً وأن اللغة العربية كانت لغةَ الطبقة المستنيرة في المنطقة، وكان حِذقُها من أسباب البروز في المجتمع، ومنها حاجةُ المجالس العلمية إلى نصوصٍ لغوية مختارةٍ تقرّرُ على طلاّب العلم، وذلك بهدف تكوينهم تكوينا لغويًا صلبا.

إلاّ أنَّ ما ذكرنا من سيطرة المحسنات اللفظية على الشعر الإفريقي ليس القاعدةَ، ولا يطّرِد فيه لدرجة أن يخلوَ من الشعر السلس البسيط التركيب، أو الجميل المعنى، الرقيق اللفظ، بل لا يطّرِدُ في قصائد الشاعر الواحد، حيث يوجد إلى جانب الشعر المقيَّد بالصناعة اللفظية الشيءُ الكثيرُ من الشعر الخالي من سيطرة هذه الصناعة.

---

(1) الحاج مختار بن الشيخ أحمد زروق، عُرف بالحاج مختار الكبير، وهو الشخصيّة الأدبيّة التي اخترناها لهذا البحث، ولد في طوبي غينيا، عام 1902 ـ وتوفي في السنغال عام 1957م، وسيأتي الحديث عنه، وكان ـ رحمه الله ـ لغويا لا يباري، وشاعرا مفلقا، والقصائد التي ننشرها في هذا البحث من جملة قصائده التي جمعها أولاده بعده، وحصلنا على نسخة منها أثناء سفرنا إلى فرنسا عام 1998م.

ولدينا من الشعر العربي الإفريقي نماذجُ من ذلك نذكر منها قولَ الشاعر "عثمان كوص " [1] وهو من شعراء " فوتا جالو في غينيا:

وَلَعِبتُ في شِعري بِمدح محمد — والعُرْبُ تلعب بالكلام وتفخـرُ
وقصيدتي لمَّا انْتهـتْ شبَّهْتُها — بالبِكر إذْ هي كالأنيسة تَبهَـرُ
عـربيـةٌ أولَدتُهـا مِن فكرتـي — والفكر تنتِج منه بِكرٌ تُمْـهَـرُ
بِكرٌ يفوق جمالُها شمسَ الضحى — عذراءُ من كُلِّ العذارى أغْيَـرُ
غـارتْ على ألاَّ يقـولَ كمِثلِها — أحدٌ من الشعراء إذْ أنا أشعَرُ
و الشِّعـرُ ملَّكَني الإله زِمـامَـه — مهمـا أَشأْ تفعيلَـه يَتيسَّرُ
أَنّى أردتُ تَوَجُّـهًـا ينقـادُ لي — فَمُذَلَّلٌ لي صعبُه ومُسخَّـرُ
خُذْهـا إليكَ مدائِحًا مُختـارَةً — مِنّا بِشكْلِ خريـدةٍ تتصـوَّرُ
برزتْ بزينتِها تميسُ كأنَّها — حوراءُ بيـن خيامهـا تتبخْتر
فـابـن الملَوَّح لـو رآهـا لم يقلْ — في العامريَّة شِعرَه إذْ يَشْعُـرُ

وقول الشاعر محمد كاسو جابي في إحدى ابتهالاته الرائعة: [2]

يا ربنا يا وليَّ الكون يا سندي — أدعوكَ يا مَنْ إليه منتَهَى الساري
قدَّمْتُ بين يديْ نجوايَ يا سندي — جواهراً أبتغي يا خيرَ جبَّارِ
شـهدتُ أن ليس تأثيرٌ لكائنةٍ — من الورى إنما التأثير للباري
إذْ قلتَ للنار في حقِّ الخليلِ فقلْ — " يا نار كوني " فلا تأثير للنار
وقد سألتُك إلحافًا لمسكنتي — وجئتُ بابكَ قرْعًا فيه إصراري
أمسيتُ في مأزِمٍ أصطادُ من أرَقٍ — بادي التحيُّر والأهوالُ زُوّاري
وألبسَ التيهُ قلبي ثوبَه وكفى — تيهًا مسيري بوادٍ غيرِ ذي وارِ
هل مِنْ سبيلٍ إلى هادٍ تُوصِلُني — به إليك بصيرٍ غيرِ مُحتار

---

(1) واحد من أنبغ شعراء " فوتا جالون"، عاش في بداية القرن العشرين، والأبيات من قصيدة طويلة يمدح فيها الشاعر عالم طوبي، كَرَمُوكو سَنْكَن" ويتحدَّث عن فضائل جدِّه "كَرَمُوكوبا" وعلُوِّ كعبه في العلم، ويُشيدُ بأبنائه وأحفادِه الذين حملوا بعده لواءَ العلم، وتُعتَبَر قصيدته هذه من عيون الشعر العربي الإفريقي، وما زالت تُدَرَّس في طوبي.

(2) عالم وأديب وشاعر غيني معاصر، وهو أخو صاحب الترجمة، ووالد كاتب هذا البحث، أنظر : محمد الأمين جابي، في بحثه عن الشاعر، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، عام 2002م.

فالقصيدةُ تطفح بالوجدان، وتتخلَّلُها - على بساطتها - إشارات ورموزٌ عبَّر بها الشاعر عن بعض التجارب غير العادية التي يصعب التعبير عنها بالكلمات العادية، خاصة في البيتين اللذين يقول فيهما:

أمسيتُ في مأزَمٍ أصطادُ من أرَقٍ   بادي التحيُّر والأهوالُ زُوَّاري
وألبسُ التيهُ قلبي ثوبَه وكفى   تيهًا مسيري بوادٍ غيرِ ذي وارِ

وقول شاعر الدعوة الوزير عبد الله بن فوديو: (1)

تذكَّرت والذكرى تُثير لدى الفتى   هموما وفي الذكرى يهُب صبا الهوى
وليس لنا أمــــر يهمُّ قلوبنا   من الدين والدنيا سوى وحشة النوى
فمَن مُبلغٌ عني بنِيَّ وإخوتي   وأهلي وجيراني ومَن معهمُ ثوى

ومن رقيق الشعر قصيدةٌ للشاعر النيجري المعاصر "عبد السلام مرتضى الحقيقي" بعنوان "سميرة ليلتي" يقول فيها الشاعر وهو يتغزل بـ "فاطمة" في مقاطع شعرية رائعة:

أفاطمَ خفِّفي عني ضراري   ولا تُلقي حبيبكِ في بوار
لأني لا أزال أراكِ دومــــا   سميرةَ ليلتي وجوى النهار
أفكِّر في لقائكِ وابتسـامٍ   تسرُّ به الحياة لدى المزار
بثغرٍ راقه الإشراق بيضا   فيا للحسن منه مع النضار
يكاد به الضرير يسير ليلا   إذا ما الليل أسدل بالستار
دعوا عذلي فنار الحب أدهى   أشدُّ مضاضة من كل نار
ألا فالحب من أسرار ربي   وليس عليَّ من عيب وعار

ومن رقيق الشعر قول الشاعر الموريتاني المعاصر، بَبَّهاء (عام 1983): (2)

---

(1) محمد بللو في إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، مرجع سابق، ص 182.

(2) الشاعر مدرس بالجامعة الإسلامية بالنيجر.

ولقـد وقـفتُ وللنسـيم نعـومـةٌ وحـلاوةٌ كـتـوددِ الحـسناء
بِكُثـيِّبٍ جـبتِ الريـاحُ ترابَـه حتّى غـدا دِعـصًـا شـديدَ نقـاء
والليلُ قد سلب العيونَ ضياءَها فكأنمـا الدنيـا بلا أحـيـاءِ
فنظرتُ مـعـتـبـرا بعـين مُـفكّرٍ هذا الـفـضـاءَ الواسعَ الأرجـاء
فـتـراءتِ الدنيـا لعـيني كَـهلةً مكفـوفـةً قـد آذنتْ بفَنَاء
ونظرتُ في المـاضي فلم أر مـاضيـا ونظرت في البـاقي فـعفتُ بقـائي
في كل يوم لي إلى لُجَج الدجى سـيـرٌ وأترك مـا أُضـيء ورائي
فدعوت ربي خـاشعا متضرعا والليل يسمع مُنصـتـا لدعـائي
ربّاه، أنقـذ مُـهجـةً بمـتـاهة حَـيْـرَى تنوء بكثـرة الأعـبـاء
لم يبق لي أملٌ أعـيش بـه سـوى أملٍ أُعلِّقـه بخـيـط هَـبـاء
وأرى إذا فكّرتُ في مـسـتـقـبلي مـسـتـقـبلاً خشِنا من الظلمـاء
لم يَبْقِ لي أملي رجـاءً صـادقـا إلا إليك فـقـوِّني برجـائي

ومـهـمـا يكن من أمر، فـمن الواضح أنَّنا لا نعدم من بين شعـراء العربيـة الأفارقة مَن كانوا لا يقلُّون عن المتنبي والبحتري وابن الرومي شاعريَّة، ويملكون من أدوات صناعـة الشعـر مثل مـا ملك أولئك، ومن العـاطفـة والتخـيُّل مـا كـانوا يتوفَّرون عليه، ومن الدوافع إلى قول الشعر ما كان يدفعهم إلى ذلك، وإن كانوا يفتقرون إلى بعض الشروط اللازمة لصقل الموهبة الشعرية، وتوسيع آفاق التعبير، وترويضِ مِلكة الشعر.

الحاج مختار الكبير:

ولد شاعرنا الحـاج مختار جابي ابن الشيخ أحمد زرُّوق رحمـهما الله، في بيت علم وورع وتقوى، وكـان مـولده في مـدينة طوبى الغـينيـة عـام 1902، وهي

المدينة التي أسّسها جدُّه عالم غرب إفريقيا "كَرَمُوكوبا جابي"(1) الذي نزح إليها عام 1139 هجرية (الموافق لعام 1815م)، وجعل منها مركز إشعاعٍ للعلم، وأقام فيها مجداً كبيراً له ولأبنائه من بعده.

ولقد تلقّى شاعرنا العلم على يد والده الشيخ أحمد زرُّوق رحمه الله، وكان من فحول علماء مدينة طوبى وشعرائها، ومن كبار الشخصيّات المعتَبَرَة فيها، وتولّى الولاية عليها إبّانَ فترة دخول الاستعمار في غينيا، وجريا على العادة المتّبعة أذِنَ له أبوه بأن يستكمل تكوينَه العلمي على أيدي مجموعة مختارة من علماء طوبى التي كانت قد بلغت أوجَ نُمُوِّها العلمي والأدبي، خاصّة في القرن الـ19 الميلادي، وشهدت نبوغَ عددٍ كبيرٍ من أحفاد الشيخ المؤسِّس، أمثال "كَرَمُوكُو قُطْبُ جابي" و" كرموكو سَنكُن جابي " والشيخ "طورا جابي ابن الشيخ أحمد زرُّوق" المعروف بالأبيض، والشيخ "فوديبا جابي" المعروف بالشاعر، والشيخ "يدالي جابي"

---

(1) إسمه الشيخ الحاج سالم، وهو الجدُّ الأعلى لقبيلة "جابي" الموجودين حاليا في "غينيا" غلب عليه لقب "كَرَمُكَربَا" أو كَرَمُبَا" ومعناه، "الأستاذ الأكبر، وهولقب أطلقه شيوخ "فوتا" وعلماؤها عليه، اعترافا بعلمه وورعه، ولد في مدينة "جَهَ" بـ "مالي" الحالية، عام 1105 هجرية، (الموافق لعام 1730م)، وأخذ العلوم الشرعية واللغوية -كما ورد في كتب التاريخ- عن ستة عشر شيخا، وذلك على مدارستة وعشرين عاماً، ثم هاجر مع بعض إخوانه ومريديه إلى "فوتا جالون" في "غينيا" الحالية، بحثا عن مقر" له ولجماعته، حتى وصل إلى محل خلاء واسع بنى فيه المدينة التاريخية" طوبي" الكبيرة، وذلك حوالي عام 1139 هجرية (الموافق لعام 1815)م. وأقام في عدد من حواضر المدن الغينية يعلم الناس التفسير والفقه وعلوم اللغة العربية، وقضى في بلاد "كنيا" أربع سنوات، وفيها ألف ألفيته الشهيرة في علم التصريف، وسماها" مرآة الطلاب" وأقام في مدينة "كَنْكَن" عاصمة غينيا العليا، ثلاث سنوات تتلمذ عليه خلالها علماؤها، وقضى مثلها في "مَنْنْكَلاَ"، وتوفي، رحمه الله، عن عمر يناهز تسعا وتسعين سنة، وذلك عام 1202 هجرية، (الموافق 1829).

وقد ترك مؤلفات عديدة في علوم الدين واللغة العربية، ضاع منها الكثير ، وبقي منها شيء قليل، ومن مؤلفاته المتداولة ألفيته في علم التصريف و مؤلفات أخرى في الصلاة على النبي ﷺ و قصائد في مدحه (أنظر كتاب " إنهاض الهمم " السالف الذكر)، وانتشر علمه وعلم أولاده من بعده في غرب إفريقيا خاصّة بلاد "قابو GABO " و"بكاو PACAO" و"بديو BADIAO" و" وكين KIYAN " و" يوم YOUMI " و" كمبو COMBO " و" بندو BOUNDOU " وكذلك " غدمخن GUIDMAKHAN" و" غذاغ GAJAGA " في مالي، ومندنكلا MANDENKALA" و" سنغرن SANKARAN " و" كرنكو KOURANCO " و" كنيا CONIYA " و" جالونكي DJALONKE " و" فوتا FOUTA" و" كانكن KAN-KAN " و" ولدا WOULADA".

كما انتشر علمه إلى حدود السيراليون حيث توجد القبائل الصوصية، فضلا عن مناطق غينيا الساحلية، ويدل على انتشار علمه، وذيوع صيته ظهور مدن تحمل إسم "طوبي" تيمنا بـ " طوبي" الأم في كل من " السنغال" و" مالي" وساحل العاج، ومنطقة " وورا" أنظر كتاب إنهاض الأمم، ص 42-64، وكتاب : L'SLAM EN GUINEE DIAKANKE DE TOUBA, الإسلام في غينيا " لـ" بول مارتي".

وغيرهم كثير، رحمهم الله جميعا، وتُوفِّيَ شاعرنا رحمه الله في السنغال عام 1957م.

كان الحاج مختار الكبير رحمه الله متعبِّدًا ورعًا، قائمًا باللَّيل ذاكرا، وكان لا يفارق القرآن الكريم في حله وترحاله، وتدلُّ أبياتُه على عاطفةٍ دينيَّةٍ قويَّة، يقول عندما عزم على الحج :

باسم الإله إلى الرحمن أقتربُ ... وبالرحيم منَ الشيطان أحْتَجِبُ
ما رُمتُ عاجِلَ أجرٍ سوف أفقدُه ... بَلْ لِلْمُهَيْمِنِ نحو البيت أضْطَرِبُ
فهل يُحِسُّ بِكَرْبٍ قبل رؤيَتِه ... كُدَى الثنيَّة مَن لِلْقُربِ يكتسِبُ
أو هلْ بُعَيْدَ غُدوُّ الركب مُجْبِنَةٌ ... دونِ المدينةِ لا جَوٌّ ولا حَدَبُ
ولا مِياهٌ ولكِنْ بعد وَقْلَتِه ... إلى الشُّبَيْكَة في اسم الله يرتَسِبُ

ولقد وسَّع الله عليه رزقه، وسهَّل عليه الحياة، فكان جوادًا كريمًا، وكانت النفوس تحبُّه وتخشاه، وكان الناس يغمرون مجالسه، فيُتحفهم بالمفيد من العلم، والنافع من الحِكَم، وكان -كما وصفه أخوه محمد كاسو جابي بن الشيخ أحمد زروق:(1)

قِستُ البحارَ بعلمه فوجدتُه ... أعلَى، إذ المخزونُ ثَمَّ فرائدُه
وبِجُودِهِ فوجدته أندَى يداً ... منه وقد شهدتْ بذاك مَشاهدُه
وأتيتُ للأعدا فقلتُ ألم تروا ... أسدا يُهاب ولا تُطاق مَواجدُه
قالوا رأيناه ولكن غرَّنا ... منه سكونٌ لا يَخاف مُشاهدُه
فأجبتُهم إن السكونَ وراءه ... حزمٌ يواكبُه الحِجى ويساندُه
قالوا أيَبغِي قلتُ لا لكنه ... يسطو إذا يبغي عليه حاسدُه

(1) محمد كاسو جابي، عالم وأديب وشاعر معاصر، وهو من مواليد طوبي الغينية، عام 1912م، يتميَّز شعره بالسلاسة والعذوبة، ويتَّسم بالنزعة إلى التعبير عن الذات الشاعرة، وهو على العكس من أخيه، لايتوعَّر في شعره، ولا يطغى عليه المظهر اللغوي على الرغم من أنَّه لغويٌّ مرموق، أنظر حوليات الجامعة، العدد السابع، عام 2002، حيث نشرنا له نماذج من عيون قصائده التي تعتبر -بحق- من كنوز الشعر العربي الإفريقي.

ولقد عُرِفَتْ أسرتُه بالعلم والأدب، وبرع فيها عددٌ كبيرٌ في صناعة الشعر، فأبوه الشيخ أحمد زرُّوق كان إلى جانب علمه وورعه وتقواه شاعراً مُفْلِقًا، وله من عيون الشعر قوله، وهو يمدح أمير سِقِمًا " الإمام سوري":

فمَن مُبلِغٌ عنّي تحيَّةَ جائِلٍ ... تفوق تحيَّاتِ الورى بالفضائل
وتُزْري بمسكٍ أذفَرٍ فَلَّ ختمُه ... فَتيتٍ، وأرياحُ الصَّبا والصنادل
إلى صاحب المُلْك الذي ليس فوقه ... مليكٌ بهذا الغرب رأسِ الكلاكل
مليكٌ كبيرٌ سامكُ الشأن باذِخٌ ... شهيرٌ بِبَذْل المال، مُسْدي الفداكل
إمامُ هُدًى، بحرُ العلوم غَضَنْفرٌ ... ومُقتَدِرٌ فوق الملوكِ الكوامل
جريءٌ كرأسِ الحية المتوقِّدِ ... صبورٌ كَطَوْدٍ شامخٍ غيرِ زائل
إذا دكَّ طودَ الصبر مِن وَقْعِ حادثٍ ... فَصبْرُ الإمام الليثِ عالي الجنادل
يُهابُ كما هيبَ الليوثُ إذا بدتْ ... يُحاذِرُه ـ يومَ الوغى ـ كلُّ باسل
فما آب عنه مُعتفٍ منه لم يَنلْ ... مُناه من الخيرات جمٌّ المتائل
هو الواهب الأعلاقِ مِفضالَ قُطره ... ولَهَّادُ صرف الدهر كافي النوازل
به أكتفي عن كلِّ مَلْكٍ مُمَجَّدٍ ... وعن كلِّ ذي مالٍ كثيرِ النوافل
تمسَّكَ قِدْمًا بالكتاب وسنَّةِ الـ ... نَّبيِّ، وإجماعِ الشيوخ الكوامل
أيا مَنْ مقاليدُ البلاد بكَفِّه ... ويا مَقصدَ العافين جالي الغلائل
أعِنِّي على نَكَد الزمان وضيقه ... ولا تَخْذُلِ الآتيكَ بين الأماثِل
وربِّكَ، لا أَبْغي ـ سِواك ـ حُلاحِلاً ... أُنيخُ لديه يَعْمُلاتِ الجوافِل
وربِّكَ، لا أَبْغي ـ سِواك ـ مُبَجَّلاً ... أحُثُّ إليه صافنات الصواهِل
أَفِضْ لي جَداكَ من ريالٍ وأنعُمٍ ... تَسُدُّ ثُغورَ الفقر بين القبائل
وفي نُصْرَةِ الأحباب أعظمُ نُصرةٍ ... وأصفَى قضاءِ الحاج من خيرِ فاعل

كما برع في الشعر أخوه الشيخ محمد كاسو جابي بن الشيخ أحمد زروق، الذي تميّز شعرُه بالتحررِ من أساليب القدامَى، وعُرِف بسلاسته وعذوبته، وسهولة مُتَناوَلِه، مع صعوبةِ النسجِ على منواله، يقول في إحدى قصائده وهو يتحدث عن تجاربه الشخصية مع الناس :

أرْعَى الوفا لأخِي وإنْ أبْدَى الجَفَا ... إنَّ الجَفا لا يُفْسِدَنَّ مبادئِي
وأظَلُّ مُنْخَدِعًا له في عِزَّةٍ ... والانخداعُ لِمَن أجلُّ مَخابِئِي
حتَّى إذا بلغ الزُّبَى سيلُ الهوى ... والشحُّ والإعجابِ صِنْتُ مَوانِئِي
إذْ لا أزالُ على جناحِ مُحَلِّقٍ ... حذرٍ وألتمسُ الهُدَى لِمَواطِئِي
أمَّا إذا التَزَمَ الوفاءَ فإنَّني ... كُفُوٌ ، أوَالِيهِ أبَرُّ مُمالِئِي
أو إنه أرْبَى عليَّ فإنني ... عبد له أبدو كهيئة ناشِئِ
والناسُ بين مُكاشِرٍ ومكاشِحٍ ... أبدا وممتازٍ وبين مُكافِئِ
ومخالِصٍ في وُدِّهِ ومُخَالِطٍ ... ومنافق حلو المقالة شانِئِ
ما زلت أحتمل الإساءة منهم ... أُحصي مساوئهم فأيْنَ مَسَاوِئِي
والقوم شتى لا سلامة منهم ... إلا بسلطان السلام البارئِ
سلني عن البحر الذي خاضوا به ... فلقد سقطت على الخبير بشاطِئِ
شَنُّوا الإغارةَ مرجفين وعبَّئوا ... ما شئتمُ ضدِّي فلستُ بعابِئِ

ومِن إخوانه الذين برعوا في الشعر، الشيخ كَرَمَّادي جابي ابن الشيخ أحمد زرّوق، رحمهما الله، وهو القائل :

يا طالِبًا فضلَ ما بينَ المقاماتِ ... تُريدُ تفصيلَ ما بين المراماتِ
مقامِ عِلْمٍ ومالٍ بلْ ومملَكَةٍ ... فَهاكَ ما يقتضيه ضوءُ مِشكاتي
الفضلُ للكُلِّ فوق البعض، بعضُهمُ ... له مراتبُ فضلٍ في المزِيَّاتِ
قواعد الدين توحيدٌ ومعرفةٌ ... بالله ربِّي له التقديسُ في الذَّاتِ
فرضُ الصلاة وفرضُ الصوم يتبعُه ... فرضُ الزكاة وفرضُ الحجِّ بالذاتِ
هذي الفرائضُ لا يصفو الأداءُ لها ... إلاَّ بِعِلمٍ بأحكام الفريضاتِ
فالعِلْمُ في السعي روحٌ أنتَ تطلُبُه ... لا رُوحَ في السعيِ من غيرِ الدِّراياتِ

العِلْمُ أفــضلُ مِن دِينٍ تكونُ بـه ... عــبداً لِربِّك من بعـد الجـهـالاتِ
فَسِرُّ إيجادِنا عِرفانُ خالِقِنا ... وخالِقِ الأرضِ والسبْعِ السمواتِ
وليس يحظَى بهذا العِلْمِ مِنْ أحدٍ ... إلاَّ ذو النور أصحابُ العنايات
والعلمُ ما يحصُلُ التقوَى بصُحبته ... ولا بِشيءٍ يُؤدِّي للغـروراتِ
ويكملُ الدينُ بالعرفان والتقوى ... ولا بِظُلْمٍ وإعناتِ البـريَّاتِ
المالُ مِعوانُ هذا الدين، فتنتُـه ... أدهَى من المُلْكِ في بعضِ المجالاتِ
والعلمُ يهدي إلى الرحمن في ثِقَةٍ ... سبحانه وهو خلاَّقُ البريَّاتِ
وهو المهيمنُ والتوفيقُ مِن يده ... سبحانه جلَّ عن وَصْفِ البريَّاتِ
كرامة المال في الدنيا مُكدَّرَةٌ ... وعِزَّةُ المُلْك مِن أعلى البليَّاتِ
شتَّانَ ما بين عِزٍّ دائمٍ أبداً ... وزائلٍ بِزَوالِ الإسم والذاتِ
وصلِّ ربِّي وسلِّمْ يا إلهُ على ... محمدٍ خيرِ مَنْ مرُّوا ومَن يأتي

عصرُه وتكوينه العلمي :

كان رحمه الله لغويًا لا يُبارَى(1)، وكان لا يُخفي هذه الميزةَ عن أقرانه، ويعتبرها من المواهب التي خصَّه الله بها، ولقد ساعده إلمامُه بأسرار اللغة العربية على الإكثار من الشعر، وسهَّل عليه التوسُّعَ فيه، فأصبح يُشار إليه بالبنان، ويهابه الأقران، ويلاحظ القارئ لديباجة أشعاره أنه لا يُخفي سعادتَه بالثروة اللغويَّة

(1) لم يكن الحاج مختار الكبير شاعراً فحسب، ولكنَّه كان عالِمًا رصينَ العبارة، حسن التعبير، واضح الفكرة، ولم نعثر على شيء من مؤلفاته الكاملة، وتوجد مخطوطةٌ كان قد شرع فيها بعنوان " تنبيه بني الأوراد " وكان في نيّته أن يؤلِّف كتابا يعالج فيه قضيّةً دينيّة كانت موضوع الساعة في عصره، وهي الطرق الصوفيّة التي كانت قد انتشرت في إفريقيا، فعاجلته المنيّة دون أن يكمِّلها، وقد أوصى أخاه محمد كاسو جابي أن يُكمِّلها بعده، = والمخطوطة موجودة لدى هذا الأخير، ولقد اطَّلعنا عليها، فوجدنا فيه آثار رجل خبير بصناعة القلم، وأكثر ما لفت انتباهنا أنّ أسلوبه في هذه المخطوطة أقرب إلى الأسلوب الحديث منه إلى الأساليب التقليدية القائمة على السجع والجناس، لقد تحرّر تماما من هذه الأساليب القديمة، ويصعب على الإنسان أن يفهم ما إذا كان الحاج مختار الذي عرفه في قصائده لغويًا هو صاحب هذا الأسلوب السهل البسيط الواضح.

وكان رحمه الله موهوبا، فلقد أسرَّ إلى أخيه محمد كاسو جابي أنّ الله سبحانه ألهمه بتفسيرٍ للقرآن الكريم غيرِ معروفٍ لدى معاصريه، ووعده بأنه سيعلِّمه هذا التوجُّه الجديد في التفسير، ولكنه التحق بالرفيق الأعلى قبل أن يلتقي بأخيه في العام التالي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

الضخمةِ التي يمتلكهـا، والتي بذل في تكوينها الغـالي والنفيس، وقضى في التفوق في تحصيلها زهرةَ شبابه، ويقول في مقدمة قصيدته المشهورة "ماآثِرُ تِنْك" إنه نظم هذه القصيدةَ وليس لديه مرجعٌ لغويٌّ يختـارُ منه عباراتهـا(1)، والقصيدة تتميَّز بوجود مفردات من اللغة العربيّة القديمة لا يسهُلُ إيرادُها في مكانٍ واحدٍ دون الاستعانة بكتب اللُّغة القديمة، مثل مقامات الحريري، وفقه اللُّغة.

وقد اشتهر بدعوته إلى تجديد مضمون الشعر، والكفِّ عن البكاء والاستبكاء، والوقوف على الأطلال والاستيقاف، وأن يكون الشعر مُنتَزَعًا من بيئة الشاعر، ضاربًا بجذوره في محيطه الذي يعيشه، ويبدو أنَّه كان يقصُدُ تجديدَ مضمون الشعر لا قوالبَه الفنية، بدليل أنَّه لَمْ يتطرقْ في دعوته التجديدية هذه إلى نبذ الكلمات المهجورة، ولم يبدُ لديه الاستعداد للمساس بالقوالب اللُّغويَّة التي يصُبُّ الشاعر شعرَه فيها، يقول في قصيدة ينعي فيها على شعراء عصره ولَعَهم بالأطلالِ، وذكرَ الديار، وتشبيهَ المرأةِ بالتشبيهات التي شاعتْ على ألسنة شعراء الجاهليّة:

---

(1) يقول الشاعر في مقدمة القصيدة : صلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، لوازم دور الأشراف، تحت ظلال الأرياف، نظمها عبد ربّه المختار ابن الشيخ المُحقِّق أحمد زرُّوق رحمه الله تعالى في مآثر "تِنْكَ" دار مملكة السيد الأريحيِّ، والهُمام العبقريِّ، جِرْنْ عمرُ دلّبا، أطال الله بقاءه، وأدام سناءه، ونصر جنده، وقصم ضدَّه، آمين .

قالها لمّا طاف به وزيره، ووليُّ سرِّه، جِرْنْ بَكْرِ اللَّبويِّ، في جميع أعكانها وحجراتها، وأراه جميع محاسنها، فحثَّني هوى تخليد مآثرها، إلى تقييدها في بطون الأوراق تذكرةً لمَن سيخلف، وتنمِيَةً لِهِمَّة من على هذه الكافيةِ سيقف، من أولاد أولاده المرجوُّ لهم خلودُ هذه البركة فيهم،

وأتيتُ في إيراد أسماء بعض الأشياء بلُغات يتعسَّرُ إيجادُها بغير اللُّغة فصيحها وعصريِّتها، مُوشَّحةً بأساليب مُستحسَنة من البلاغة، يعرفها كلُّ مَن له ذوقٌ بعلوم المعاني، وفنون الأدب،على أنِّي حكتُها وليس معي في تنقيح معانيها من أمَّهات الكتب ما أرجع إليها، إلاَّ فتوح الشام، وهو عن هذا الباب في معزل، حال كون رجاله لا يألفون الديار، فيعرفوا محاسنها، وقلت مستعينا بالله تعالى، ومُصَلِّيا على رسوله الكريم، صلَّى الله عليه وسلم:

دعوا شعراء الحي ذكر المنازل ببرقة أو برقا ذوات الخمائل

فما لكم في تي البقاع وأهلها عفى رسمهم إلا نصيب التماطل

دعوها، دعوها إنها لمذمة ودونكم ذكر المطايا الجوافل

فذكر مشاهير البلاد وأهلها وذكر الغواني طور كل مغازل

أرى شعراء الحي من سوء حظهم من الشعر يختارون ذكر المعاقل

مصاليت في ذكر الخيام ودورهم عشوش أعاليها عشوش الجواذل

يتيهون في ليلى وربات دورهم حلائل من سود الكعوب العواطل

فلا يلهكم ذكر المواسيم وهي من تهامة عن ذكرى مدار الأنامل

فما وصف الكندي أو أهل عصره سوى ما رأوا من حال تلك المنازل

فما بالكم تعدون إثر ركابهم بأشعاركم فانحوا خلاف المجاهل

فما الشعر إلا ذكر ما أنت أهله وإلا فشعرور لدى كل عاقل

وعلى الرغم مِن أهمِّيَّة هذه الدعوة التجديديَّة فإنَّ شاعرنا لم يستطع أن يتخلَّصَ من أساليب الشعراء القُدامَى في قصائده، ولم يستطِعْ مُقاوَمةَ ما في المضمون التقليدي للشعر من جاذبيَّةٍ، فهو يقول في مطلع إحدى قصائده الرائعة في الفخر:

دَعِ العيس في عُرْضِ المهامة تذرعُ وتُمسي، قليلاً ما مِن الليل تهجعُ

وواضِحٌ أنَّ العيس لغةٌ قديمة شائعة الورود على ألسنة شعراء الجاهليَّة، فضلاً عن أنها ليست من عناصر بيئة الشاعر.

وكلَّما كثُر اطلاعُ الإنسان على قصائد شاعرنا، ازداد اقتناعا بغلبة الملكة اللغوية على ملكاته الفكرية والعقلية الأخرى، فلم يستطع أن يتخلص منها حتى في أكثر قصائده رقَّة، ومن غير السهل على الإنسان قراءة أشعاره دون الاستعانة بالقاموس، ومن المؤكَّد أنه حفظ الكثيرَ من مفردات القواميس والمعاجم اللغوية، وحصلت لديه بها أُلفة، وفي التعبير بها مرونةٌ، بدليل أنه يستخدمها في قصائده دون تكلُّف ولا تصنُّع، منسجمةً مع المعاني التي يرمي إليها، مناسبةً للتفعيلة التي يختارها، وللبحر العروضي الذي ينتقيه.

ولقَدْ أدَّى ولَعُه الشديد بالغريب مِنَ الألْفاظ إلى صعوبَة التعبير عن المعنى الجميل في بعضِ أبياته، فَفِي جيميَّته التي يمدَحُ فيها الرسول عليه السلام، يتَّضِح مَدى الصعوبة التي لقيَها في الحديث عن جوانبَ في السيرة لا يَسْهُل الحديثُ عنها عادةً مع القافية الصعبة التي اختارها، فضلا عن أنه استباح لنفسه من الضرورات الشعرية ما لا يعذر فيه مثله، وهو اللغويُّ الذي لا يُشَقُّ له غبار، يقول في بعض أبيات هذه القصيدة :

مِن بعد ما اكْتَزَّ في الآماق ما معجَا — لِلْمُستهام بَدا نجْمُ الهوَى وسَجا

فبات حِلْفَ اكتئابٍ في مُعالَجَة الْـ — أكْباد حيثُ استَباهُ الحبُّ وانشرَجا

يا ويْحَه مِن حبيبٍ دون مسكنِهِ — عن الأحَبَّة سيرُ الدهر والحجَجَا

والربُّ يعلَم أنِّي لستُ أسلوهُ — إن حال مِن دونِنا الآكامُ واللُّجَجا

فكيف أسلوه والرحمان أبرزَهُ — لِلْخلق نوراً يُضيءُ الظُلَم حيثُ دَجا

طه المُشفَّعُ والمُختارُ فازَ به — مَن لبَّ تلبيةَ الإحرام أوْ بَأجَا

والواقع أنّ طبيعة عصره فرضتْ عليه وعلى غيره من معاصريه أن يختاروا من مفردات اللغة العربية أوعرَها، ومن ألفاظها أغربَها، ومن كلماتها أقربَها إلى لغة امرئ القيس والشنفرى، فقد كان التبحُّر في اللغة سِمَةَ عصره، وكان أحد علماء طوبى، وهو "كَرَمَوكُو سَنْكَنْ جابي" يتباهى بأنَّه يحفظ عشرات الأسماء المترادفة لِمُسمًّى واحد في اللغة العربية.

ففي الوقت الذي كان شاعرنا يتقعَّر في الأسلوب، ويورد الغريب من الألفاظ، كان معاصروه يوغلون في السير على غرار الحريري في مثل قوله في إحدى مقاماته :

كدتُ أصلَى ببليه — من وقاحٍ شمَّرية

وكان شعراء السنغال يتَّخذون من غريب الألفاظ مطايا لهم لارتقاء المجد الأدبي، فنجد ذا النون، وهو من فحول شعراء هذا البلد يقول :

وأرسلت السما مثعنجرات — فتبسم من حواليها الزهور

ولم يشذّ شعراء نيجيريا عن هذه القاعدة، فهذا واحد من شيوخ شعرائهم يقول :

عُثْمانُ مَنْ قد جاءنا في ظُلْمَةٍ ... فأزاح عنَّا كُلَّ أَسْوَدَ دجدج
ودعا إلى دين الإله ولم يَخَفْ ... في ذاك لومةَ لائمٍ أو فجفج

ولِكيْ تعترف الأوساطُ العلمية في إفريقيا بالعالِم ومكانته، كان لا بدَّ من أن يكون لُغويًّا، ولا بُدَّ من أن تظهر براعته اللُّغويّة في شعره ونثره، وأن يختار من الكلمات أكثرَها إيغالا في القِدَم، وأغربها عن البيئة المعجمية السائدة، وكان شاعرنا، طبقا لهذه المقاييس، لغويًّا بمعنى الكلمة، وشاعرا مفلقا لديه أُلفةٌ بجوّ الشعر، وسنلاحِظ آثارَ النبوغ اللُّغوي بارزًا في إنتاجه الأدبي أثناء قراءتنا لنماذج من شعره، ومنها هذه الأبيات التي يصفُ فيها القطار وصفًا دقيقًا رائعًا استخدم فيه أساليبَ القدامى في وصف إحدى وسائل النقل الحديثة، وهو القطار، فكأنّه امروُ قيسٍ معاصرٌ يصف جوادَه في القرن العشرين:

ومِنها أروحُ لِـ "مَامٌ" على ... متَى سابحٍ يتَّقيه الفلا
فأعجبْ به سابِحًا عِطفَه ... يثيرُ غبارَ الكُدى بالكَلا
متى ما استويتُ على متنِهِ ... أرى الميلَ في حوزلاهُ كَلا
ويبْعِد بين المساجد في ... مجالِ خُطاهُ ويَثْني الكَلا
فصَبْحي بكَنْكَنْ وظُهري على ... قوارعِ منهَلِه دابُلا
فسبحان مَن ساقني حكْمُه ... إلى مَتْنِه لافتِضاح الفلا

وكان يطمح منذ نعومة أظفاره إلى أن يصل في حذق اللُّغة العربية حداً يباهي به معاصريه، وكان يقول لأحد إخوانه وهو بعدُ مغمور الحال، " إذا كان الناس ما يزالون يقولون عنَّا هذا ابن فلان، فليس ذلك إلا دليلا على أننا ما زلنا نعيش مغمورين، ولا بُدَّ أن نجدَّ ونجتهد حتَّى يكفُّوا عن ذلك، ويذكرونا بأسمائنا" وكأنّه يتمثّل بقول الشاعر العربي:

إن الفتى من قال هأنذا ... ليس الفتى من قال كان أبي

ولقد أجهده السعيُ إلى التميُّز بين أقرانه، فكان كثيرَ الأسفار، وقد زار عدداً من البلاد الإفريقية مثل السنغال التي وافته المنية فيها، وساحل العاج، والسيراليون، وغامبيا، واجتمع بعلَمائها وأدبائها، وقال في بعضهم قصائدَ رائعةً،

وكان يقارع العلماء في ميدان العلم، ولم يستطع مقاومة هذه الرغبة حتى مع علماء الحجاز أثناء حجه، وكان يقول عن نفسه بعد أن يُفحِمَ خصمه " أنا المختار، الكامل الأوصاف، ولقد أوتيت بسطة في الجسم والعلم".

ويقال إنّه كان مرةً في السنغال، فَذُكِرَ له أنَّ عالِمًا من العلماء البارزين سيزور المدينة التي نزل فيها، فوجد نفسَه بين مستقبلي هذا العالِم في المحطَّة التي ما كاد القطارُ يتوقَّف عندها حتَّى تجمَّع خلقٌ كبيرٌ أمام بابه، وما كاد العالم يُطِلُّ من الباب حتَّى قال يسلم على مستقبليه " السلام عليكم يا جَمَاعَةُ المسلمين" بِضَمِّ الميم في " جماعة" فقال الحاج مختار لأتباعه والأسى يعصرُ عباراته عصراً: لقد ضيَّعتُ وقتًا ثمينًا في انتظار عالِمٍ لا يميِّز بين المُنادَى المضاف والمنادَى غير المضاف، ثم انصرف إلى منزله.

وكان رحمه الله إذا سافر عاد إلى طوبى بالمراجع النادرة، والكتب القيِّمة، ويقال إنَّه في رحلة حجِّه إلى مكَّة صرف كلَّ ما معه من مالٍ في الكتب، وعاد إلى بلده، على خلاف العادة، خاليَ الوفاض من الهدايا، ولقد كان من نتائج شغفه بالعلم أن حقَّق تميُّزًا في معرفته باللغة العربية المعاصرة قلَّ أن حظي بمثِله عالِم من معاصريه، وكان تحصيلُ مثلِ هذا المستوى من معرفةِ المصطلحات العصريَّة من الأمور الصعبة على جيلٍ من العلماء التقليديين لم تكن أيديهم تصِلُ إلاَّ إلى القليل النادر من الكتب التقليديَّة، ويكفي أنَّه - نتيجة لثقافته اللُّغوية العصريَّة - تحمِل قصائده أسماءً معاصرةً مثل " الترمواي" و" اللُّولب" و" الإكسبريس" وغيرها من المفردات الحديثة التي كان يُعتبَر الإلمامُ بها سابقةً لأوانها في تلك العصور.

ومن الذكريات التي خلّدها عن السنغال حيث قضى وقتًا من حياته، قصيدته التي يقول فيها :

وَداعُ شجٍ في كلِّ عِرقٍ لَه شجًى ... عن اللهف والتيهام ليس له صبرُ

دعاه سُرًى في إسْبِريسٍ[1] ودُجلَةً ... فيا ليته يُمْلي ويَمْضي له شهرُ

فيلتذُّ مِن إصقَنْدِ سِنغالَ وهي أنْ ... يُحاوِرَكُم في كلِّ فنٍّ له ذِكْرُ

فيقصُرُ ليلٌ وهو أطولُ ليلةٍ ... ويجْراً في إمضا قضيَّته الفجرُ

ركِبْتُ وأوْدَعْتُ الأحِبَّةَ جُملةً ... وشيخ العُلَى في حرز ربٍّ له الشكرُ

---

(1) إسبريس، قطارٌ معروفٌ في السنغال EXPRESS.

وفي كوت دي فوار (ساحل العاج) يذكر بعضَ العلماء الذين التقى بهم، وكانت بينه وبينهم مطارحاتٌ شعريةٌ، ويتحدث عن بعض المدن الهامة التي قضى فيها أوقاتًا طيبة، يقول في قصيدة، وهو يمدح " السنوسي " أحدَ علماء " دلْوَى ":

عُجْ بالفتى حاديَ الرُكبان وازدلفا ... بباب دلْوَى لأمرٍ فيه قد وُصِفا
وقِفْ بُعيد غُدوُ الركبِ حيثُ أرى ... سنا السنوسيِ في أشياعه العُرَفا
وأجتلي في مُحيَّاه العنايةَ من ... مولًى حَباه بما في أمره عُرِفا
مِن أُبْهةٍ واصطفاءٍ بعدما شهدتْ ... له الفطاحلُ بالعرفان والشُّرَفا
هلِ الولايةُ إلاّ دور دائرةٍ ... على السنوسي له سِرُ العُلاَ انكشفا
فنال بالعلم ما نيلَ الكرامُ به ... وما يُقالُ لِفضل الله كم صُرِفا
مقاصدُ الربِّ في التنزيل أودعَها ... في صدره فغدا لا يسألُ الصُحُفا
شواهدُ الحقِّ في تفسيره أبْدَتْ ... له الولايةَ والتقديمَ والشرَفا
فسِرْ أميِنًا على سرِّ الولاية مِن ... مولاكَ واحمد مَن ولاّك مُعترِفا
بِما شهِدْتَ من الأوصاف صُغتَ فها ... دلْوِي بِبَحْرٍ بسيطِ الموج قد غرِفا

ومن قصائده التي تتَّسِمُ بمظاهر الحضارة المعاصرة في قالبٍ من الشِّعر التقليدي قوله، وكان قد حلَّ في الخرطوم ضيفًا، وكان في طريقه إلى الحج :

أيا سائقَ التُّرْماي تشتاقُ أرجلي ... شوارِع أُمْ دُرْمانَ إن شئْتَ فامْهَلِ
وإلاَّ فايفادُ البناجينِ دُفعةً ... إلى ولَد المهديِّ لا بُدَّ مُوصِلي
أتيتُكَ يا شمسَ الدهاقين إنَّ لي ... بشاطِئِ أطْلَنْطيقِ أعذبَ منهل

وكان له في السودان ذكرياتٌ جميلة التقى فيها بشخصيّاتٍ خلَّدها في بعض قصائده، ومنها قوله في شخص اسمه أبو بكر:

خرجتُ أُلبِّي دعوةَ الحقِّ لا أدْري ... مُعينًا على أوبي(1) كجُود أبي بكر
فلم أرَ في الخرطوم من أستغيثُه ... ولا في قُرَى السودان إلاّ أبا بكر
أعِنِّي، وفي عون الحجيج فلاحةٌ ... ومنقبَةٌ تعلو على كلُّ ذي وفْر

---

(1) رُجوعي، يقال آب يؤوبُ أوباً إذا رجع.

وألْجـــأني لِلْعـــونِ طُولُ إقـــامـــتي زُهـا أشهُرٍ في فُـورْتُ لامِي أخا عُذر
يُجـازيك ربُّ البيت بـالـخـيـر إنْ تُعِنْ وإلاَّ فـــلا أشكو لزيدٍ ولا عـــمـــرِو

وفي مكة يتحدث عن ليالي الحجِّ الممتعة التي يقضيها الحجاج حول المطاعم الشعبية، ويصف صاحب مطعم اسمه أبوعثمان، ويتحدث عن براعته في إدارة مطْعَمِه، ومهارتِه في تقديم الشاي واللحم المشوي لزبائنه، فيقول:

مَن لَمْ يُقـابِلْ أبَا عُثْمـانَ مُـحـترِمًـا حقَّ المُروءة، لَمْ يُبْـصِرْ ولا كـرَمَـا
يُدني لِـهـذا شِـوا الـخِـرفْـان ثُمَّ لِذا قـواقِـزَ الـشـاي مِنْ ذا قَطُّ مـا سَـئِما
ومـا يُـعـانيـه في طبعِ الرُّسـوم وفي صرف الدراهيم في أضيافِه الحُجما
أكْـرِمْ به مِن هُمَـامٍ حـالَ غُـربتِـه سـاد النظائِرَ في العِربان واحْتُرِما
أموالَه في اكْتِساب الأجرِ يُنفِقُهـا تفـضُّـلاً ويَرِي أضـيـافَـه نِعَـمَـا
أرقُّ من نَسـمـات الـسَّـحْـرِ شيـمـتُـه وطيبُ عِـشرَتِه يُنْسِي الـفتَى أُمـمـا
فـالله يجزيه عن وَفْـدِ الـحـجـيج بِمـا يهـوَى ويُحـيِي إلى حـيطانه كـرمَـا

ويدلُّ على ثروته اللغويَّة الواسعة قصيدتان تظهر فيهما براعتُه في استخدام الألفاظ العربيّة القديمة، فقد ضمَّن إحداهما أغذيةَ العِربان، ومـا يُسـتعمل من الحديد، وأسماءَ أعضاء الإنسان، وأسمـاءَ الطيور، وأسمـاءَ الحيـوانات وأسمـاءَ أطفالها، وأصـواتَهـا، والمـلابسَ وأنواعَـهـا، ومـا يخصُّ العربَ منها والعجمَ، والأخرى قصيدته التي سارت بها الركبان، وهي "مآثر تِنْكَ" التي اشتملت على غرائب اللغة العربية ممَّا يصعب على غير الملِمِّ بها أن يفهمَه، وسيقف القارئ العزيز عليهما.

خصائص شعره:

يلتقي في شعر الحاج مختار الكبير جملةُ خصائص فنِّيّة وأسلوبية، منها ما يرتبط بالمحسّنات اللفظية، كالكناية والاستعارة، والطباق والمقابلة، ومنها ما يرجع إلى أغراض الشعر التي طرقها الشعراء قديما وحديثا، كالفخر والمدح، والغزل والرثاء، ولعلَّ أبرزَ هذه الخصائص المظهرُ اللُّغويُّ الذي يطبع جميع قصائده، فلا يمكن لك أن تقرأ له البيت أو البيتين دون أن تعثر على مفردة أو أكثر

من اللغة الأصيلة الرصينة، وينبغي أن تكون ملمًّا بالكثير من مفردات اللغة العربية القديمة حتَّى تستطيع قراءة قصائده دون أن تستعين بالقاموس بين الحين والآخر، فهو كان يعتني بتنظيم عباراته، واختيار ألفاظها ذات الدلالة الدقيقة على المعنى الذي يريده.

وعلى الرغم من سيادة المظهر اللُّغوي على قصائده، فإنَّ ذلك لم يؤثِّر في اللغة الشعريّة التي تطبعها، ولا في العاطفة التي تتخلّلها، ولا في الجرس الموسيقيِّ السلِسِ الذي يسري في قصائده جَرَيانَ الماء الزُّلال في الجداول، ولم يجعل من قصائده نظمًا من الشعر التعليمي الخالي من خصائص الشعر الوجداني، فلقد استطاع أن يستغلَّ ثروته اللغوية الواسعة في تنويع قصائده، وتوسيع قاعدة أغراضها، فالتقى فيه الشاعر المفلق، واللُّغويُّ المتبحِّر.

تُذكِّرُني أحوالُ مَعْدُولِ عامرٍ — مَخايِلَ مِن خاقانَ أو آلِ برمكِ
فَخارٌ ومجدٌ في ثراءٍ تأبَّدَتْ — حِيازتُها عن كُلِّ قَدْمٍ عَرَكْرَكِ
صباحًا يُحَيِّي "قَرَبْ يحيَى" وغيدُه — مساءً تُحيِّيه نواقيس أمْرَكِ
لَوازمُ مجدٍ في جِوا "تِنْكَ" جمَّةٌ — فإنكارُها لا يُستساغُ لِمُشْرِكِ
جِيادٌ وأبقارٌ، أكافٌ وشِيرَةٌ — وأحْذِيَةٌ بالكهْرَبائِيِّ تُشْرَكِ
دساكرُ تُزْرِي عرشَ بلقيسَ فُرشُها — أرائكُ أحلاسٍ، طنافِسُ دومَكِ
مِخادٌ زرابيٌّ، مَساوِرُ سادَةٍ — مَنابِذُ في حافاتِ بيتٍ مُفلَّكِ
بِلاطٌ من الألماس في حُجُراتِها — وأعْمِدةٌ ترْسو بِجِيرٍ مُفَلَّكِ
حرائرُ دُعْجٌ مُبْرِقاتٌ غَرائرٌ — عليهِنَّ أدرانٌ على كُلِّ مَسْلَكِ
لَهالِهُ تُجْبَى مِن هَراةَ وبَعْضُها — مِنَ الرومِ في تِمْثالِ آثارِ سُنْبُكِ
شُنوفٌ وأقراطٌ ورَعْثاتُ ربَّةٍ — قلائِدُ فوق المُرْسَلاتِ لِمِحْنَكِ
بَنونٌ ظِرافٌ في دُروعٍ مُروقَةٍ — لِكلٍّ حِذًا دراجةٌ غيرَ مُنْهكِ
فنادِقُ مَلأَى بالخَلاصاتِ فوقَها — مَسائِبُ عُكَّاتٍ على رأيِ مُلْبِكِ
شِياهٌ ومُخّاتٌ، دُيوكٌ وديكَةٌ — فَواكِهُ تَجْنيها يدا كُلِّ مُدرِكِ

مَقـاهٍ أتى من أرضِ طَنْجـةَ بَذْرُها وشـايٌ أتَى مِنْ تلمِسـانَ ومَعْرَكِ
رُفوفٌ وطـاساتٌ، كئوسٌ مَليئَةٌ وأخـونَةٌ فـيـهـا نضـائِدُ درْمَكِ
مَلابِسُ مِن نَجرانَ بَلْ كُلُّ مَلْبَسٍ يُزَوِّقُـهـا الـفُـلانُ لِبْسَ المُـملَّكِ
صنادِقُ مَلآى بالملابسِ مِنحَـةٌ من الله ذي الألْطافِ لا مِنْ مُـرْبِكِ
هلِ القَرْمُ بِدْعٌ مِنْ دَهـاقِينِ أرْضنا لِكلٌّ على ديوانِه حَــدٌّ نَيْــزَكِ
فمـا عادَ مِنْـهُمْ غيرُ قوتِ عِيالِه وأَكْسِيَـةٌ تَبْـقَى بهـاءَ الـتـملُّكِ
لقَـدْ رُزِقَتْ واللهِ أمُّ الغَـضنفَـرِ بأرْوَعِ مـحذورٍ لـدى كلُّ مَعْرَكِ

ومن النمـاذج التي تدل على ثرائه المعجمي قصيدتـه العصمـاء "مـآثر تنك" وهي هذه :

وتجد في أشعاره خاصيّة أخرى وهي الوجدان الذي ينطلق منه في كثير من قصائده، فـيصف معاناته الشخصيَّة، ويَصوِّر ذاتَه الشاعرةَ، وعادة مـا يبتعد أثناء ذلك عن التوعُّر في الكلام، فيلفُّ أشعارَه جوٌّ من السهولة والبساطة، يقول في بعض قصائده التي يرثي فيها ابنَه "محمد الأمين" الذي توفي في "بنجون" بالسنغال :

دَعاني إلى المولـى بقاءُ وِصالِه وأزهَدَني في الغير خوفُ ارتحالِه
فلم أرَ مـحـبوبا يدوم وِصـالُه ألم تَرَ فـقـدانَ الأمـين وحـالِه
دَعَـتْـهُ إلى أعلَى الجِنـانِ أريكَةٌ فـغَـادَرَني -والله- عبد خـيالِه
خيالٌ على كَرِّ العصور يزورني فتنـهب أوصـالي جنودُ جـمـالِه
فـلا أتَّقِي بعدَ الأمـين وعـقلِه عن القبر إذ فـيه صفاتُ كمـالِه
فَدُنْيَايَ قَبْرٌ والقبور حدائقي لكونك فـيهـا يا جميلَ خصـالِه

ويقول فيه في أبيات أخرى :

علَى أديمِ ثرَى "بِنْجُونَ" لِي كُرَبُ وغيَّبَ الحِبَّ عن أقرانه "كبب"
فَلاَ تَحَرُّزَ لي من بعد غـيبـتـه ولا أرَى من صرُوفِ الدهر أحْتَجِبُ
علَى رِضًى بِقَضَا الجبَّارِ خالقِهِ فَـمَـا لِحَيٍّ غَـدًا أُخْـرَاهُ مُنْقَلَبُ
أَلَـمْ تَرَ الـحِبُّ مَنْ أَثْوَابُـهُ نُزِعَتْ وسوِّيت فوقَهُ الأوراقُ والقَضَبُ

أغراض شعره :

1. المديح:

لقد طرق الحاج مختار الكبير ميدان المديح، فأبدع فيه، وكرّس معظمه في مدح الرسول عليه السلام، ولعلّ فنّ المدح أغراه أكثر من غيره لإبراز مقدرته اللغوية، فلا يكاد يلج هذا الميدان حتى يُرخي لملكته المعجمية العنان، وتطغى مواهبه اللغوية العليا على مواهبه التعبيرية الأخرى، ويتضح ذلك جليا في المدائح التي خصصها للرسول ﷺ، فلقد حرص كلّ الحرص على أن تبقى هذه المدائح محكَمةَ السبك، مترابطة الحبك، ذات تعابير رفيعة يأخذ كلماتها من التراث اللغوي القديم، من حيث تعوّد شعراء الجاهلية أن يأخذوا فيه ألفاظهم، والقصيدة الآتية تدل على ذلك :

مِن بعد ما اكْتَزَّ في الآماق ما معَجا *** لِلْمُستهام بَدا نجْمُ الهوَى وسَجا
فبات حلْفَ اكتئابٍ في مُعالَجَة الْـ *** أكْباد حيثُ استَباهُ الحبُّ وانشرَجا
يا ويْحَه مِن حبيبٍ دون مسكنِهِ *** عن الأحِبَّة سيرُ الدهر والحججَا
والربُّ يعلَم أنّي لستُ أسلوهُ *** إن حال مِن دونِنا الآكامُ واللُّججا
فكيف أسلوه والرحمان أبرزَهُ *** لِلْخلق نوراً يُضيءُ الظُّلَم حيثُ دَجا
طه المُشفَّعُ والمُختارُ فازَ به *** مَن لبَّ تلبيةَ الإحرام أوْ بأجَا
هو المُقفَّى ومَن يأبَى دِيانتَهُ *** فقُوتُه من فحوم النار ما سَمُجا
فوق البراقِ إلى أوَج الكرام سَرَى *** وشاهَدَ الغيبَ أو استَلَم الأرَجا
يخطو خُطَى الفسح والأحداقُ تَرْمُقُه *** إذ كان مُخترِقَ الأستارِ مُدَّمِجَا
في ذلك الحين أضحَى الروحُ مُنتَهِيًا *** في مُنتهاهُ ومِنه مَرَّ مُنتَهِجَا
حتّى انتهَى حيثُما الرحمانُ شافَهَهُ *** مَلَّحَ التحيّاتِ طابتْ ريحُها أرجَا
بِه فرُحِّبَ لا ترحيبَ يُشبِهُهُ *** ترحيبَ مولاهُ في الأشداقِ ما بلَجَا
خلا به ربُّه إذْ ذاك يُوْزِرُهُ *** فاهتزَّ موسَى لهذا الفضل واختلجَا
والربُّ أبدَى له عُظْمَى عجائبه *** مِن رؤْيَة الوجه والسُبْحاتِ إذْ درجا

هنـاك أحـرزَ مــا أعْـيَتْ حـيـازتُه كُلُّ الورَى فـاجْتَلَى يَبْدَي ضيا السُرَجَا
ورُخَّص الـدينُ كُلَّ الرُّخَص، أمَّـتُـه في رُخـصـة الدين للرحـمـن إذْ نَأَجَا
وقـام رَيَّانَ عن أكـوابِ مَـشْـرَبَـة الـ أسْـرار فـضـلاتُهـا الأنبـاءُ إمـتلجَـا
فــجــاء يـزدادُ في الملَكوت تَكْرِمَـةً والأرضُ بـالنـور والأفـراحُ قـد ثُلِجَـا
مــا أسـدٌ من أسـود الـغـاب يُشْـبـهـه إذْ عـسكرُ الكفـر والإسـلامُ اعـتلَجَـا
مــا جــاولَ القِـرْنَ إلاّ أو يُجـرِّعُـه كـأسَ الـحـواليقِ والأتراحَ والـحـرجـا
وصــاحـبـتْه رِجـالٌ كـان دَيْدَنَـهم في الله أن يبذُلوا الأرواحَ والمُـهَجـا
وبـارزوا كلَّ جلدٍ في جـــلادتـهـم حـتّى بدا يشـتكـي الأتراحَ والوهْجَـا
في زيٍّ رمْـضـان هلَّ البدرُ فـي زُمَـرٍ من النجـوم ووجـهُ الأرض قـد دعـجـا
وأصــبـحـت مِلَّـةُ الإسـلام واحــدةً بِيـوم أحْـدٍ وباد الكفـرُ وانفـرَجـا
كم مـن دمــاءٍ مـن الكفــار سـالت في فتـوح خـيـبر حـتَّى صُيِّـروا هُمَجـا
مــا أنـكرته رجـــالٌ حــدَّ دولـتَــهم بآيـة الحقِّ، إذْ أبـدَى لهم حُـجَـجَــا
كم أنكروه ومــال الدوح يتـبـعـه مِن الأسـاس، دعـاه المـصطفى فنَجـا
في ذلك الـحـين حنَّ الجـذعُ في شـوقٍ إليـه، إذْ بـان من مـثـواه واخـتُلِجـا
وأخـبـرتْه بِسَمٍّ حـيث سَـمَّـمـهـا طُبَّـاخُـهـا الـشـاةُ أنَّ الـسمَّ إمـتـزجـا
ســارتْ إليـه وفــودُ البـغـي تـطلُبُـه لَمَّـا أتَى بابَ حـجـر العُكبْ أو ولَجَـا
حــتّى أتـوا بابَه والـعنكبـوتُ بهـا قـد نسـجتْ كلَّ فـضـفـاضٍ به رتَجـا
واخـتـلفـوا بينهم إذْ ذاك وانصـرفتْ منهم وفــودٌ إلـى الأوطان وادلَّجــا
مُـحَـمَّـدٌ سـيِّـدٌ أعـيتْ مـفـاخِـرُه يدَ المـدائح والتـشْـعــار إذْ عـرجـا
عليــه مـن صلـوات الله أشـمـلُهــا مـا حـاز مُدَّاحُـه الأعـلاقَ والصلُّجـا

ومن مدائحه النبوية هذه القصيدة :

لمــولده مــاء الـبـحـيـرة غــورت وقـوض عن كـسـرى درى كل هـيكل
وحــســبـك آيات خـــبــو مــآجج لفــارس أو أبدى الجـسـا كل نهـبل

لمن مد أقلام التحدي لفضله أحاديثه نصا أحاديث منمل
ومن ذا الذي يمشي ولا إثر مشيه يرى، ويرى من خلف ظهر كمقبل
ومن ذا الذي فاه الدراع يسمه له، وأتاه ماشيا دوح قرمل
ومن ذا الذي يرجى لديه شفاعة إذا فر منها كل أجر مفضل
فقل سيدي المختار يعطيك ربه مغانم لا تغزو عليه بمنصل
أيا سيدي أنت الذي سعدت به نفوس أضاعتها صروف المخبل
وأنت الذي أبدلت عين قتادة بعيد العمى جهرا بأضوء قيهل
وعالجت من وخز العلوج بفرجة بجنبي حبيب وابن عفراء معضل
ولامست ضرع الشاة من بعد نشفها فدرت فواقا ما يكال بناطل
وناديت عام المحل ربك داعيا بغيث وقد ناء السماء بحومل
وفي يدك الأحجار سبحن أبهة وداثر آبار أماهت بسلسل
معاجيزه فوت اليرامع والحصى تنه ومن رزء الحسين تزلزل
وفيه تهيف واعمد الدمع مفرغا مذانبه واغرف إليه وأقبل
بكيت على تلك الديار بحرقة وفي كربلا أمشي رشيف مكربل
وقد ساءني رزء تولى بوقعه يزيد وما عنه الرضاء بمعزل
أفيضوا على علق هريق بأمره هطولا تلت ثوبي جنوب وشيمل
ولا تنتهوا حتى تجف دموعكم هيوما بسيط في اللقاء مهرول
وناهيك من سبط يحلحل حجره بمرأى سنا حجر النبي المحلحل
فعنه أيا رحمان ارض وصلين على من غدا للدين خير مكمل

ومما يلفت النظر في مدائحه أنّه لا يتنزل فيها إلى منزلة دون منزلة الممدوح، فعندما تقرأ هذه المدائح تشعر بروح إنسان عزيز النفس، لا يساوره شكٌ في أنّه أفضل من ممدوحه، ذلك أنّه لا يمدح للتكسُّب، ولا تجول في مدائحه رنة من تملُّق، فلقد أكرمه الله في دنياه ونعمه، وإنّما تربطه بممدوحيه علاقة صداقة وحبٌ وتقديرٍ، أساسها العلم والصلاح اللذان يشترك فيهما معهم، والأبيات الآتية تدلُّ على ذلك:

يقول وهو يمدح صهره الحاج إبراهيم جابي وقد عزم على الحج :

زوروا بِزَرْوَةَ مُـعْـيِي اللفظ والقلَم ... رُكْنَ الحطيم وشُمُّوا عَرْفَ ذي سلَم
واسعَوْا مساعِيَ في أبوابه ولَكُم ... أغنَى مزارِ حِمَى الضرغام عن حرم
بُشْرَى لكم رُفقاءَ الشيخ إنَّ لَكُم ... حجًا وحجًا بذا الضرغام والحرَم
بُشرَى لكُم وكأيِّن إذْ يُهيِّجُكم ... موجُ البحار مع الجرهاس من كرَم
فاحذوا حِذاه وقد تحذو الأهلَّةُ في ... أفْقِ السما بشُعاعِ الشمس في الضرَم
كأنَّني إذْ أقلَّتْ عينَ موكبكُم ... بواخرَ البيضِ قلبٌ قيدَ في ضرَم
" بابُور " جِدَّةَ هل تدري الوليُّ على ... فولاذِ سقفِكَ كلاَّ إحْكِ قولَ لَم
لولا الجهالة ما هزَّتْكَ سائلَةٌ ... من المياه ومنكَ الدوحُ في أمَم
دوحٌ تفرَّع عن أغصانه ظُلَلٌ ... تأوي إليها عُفاةَ النور والحِكَم
أعني به الحاجَّ إبراهيم إبنَ أبي ... معدولَ عامر إبنَ القُطْبِ والقثَم
إن قلتَ شمسٌ فمَن للطُّوس أو بِحَيا ... إن قِستَه فمِنَ القاموس في السُّجَم
فأوجَب الجمعَ والإجمالَ عجزُكَ عن ... تفصيلِ شيءٍ فبالإجمال إحتَكِم
عُرْبُ الجزائر هلاَّ تسألوه عنِ الـ ... بيان والنحو والتصريف والحِكَم
وعَن فتاوى علوم الفقه غامضها ... وعن مواد علوم للمعان نُم
فَلَن تروا لِعلوم الشرع ماسِكَةً ... من الظروف كظرْف الشيخ ذي الحكَم
قدْ نال ما نال مِن آبائه وحَوَى ... إلى التراث حِما المعدوم للقُحَم
وهَزَّه همَّةُ الآباء فاقتحما ... موجُ البِحار إلى البطحاء والحَرَم
طافتْ ذُكاءٌ حِما الجوديُّ يخدمها ... بُرجُ العُطارِدِ تبدِي كلُّ ما ضرم
مِن بعدما أشرقتْ كُبرَى أشِعَّتِها ... قُرى الجزائر أو وَهْران أو أدَم
وبَرٌّ في العام حجُّ الكُلِّ تكرِمَةٌ ... للشيخ مِن خالق الأشباح والنَّسَم
بُشرى لنا أهلَ طوبَى إنَّ مِشْوَذَنا ... أتَى بِأمرٍ ثوَتْ فيه يَدُ العدَم
بُشرى لنا أهلَ طوبَى إنَّه وفدَت ... إليَّ بُشْرايَ بُشْراً كُلُّ مُحتَرَم

ويقول في أحد علماء موريتانيا:

على غِرةٍ عرف المُعمَّى تضوعًا | فعمَّ سُوَيْداءَ القلوبِ وأجزعا
وكرَّتْ خراطيمُ المعاني يردنَه | فصادفنَه في نجلِ أحمدَ مُودَعا
محمّدِه المَهْديِّ شمسِ أوانه | فأحوالُه تُعيي القريضَ المُوزَّعا
زكا مرزُه فاحتلَّ فرعُ سنائه | محلاً ونَتْ عنه قُوى كلُّ أروعا
وظاهره العنوانُ عن سرِّ أمْرِه | ورشٌ إناءٌ بالذي فيه أُودعا
شمائلُه ثوب النسيم وخُلقُه | جآزرُ حِسْيٍ يرتعين الخروعا
مسائلُه نُعْيي الكُمَيْتَ فكاكُها | قصائدُه أخْزَتْ جريرا و مِربَعا
ثِقوا بِمُناكُم أهلَ كَنْكُا فإنَّه | حريٌّ بإتْحاف المقاصد أجْمَعا
أحيلوا إناكم أهلَ كَنْكُا لوبْلِه | ليُسْقيكُم سَقْيَ الكرام ويَترعا
ولا تُلْهِكُم فيه اتّحادُ الجدودِ عن | جَنَى روضِه المُغني معَى كلُّ أجوعا
وقدْ صدَّ عن حوزِ المقاصد فِرْقَةٌ | تحليهِمُ لُبْسَ التكبُّرِ مُدرَعا
فهاكُم وهاكُم أهلَ كَنْكُا وهاكُمُ | معينَ جداءٍ بالدراية مُترَعا
ومَن لَمْ ينَلْ نولَ اليآبي فحظُّه | نحوسٌ ومن أشْقَى الشقيُّ المُفَجَّعا
فذكرُ حَلا تِعلامَةِ القُطرِ شائعٌ | شيوعَ شُعاعِ الشمس فقرًا ومربَعا
أيا سيِّدي هاك الجوابَ لِقائلٍ | على غرةٍ عَرفُ المُعمَّى تضوعا

ويقول في أحد خلصائه :

طِيبُ الحياةِ وَخَيْرُ يومِ الموعد | تحتَ الرِّداء على الرشيد المُرشِدِ
نجلِ الشريف ابن الشريف وحسبُه | بِبُنُوَّةٍ للمُصطفَى في المَحْتِدِ
ما راقَني بعد الرشيد وعلمه | مُتشرِّفٌ من أصله في الأنجدِ
إنَّ الشجيَّةَ أبرزتْ أنسابَه | فإذا الشجيَّةُ سِرُّ طيبِ المَحتَدِ
إنّي وربِّي مُولَعٌ بِودادِه | وعلومِه وخِصالِه في السُّنَدِ
ومُبايعٌ بِمَعيَّةٍ لِحَياتِه | ومَعادِه ونُشورِه للمَوعِدِ

ويقول في أحد علماء مدينة كانكان الغينية، وقد عزم على الرحيل إلى "دابولا": (1).

خليليَّ صيغا الثنا والعُلا ‏ ‏ ‏ ‏ وبيعا نفائسَكم بالحُلا
وبُثّاه إن بُث عِير الفَلا ‏ ‏ ‏ ‏ لنجل الغضنفر فخر المَلا
إمامُ الأئمة في عصره ‏ ‏ ‏ ‏ وشمسُ الدياجير في الاجتلا
إمام حوَى كلَّ مجْد سما ‏ ‏ ‏ ‏ وساد على جيله مسجلا
إمامةُ علم الشريعة وال ‏ ‏ ‏ ‏ حقيقة قد حازها واعْتَلا
مَـريئ تقي نقيُّ الحجا ‏ ‏ ‏ ‏ كثير المزايا وتيكَ الحُلا
أردت تقلُّبَــه في يدي ‏ ‏ ‏ ‏ فقال العوارف مَهْ واقبلا
فسبحان من خلقه حسّنه ‏ ‏ ‏ ‏ وصوّره في صكوك العلا
تقاربتُ في خُطوتي عنكم ‏ ‏ ‏ ‏ فوجهي إلى كوركم قد جلا
فها أنا جئت لتوديعكم ‏ ‏ ‏ ‏ أريد الغدوَّ إلى دابُلا
ومنها أروح ل "مامُ"* على ‏ ‏ ‏ ‏ مَتَى سابح يتّقِيه الفلا
فأعجب به سابحا عطفه ‏ ‏ ‏ ‏ يثير غبار الكدى بالكَلا
متى ما استويتُ على متنه ‏ ‏ ‏ ‏ أرى الميلَ في حَوْزلاه كلا
ويبعُد بين المساجد في ‏ ‏ ‏ ‏ مجال خطاهُ ويُثنِي الكلا
فصبحي بكَنْكَنْ وظهري على ‏ ‏ ‏ ‏ قوارع منهله دابُلا
فسبحان من ساقني حكمه ‏ ‏ ‏ ‏ إلى متنه لافتضاح الفَلا

2 . الغزل:

وإذا قرأت له غزلاً ـ وهو في الواقع قال عِدَّةَ أبياتٍ في زوجته ـ لم تشعر بأنين قلبِ عاشقٍ برَّح به الهوى، ولكن بتلك الروح التي تنظر إلى شريكة حياته نظرة الأب

(1) دابولا، مدينةٌ غينيَّة مشهورة.

(*) مامُ مدينة في غينيا.

الحنون، ويخلو غزلُه من الفُحْشِ في القول، والتصوير الحسيِّ الجريئ، فهو لا ينقلُ تعبيرَه عن مفاتنِ المرأة من حيث ينقل شعراءُ الغزل تعابيرَهم، فالرموز الدينيّة الجميلة معينٌ لا ينضبُ يستعيرُ منه تشبيهاته، ولذلك عندما أراد أن يُشبِّه عيني ممدوحته، لم يجد أحسنَ ولا أروعَ من عيون ظِباء الجنَّة، وهي - بدون شكٍّ - الحُور العين اللاتي ورد تشبيههُنَّ في القرآن الكريم باللُّؤلُؤ المكنون، يقول في زوجته السيّدة فاطمة جابي رحمها الله، وكانت ذاتَ حظوةٍ لديه :

ثلاثةٌ من مَـزَايا آل فـاطمـةٍ ... شَفَرُ المهَى وصفاءُ الدرُّ والعَبَقُ

أرى عيونَ ظِباءِ الخُلْد ترشُقُني ... إذا تثنّتْ على تهزيعِها الفُنُقُ

ندّى هواها أجاحتْ قلبَ عاشقِها ... يُجيحُ بالزرْع في أوراقِه الغَمَقُ

لَها جُنودٌ على الأتراب مُجْحِفَةٌ ... حسْن الدلال ومِن أحسابها الفَرَقُ

3 . الفخر:

وله في الفخر قصيدة عصماء قالها في أواخر أيامه، وهي آخر قصيدة له، وتتجلى فيها براعته في الوصف، كما يبدو فيها الميل إلى العزوف عن التوعر في الأسلوب، والنزعة إلى الوضوح، والبساطة في التعبير، يقول وهو يفخر بقبيلته " آل جابي" :

دع العيس في عرض المهامة تذرعُ ... وتُمسي قليلاً ما من الليل تهجع

وخل لمحْبوكِ السراة زمامه ... ووال السرى علَّ المداركَ تملع

مدارك أعلام إذا ما ذكرتُهم ... بُرُوق الأسى بين الجوانح تلمع

رجالٌ على أوج الكمال تَسنَّموا ... وأنفسُهم نحو المكارم تهلع

شذاهم على كرِّ العصور ذكية ... وآثارُهم بين الكراريس تسْطَع

إذا شرُفت نفس الفتى كان قلبُه ... مطيتَه يسطو عليها وينجع

لقد كرُمَت قبلي أوائل أسرتي ... وإني بتقبيل المكارم مولَع

مكارمُ عرفانٍ وزهدٌ وتوبةٌ ... شُغِفتُ بها علّي بها أتبرقَع

كأجدادنا أعني المفسرَ سيدي ... محمد بالتفسير ما زال يصدع

أتى بمعان في التفاسير لم يقل ... بأمثالها في العُرْب والله مُسمع

وسيدنا الغِطريف الحاج سالم ... لأخمصه أهلُ العلوم تضعضعوا

لقد زار أعيان الرجال تطفُّلا ... لِروْمِ الهدى في أربعين يُجَعْجِع

فحاز علوما لم يَنَلْها معاصرٌ ... له، وبدا قُطْبا عن القوم يدفع

وأولاده الغُرُّ الميامين إنهم ... بدور على أفْق الولاية تطلع

ومنهم حليفُ السبقِ في كل خِصلة ... محمد بالتسليم في الله يُوزع

حوى كلَّ ما يحوي وليٌّ بربه ... من العلم والتقوى يسود ويُبدع

ووالده الحبر الخبيرُ السميدع ... ففي كلِّ فن في المعارف يبرع

ففاض على جيرانه وزمانه ... تصدَّرَ في الديوان هل من ينازع

ووالده عبد الله عبد لقادر ... محمد بالتسليم يُدعى وينصع

ووالده فخرُ الولاية شمسُها ... كرنْمُخْبَا فخرُ السوادين أبصع

ألم تر في الغرب المدارسَ كلَّها ... فطوبى لها أصلٌ ونورٌ ومنبع

3. الرثاء:

وقد طرق ميدان الرثاء فأجاد فيه، وترك في ذلك نماذج جيدة من الشعر الحزين الرزين، ومنها هذه القصيدة :

ما لِلْوالِبِ يا جُنْغَاسَ لم تَدْرِ ... وما لأَمْراسِهَا زَوْراءَ لم تَسر

سَلْها شِفاها لو أن النُّطقَ يمكنها ... لأخبرتْ بجلاء الندب ذي الأثر

ندْبٌ بكاه جبال الأرض قاطبة ... حتى السما وبكاهُ الصيف بالمطر

حتى هجيجُ جنوب الخير باكية ... وللبكاءِ على فقْد الهمام حَرِ

ما فقْدُ أحور تأتمُّ البدور به ... كفقْد كلُّ بطئ الخير ذي حَوَرِ

لقد كسا الدينَ بالدنيا وعاجله ... إلى الجنان اشتياق الحور والبُشَر

نم يا مفدى ملوك الأرض قاطبة ... بين الأرائك والولدان والخُضَر

لو يخلد المرءَ إحسانٌ لَدُمْتَ لنا	حيا ولكنَّ هذي حكْم مقتدر
أو لو ينوب عن الأمطار جودُ يدٍ	لناب كفُّكَ لي عن كل ذي مطر
نم نومة الروح يا ضرغام مغتفرا	لك الجرائم وازيع حوزة النصر
تزخرفت جنة المأوى لتدخلها	فالنوم ليس مأوى سوى الشفر
ودعت تمتي وما ودعتها القلي	لكنه لجاء الندب ذي الأثر

ويتجلى في القصيدة ولعُ الشاعر بتجديد مضمون الشعر، والخروج عن المألوف، فهو يخاطب سائق سيارته "جنغاس" - وكان معه في الطريق لتعزية أهل فقيد من أصدقائه - دون أن يتخيَّل معه صديقين وهميين يخاطبهما على غرار "قفا نبك"، كما يتضح من القصيدة حديثٌ عن لوالب السيارة ومحركاتها التي وجد الشاعر أنها توقفت عن الحركة بسبب الحزن على الفقيد، ويدل ذلك على أن الشاعر أفلح في إحلال السيارة - وسيلة النقل الحديثة - محل الناقة، وسيلة النقل التقليدية في الشعر العربي القديم، حتى يتسنى له إشراكها في أحزانه، وهي خطوة ناضجة في الشعر تطورت عن حديث الشاعر الجاهلي عن فرسه أو ناقته التي يطيب له أن يبثها أحزانه من خلال القصيدة.

ويقول مُقَرِّظًا كتابَ "تاج الجوهر، في مدح صاحب الكوثر" للشيخ قَسَمْ الدَّكارِيّ" ويتضح في القصيدة اعتداد الشاعر بعلمه، رغم اعترافه بمنزلة صاحب الكتاب في العلم:

على تقاريظكم يا شيعةَ الكرم	أغيرُ قبل انصداع الفجْر عنْ قلم
نهبتمُ رونقَ التقريظِ قبلُ وفي	تاج الجواهر أضحَى القولُ في حطم
كما أغار خيول النهْبِ مُصبِحةً	شيخ العلى في تلاد البرد لم يلم
فاستخلص الجوهر المكنون في صدفٍ	البرود والبرد ذو النيرين لم يَشم
حتى أتى الصوتُ من جيران ذي سلم	لبَّاهُ راعي نجوم الأفق عن أمم
فزوَّجَ العزْبَ بالعزباء فادعهما	زوجين والزوج في ذا الحكم لم يُضم
شنٌّ لطَبْقة كفؤ، دفء أحدهما	شطرٌ من البرد أو شرطٌ من القدم
داعي الهوى ودواعي المجد صوتهما	سيان لا فرق بين اللحن والنغَم

يثني البُصَيريُّ في إعجاز بردته على مشاطره في الأجر والقيَم
سيقت إلى الشيخ هونا كلُّ ما نَسجتْ أيدي الفنون فأضحى جيِّد الحدم
أقلامه اجعل إلهي وفق نيته وسائل الخير بين العرب والعجم
لله درك من قَرْمٍ شمائلُه وازت شمائل سر البدء والختم

5. أغراض أخرى:

ومن جَيِّد نظمه(1) منظومته في أسماء الأشياء، ووظائفها، وأغراضها، واستخداماتها المختلفة، وعلى الرغم من أنه نظم هذه المنظومة لغرض تعليمي بحت، بما حشده فيها من أسماء ومصطلحات لغوية جعلت من بعضها كلاما ليس فيه من الشعر إلا الوزن والقافية، إلا أنه أضفى على بعضها الآخر مسحة شعرية رفيعة، وذلك بسبب التعابير الأدبية اللطيفة التي تتخللها بين الحين والآخر.

ومهما يكن من أمر فهو يسفر في منظومته عن أستاذيته المعجمية، ويُبدي مقدرةً لغوية نادرة ترتكز على ثراء قاموسيٍّ واسعٍ، ويحقق بذلك إحدى الغايات التعليمية التي كانت المجالس العليمة في إفريقيا تسعى إلى تحقيقها، وهي التكوين اللغوي الرصين، والتثقيف المعجمي الرفيع :

يقول في الملابس الشائعة لدى السودان والبيضان ويلاحظ مدى الجهد الذي بذله الشاعر في رصِّ هذا العدد الكبير من الأسماء :

أمَّا التي وازتْ حلَى السودان مِن حلَل الأعراب في السودان
فالجورب، المخلاة، والدثار والخُفُّ والمظلَّة، الزنَّار
والبرقع، الكِساء، ثمَّ الحبره وطيلسان العلماء البرره
والتوم والقنباز والقفطان وكستك، أساور، جردان
بريطة، لفَّة مشطٍ، ربطه مروحة، طوقٌ، لثام حرة
الرق والفنجان والمخدّه أركيلةٌ تنّورةٌ وفوطه
والقرط والنقاب والمنديل والجدع والخلخال يا نبيل

---

(1) يقول في مطلع هذه المنظومة: "هذه القصيدة أنشأها الحاج مختار ابن الشيخ أحمد زروق رحمه الله، في ذكر أغذية العِربان التي تُوازي بعضَها أطعمةَ السودان، وذكر أسماء أعضاء الإنسان، وأسماء الطيور والأنعام، وأسماء أولاد الحيوانات وأصواتها، وذكر أسماء الكِسَى، وما يُستَعمَل من الحديد من أدوات الحرفة، وأسماء الأشجار، بِلُغَة العرب الكرام، وأقول مُستعينًا بالله تعالى".

ويسرد أسماء أعضاء الإنسان بأسمائها العربية التي يختلف فيها القديم من الأسماء مع الحديث:

أمّا سمّى الأعضاء يا ذا الحرفه فالأخمص العرقوب ثمّ الكليه
والعذروان، والثنايا، الفكُّ ترقوةٌ، هيفٌ، سويد حنك
وعانة الإنسان، والطحال إحليلُه، وخاصر المختال
زندٌ، وصلعةٌ، دماغٌ، خيشوم ومعدةٌ وعِلم ذاك محتوم
وشفةٌ، زردحةٌ، وطرّة ودردرٌ أمعاء ثمّ بزّة
ورِئة الإنسان، والفقاره علصمة الودجين، والمثانه
والكرش، والغنّة، والمرارة والنبض، والحلمة، ثمّ القامة
ولهوة الحلقوم، والوتين حنجرةٌ، كفل قفا، والطين

ولا ينسى الحيوانات وأطفالها، وأسماءها وكناها التي اشتُهرت بها لدى العرب، ففي كُناها وأسمائها يقول :

أمّا كُنى الحيوان يا ذا البال فأُمُّ عريطٍ أبو المختال
أبو ثمامةٍ أبو زياد أبو فراس وأبو حمّاد
أبو هبيرةٍ أبو وثّاب وكنٌ بالهيثم عن عقاب
منها أبو الصعب أبو القعقاع أبو عُويفٍ يا رحيبَ الباع
كذا أبو قرةٍ وأبو زنه كذا أبو الصوف صباغ الأثفينه
وأبو زرعة والمنهال وأبو راشد والمغتال
كذا أبو الأشعث والأكوار وأبو أيّوب والأحبار
كذا أبو منجى أبو معاويه فهذه الكنى عداك الفاضِحه

وفي أولادها يقول :

أولادها جديٌ خنوصٌ شبل حملٌ وخشفٌ قشّة وعجل
وعفو جحش فرعل وحسل جروٌ وهرماس حوارٌ رأل
دِرسٌ وفروّجٌ حريشٌ دغفل وخرنقٌ وكلُّ هذا تفصل
عن الكبار من ذوات النهضه وبيُنات النقل فيها وصله

وفي أصواتها أثناء بكائها ومرحها يقول :

أصـواتهـا جـرجرة الـبعـيـر   طنـطنـة الأوتـار والـخـنـزير
قـبـاعـهـا نقنقـة الدجـاجـه   صرصرة الصقر خوار العانه
خشخشة الثوب نهيق الحمر   حمحمة الفرس نشيش القِدر
صلصلة الحـديد والزئيـر   للأسـد ثمَّ المـاء للخـرير
زمـزمـة الرعـد رنين الفـأس   فـحيح حيّةٍ صـهيلُ الفـرس
نبـيـب تيسٍ ومـواء الهـرِّ   زقـاء ديك وصـريف الثـغـر
زفـيـر نـارٍ ودويُّ النحل   جـعـجـعـةُ الرَّحَى فُويق الثـفل
نعـيق ضـفـدعٍ بغـامُ الظبي   فـهـاك ديك يا نجـيب الحي

ويخص الطير بأبيات يسرد فيها أسماءها وأصنافها وفصائلها، فيقول :

الطيـر أصناف وذو المـجـاز   يقـول في معـراض الامـتـياز
الحِـجل واللقـلاق والكركيّ   والبـوم والورشـان يا صـفيّ
والعندليب وبغـاث الدار   وصائد الحيتـان في التـيّار
والبوم والوطواط والصردان   والبطُّ والمكّاء والكروان
والجـرذ والزغلول والزرزور   والزاغ والعـقـعق والشـحرور
والدلم والوروار والتـرغلّه   والبلبل الحسّون طير الجنّه
والحشـرات فـالحـريش الصلُّ   كـذلك الحلزون ذاك حلّ

وله في الأغذية المختلفة قصائد رائعة يقول في بعضها :

أَغْـذِيَة الأعـراب لا تُوازي   أطعمَـةَ السودان في النبـاز
منهـا الصريف والضياحُ الزبدُ   ثمَّ الطليمُ والرُّقـاقُ الشـهدُ
والحـارزُ الحنيـذُ والهـديد   رديُّهـا والخَلُّ والقـديد
ثمَّ العـصـيـدة كـذا الرغـيـده   ثمَّ الرهيـدة كـذا الشـهـيكه
ثمّ العـصـيـد وأواني الأكل   مِـثكَلة جـفنة أولي الفـضل
ثمّ الدشـيـعـة لدى الوليـمـه   لِسَعةٍ فـيـهـا كذا الوضـيمـه

ثمّ النقيعة وذو الوكيره — يرى من الصبيان كلّ حيله
والشاي والسكباج والخبيصه — لحوم أطتان حشا الرغيفه

ويسرد أسماء الأشجار حسب انتماءاتها البيئية، فيقول :

أمّا سَمَى الأشجار فالزيتون — والتين والزبيب زيزفون
والخيزران والسحى إجّاص — والنارجيل الجوز والبرّاص
والموز والتفّاح والتريج — والغيث من حقل الثرى نتيج
والفوم والجلباق والقثاء — والقرع من داء الطوى دواء
والجيس والخروع والقلام — والقاقليّ والا بالشمسام

ويتحدث عن أدوات الحرف الشائعة في بيئته، فيقول :

وأدوات الحرفة المشهوره — عند اكتساب الحاجة المأثوره
الرفش والمنقاش والبيكار — ونُصلّة الرامي كذا المنشار
مِطرقةٌ مخرزٌ والكباس — سندان، والشفرة ثمّ الفاس
وسَمٌّ بالقدوم والمسمار — مجرفةٌ مصقلة النجّار
والرمح والخنجر والصُّنّاره — كمنجة سِطير والصفّار
والبوق والمهماز والكُلاّب — وعجلةٌ ومسكة الكلاب
صولجة، معول، والقبّان — والعود والمفتاح والفدّان
ولُحمة الثياب ذاتُ كَثْره — كذا سَداها يا عظيمَ الأثره
في كلّ قَيْلَمٍ من الثياب — ما لا يسوغ ذكره في الباب

من الأدب العربي الإفريقي المعاصر:
رقية بنت نياس وتنبيهاتها

د. حسن الأمراني (*)

مقدمة:

لئن كان ما بين الآداب العالمية سمات مشتركة، إنه ليظل لكل أدب خصائص تميِّزه، فالآداب المشرقية ليست هي الآداب المغربية، حيث تظل هناك أنواع أدبية، وضروب من القول تميز أمة عن أمة، وشعباً عن شعب، فقد ظلت المقامات فناً عربياً إسلامياً، وعرف الناس أن فنَّ " الهايكو " فنٌّ ياباني خالص، بالرغم من محاولات استنباته في أرض أخرى، وكان لليونان القدح المُعلَّى في التمثيل والملاحم؛ ومع ذلك كله تستطيع أن تجد من السمات والشتات ما يجمع عدداً من الآداب المتباعدة المنشأ، المختلفة المنزع.

على أن للأدب الإسلامي من الخصائص ما يجعله متميزاً، في مفهومه العام، كلَّ التميُّز، فهو أدب لا يخضع لا للتقسيم العرقي ولا اللغوي ولا المذهبي، إنك قد تتحدث عن الأدب الفرنسي أو الإنجليزي أو الروسي فلا يعدو حديثك أدبا كتب بالفرنسية أو الإنجليزية أو الروسية، أو صدر عن أدباء ينتمون جغرافيا إلى فرنسا أو إنجلترا أو روسيا مثلا... .

وقد تتحدث عن الأدب الوجودي أو الاشتراكي أو الرمزي فيكون حديثك عن أدب يجد انتماءه في المرجعية الإيديولوجية أو الفنية. وليس كذلك الأدب الإسلامي، لأنه أدب مرتبط بالإسلام دينا وحضارة.

فنحن لا قبل لنا بحصر هذا الأدب في بقعة جغرافية محدودة، لأن الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده انتشر في أقطار الأرض، دون أن تحصره بقعة جغرافية

(*) رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية. وجدة، المغرب.

محدودة، والأدب الإسلامي بذلك ممتد جغرافيا امتداد ما بلغ هذا الدين، ولا قِبَلَ لنا بحصره في اللغة، وإن كانت العربية التي هي لغة القرآن الكريم هي لغة الأدب الإسلامي الأول، إلا أننا نجد الأدب الإسلامي المعبر عنه بلغات الشعوب الإسلامية المختلفة، فأمامنا جلال الدين الرومي، وفريد الدين العطار، ومحمد إقبال، وبديع الزمان النورسي، وجنكيز ضاغجي وسواهم من الأعلام الذين أنتجوا لنا أدبا إسلاميا خارج العربية، بل إننا نجد من الأدب الإسلامي ما كتب بلغات المستعمر الأوربي، إبان فترة الاحتلال، لأن مرجعية ذلك الأدب كانت هي الإسلام، لا أن الذين كتبوه كانوا مسلمين.

ما دخل الإسلام أرضا إلا دخل معه القرآن الكريم، وما دخل القرآن الكريم أرضا إلا دخل معه الأدب الإسلامي، وصلة إفريقيا بالإسلام وبالقرآن الكريم صلة قديمة، فلذلك نشأ فيها أدب إسلامي فاعل ومتفاعل، يتخذ العربية لسانا، يؤثر فيما حوله ويتأثر بما حوله، وحواضر الثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا كثيرة، كتمبكتو، وسنغاي وسواهما، شأنها في ذلك شأن سائر البلاد الإسلامية غير العربية التي حفظت لنا من مظاهر الثقافة العربية الإسلامية شيئا كثيرا.

إلا أن الذي يؤسف له أن العناية بهذا الأدب الذي نشأ خارج البلاد العربية صارت قليلة، بل تكاد تكون مثار العجب عند بعض الناس، فأنت إذا حدثتهم مثلا عن الأدب الإسلامي المكتوب في شبه القارة الهندية، أو القوقاز، أو كردستان، أو تركيا، أو السنغال، أو النيجر، أو غيرها من بلاد الإسلام، عجبوا لذلك. فإذا أنت زعمت لهم أن ذلك الأدب له من الأصالة والبيان ما يفوق في بعض الأحيان الأدب العربي المعاصر في البلاد العربية، كنت كأنك تحدثهم عن أساطير الأولين.

ومن الغريب والمحزن في الوقت ذاته أن نجد المستشرقين، أو المستفرقين - كما يسميهم د. علي شلش - أسبق إلى العناية بهذا الأدب من العرب، وأوفر حظا. فبعضهم يشير الإشارة العابرة إلى ذلك الأدب، في معرض حديثه عن الحضارة العربية الإسلامية في إفريقيا، وبعضهم يفصل بعض التفصيل، وقد يفرده ببحث أو مؤلَّف.

يتحدث الفرنسي أندريه ميكال عن حضارة الإسلام في إفريقيا، فيقول " إن الإسلام الفعال، الإسلام الثوري والموحد للجماعات، سوف نراه بشكل أفضل في إفريقيا، فسوف يقدم هياكل سياسية مبتكرة للمجتمعات القبلية القديمة التي في حالة تطور، كما سوف يثير تاريخ الصراعات بين هذه المجتمعات، أو بينها وبين

المستعمر. وذلك بالفعل الوضع في النصف الأول من القرن التاسع عشر. الجهاد البربري الأبيض لعثمان دان فوديو (1804 - 1810)"[1].

ومعلوم أن المجاهد عثمان فوديو، أو فودي، من أعلام الجهاد والفكر والأدب الإسلامي في هذه الديار، وكان بيته بيت علم، وفيه نشأ ولده العالم الأديب محمد بللو بن عثمان فودي الذي صنف في الأدب الإسلامي مصنفات، من أشهرها **" إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور"**.

كما أن المستشرق الفرنسي المسلم المعاصر " المنصور بالله الشافعي Monteil Mansour Vincent" قد عني كثيرا بإفريقيا العربية الإسلامية وحضارتها، ومن مؤلفاته في ذلك :

- **نصوص عربية من السودان** (حوليات الشرق الفرنسي 1938).

- **متنبي مسلم سنغالي** (1946 - 1965) محفوظات علم الاجتماع والأديان 1965/19.

- **المخطوطات التاريخية العربية الإفريقية** (نشرة المعهد الفرنسي 1965/27 - 1967/295).

- **الإسلام الأسود**. Seuil Noir, Islam, 1964.

هذا وإن الوقت قد حان لتدوين شامل للأدب العربي لا يظل حبيس إقليمية ضيقة، ولا تقسيم جغرافي، وذلك مرتبط بالوعي بأهمية الرؤية الشاملة قبل إصدار الأحكام.

ولقد عمل الغزو الغربي على التضييق على العربية، حتى في البلدان العربية نفسها، ولذلك ما يزال بعض مؤرخي الأدب إذا أراد أن يتحدث عن الأدب في المغرب العربي، جعل الصدارة لأولئك الذين يكتبون بالفرنسية، مع العلم أن الأدب المكتوب بلغة المستعمر أدب عارض، وهو لا محالة صائر إلى زوال.

ولقد ندب بعض الدارسين العرب أنفسهم لدراسة الأدب الإفريقي، كما فعل الدكتور علي شلق في كتابه **" الأدب الإفريقي "** إلا أنه حدد هدفه منذ البداية،

---

(1) الإسلام وحضارته، ترجمة د. زينب عبد العزيز. ص 495.

فاستبعد الأدب الإفريقي العربي، قاصرا حديثة على ما سماه " الأدب الإفريقي خارج مجال العربية" تارة، و" الأدب الإفريقي خارج حزام العربية" تارة أخرى، و" الجزء غير الناطق بالعربية في إفريقيا" تارة ثالثة. ولذلك كان عنوان الكتاب مضللا، أو موهما على أقل تقدير، وربما كان للكاتب عذره، ما دام قد بين غايته من بداية الكتاب، إلا أنه لم يكن في حل من مزيد من التدقيق، كما فعل الدكتور عامر صمب، حين ألف كتابا قيما في جزأين سماه " **الأدب السنغالي العربي** ".

ولقد تنبه المستشرق الألماني يان على تشابك المفهوم، فاقترح تسمية مميزة تتضح من كلامه الآتي : "لقد جاء أدب إفريقيا المكتوب من منطقة "التشابك" بين ثلاث ثقافات هي: الإفريقية، والعربية الإسلامية، والغربية، أما الأدب الذي جاء من المنطقة التي اشتبكت فيها الثقافتان الإفريقية والإسلامية فأسميه الأدب الأفروعربي، وأما الأدب الذي جاء من المنطقة التي اشتبكت فيها الثقافتان الإفريقية والغربية فأسميه الأدب الإفريقي الجديد" NEW-AFRICAN أو المستحدث"[1].

إن هذا المستشرق يبدو منطقيا، كما أن إقراره بأن الأدب الإفريقي المكتوب باللغات الأوربية ينبغي أن يسمى أدبا محدثا، يعني أن الأدب الإفريقي الذي كان يكتب بلغات أهل البلد هو الأدب الأصيل، ومما لا شك فيه أن العربية هي إحدى اللغات الأصيلة في إفريقيا منذ دخول الإسلام، وأن الأدب الإسلامي الإفريقي العربي أدب أصيل.

ويكفي أن ننظر في كتاب الدكتور عامر صمب السالف الذكر لنلحظ غزارة ذلكم النتاج وأصالته. وإن كان الشعر قد حظي بالنصيب الأوفر فإن النثر لم يكن غائبا، ولاسيما أنه ألصق بأمور الناس، فهم في حاجة مستمرة إلى الخطب والوصايا والحكم والأحكام والرسائل، فلذلك احتل عندهم النثر المكانة التي هو جدير بها، كما أن الرجال لم يذهبوا بالأجور، بل كان للمرأة من ذلك نصيب غير منقوص، ونحن واقفون عند نموذج نثري لأديبة إفريقية، هي السيدة رقية نياس في تنبيهاتها، نتخذ منها نموذجا للأدب الإسلامي الإفريقي المكتوب بالعربية.

---

(1) علي شلق، الأدب الإفريقي، ص 20.

إن مما يميز الأدب الإسلامي عن غيره أنه يوحد دائما بين الرسالي والجمالي، وأن الحق والجمال فيه صنوان، بل إن الأصل اللغوي نفسه لكلمة أدب يظل مقترنا بالأخلاق، ونحن لا نريد وراء ذلك أن نوسع من مفهوم الأدب لنجعله يشمل كل ما هو مكتوب، كما صنع بروكلمان في تاريخ الأدب العربي، فيصبح الفقه والتاريخ والتفسير، بإطلاق، من الأدب، فذلك فهم لا تسعف فيه الكلمة العربية كما تعين عليه الكلمة الفرنسية أو الإنجليزية، ولكننا نلتزم بالمعنى اللغوي للكلمة من جهة، وبالدلالة الاصطلاحية وما أصابها من تطور عبر العصور، كما تكشف عن ذلك النصوص الحديثية الشريفة، من جهة أخرى.

إن الأديبة رقية نياس، هي ابنة الشيخ الجليل إبراهيم نياس، الذي كان حريصا على أن يعلم أولاده ذكورا وإناثا، ولا يقف الأمر عند تعليم البنات القراءة والكتابة، بل يتجاوز ذلك، حتى تتخرج منهن العالمات الشاعرات الأديبات، وقد ذكر الأستاذ صمب أن إحدى بنات هذا الشيخ الجليل، واسمها مريم نياس، بعثت بترجمة لها أسمتها " **علاقاتي مع القرآن الكريم**" وقد نقل منها فقرة في كتابه، وهي دالة على أدب جمٍّ وعلم غزير.

لقد ألفت الأديبة رقية نياس كتابا موسوما بـ "**تنبيه البنت المسلمة في الدين والدنيا**" في سنة 1954م، وهو كتاب ضم بين طياته 13 تنبيها، وقد استرعت الكاتبة انتباه الأوساط الثقافية العربية، كما يقول الدكتور صمب، الذي تحدث عن الكتاب قائلا " والكاتبة التي أظهرت شعورا حادا بشئون أخواتها المسلمات عرّف كتابها حقوق المرأة وواجباتها من حيث هي بنت ثم زوجة ثم أم ثم امرأة ثم مسلمة"(1).

تقول رقية متحدثة عن سبب تأليفها هذا الكتاب "فقد خطر ببالي بعد طول الاشتغال بتربية البنات وتعليمهن شؤون الدين أن أكتب لهن بعض نصائح"(2) وعندما ننظر في هذه الوصايا نتبين من حيث المضمون أنها تسعى إلى إيقاظ أخواتها من غفلتهن، والدفع بهن إلى سبل المعالي، وأن عليهن ألا يتقاعسن في طلب العلم والفضائل كلها، فإن رسول الله ﷺ رغب الفتاة في طلب العلم، شأنها في ذلك

(1) صمب: 41/2.
(2) نفسه: ص 14.

كشأن الفتى، وأنه ليس للمرأة أن تتخلى عن رسالتها، وهي ترى في أمهات المؤمنين والصحابيات من المهاجرين والأنصار قدوة حسنة.

وأما من حيث الشكل، فقد صاغت رقية وصاياها في أسلوب سهل بيّن، لا تعقيد فيه ولا غموض، لأن هدفها كان هو تبليغ الدعوة، وكانت الكاتبة تحلي كتابها بآيات من كتاب الله تعالى وأحاديث رسول الله ﷺ، وبالمأثور من كلام الصالحين، وتبدو شخصية رقية قوية يحدوها اليقين في رسالتها، عالية الهمة، تسعى إلى أن تغرس في نفوس أخواتها من القيم الإيمانية ما يعينهن على أداء رسالتهن، ويساعدهن على التحرر من ربقة الجهل والتخلف والتواكل والإحجام عن طلب المكارم.

ولنقف عند التنبيه الأول من تنبيهاتها، تقول : " عليك أيتها البنت البارة أن تجتهدي في التزام الآداب مع أبويك، سيما أمك، فإن الأب هو الذي يجاهد طول الزمن، ويلاقي المتاعب والمحن، ويسعى في طلب الرزق لينفق على البنت، ويسد حاجتها ما دامت ضعيفة، وأما الأم فهي التي أرضعتها تسعة أشهر، وأرضعتها سنتين ساهرة على راحتها، وتخاف عليها من الأمراض والعلل، وتغسل قذارتها، وتنظف فضلاتها، وذلك أشهى إلى قلبها من كل شيء".

وقد أوصانا الله في القرآن الكريم بالبر بالوالدين، حيث قال ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا، فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾(1).

"وأكد الرسول عليه الصلاة والسلام واجب البر بالأم بوجه خاص حين سأله رجل من المسلمين: من أحق الناس بحسن مصاحبتي معه، فقال : أمك، قال : ثم من ؟ قال : أبوك. رواه البخاري ومسلم، وصح عنه عليه الصلاة والسلام " الجنة تحت أقدام الأمهات" (2).

---

(5) سورة الإسراء، الآيتان: 24-25.

(6) صمب 42/2.

فهذا التنبيه كاشف عن المنهج المتبع في التأليف، فإن الكاتبة تعنى عناية خاصة بالآداب والأخلاق، وهي تبدأ بمن ينبغي أن نبدأ بهم، أعني الوالدين، مرتبين بالترتيب الذي بينه رسول الله ﷺ، مجتهدة في أن تبرز فضائلهما، مركزة على ما يميز الأم عن الأب في ذلك، مستندة في كل ذلك إلى كتاب الله تعالى، وإلى ما صح من حديث رسول الله ﷺ.

وقد جعلت الكاتبة تنبيهاتها متعلقة بالدين والدنيا معا، وذلك أمر واضح نلمسه بجلاء عندما نتتبع هذه التنبيهات، ففي التنبيه الثاني تتبع مسيرة البنت منذ استيقاظها، فتوصيها بأن تقوم من سريرها بأدب، وأن تحمد الله تبارك وتعالى على العافية، وأن تتوجه إلى الحمام للاغتسال، وأن تبادر بعد ذلك إلى ترتيب البيت بلا توان... ثم تتوضأ وتصلي.. وتوصيها بعدم الالتفات إلى التيمم بغير عذر، كما تفعل ذلك البنات الغافلات، الخ..

وبعد ذلك توصيها بأمور من الدنيا فتقول: "تلبسين ثيابك بعد ما تسوكت ونظفت فمك سواء بأي نوع من أنواع المعاجين (جمع معجون) والفرشاة، وتمشطين شعرك بالمشط، وتلبسين سواريك وخاتمك وعقدك وفتختك وقرطك، وتسترين جميع جسدك ما عدا الوجه والكفين، ثم هلمي بالقهوة أو غيرها لتفطري، وتستأذني بأدب للذهاب إلى مدرسة البنات حيث تتعلمين القرآن وعلوم الدين، ثم الخياطة والتطريز وغير ذلك من الأعمال المنزلية للبنت"(1).

إننا عندما ننظر في هذه الوصية نستيقن أن الكاتبة لم تكن تصدر نصائحها وتوجيهاتها من برج عاجي، منعزلة عن بنات وطنها، بل كانت تلك النصائح تصدر عن معايشة ومعاشرة وخبرة ومعرفة. فهي عندما توصي البنت بعدم اللجوء إلى التيمم دون عذر شرعي، إنما تريد من وراء ذلك معالجة داء كان قائما وما زال في كثير من مناطقنا الصحراوية، لا بين النساء فقط، بل بين الرجال أيضا، حيث يهرع الرجل إلى التيمم إذا حانت الصلاة والماء من حوله، دونما عذر شرعي. فهي إذن تقدم مصلحة دينية اجتماعية، والتنبيهات وإن كانت موجهة إلى النساء خاصة، إلا أن الاستفادة منها تعم النساء والرجال جميعا.

وكما يقول دارسو الأدب، فإن النص لا يكشف عن كل خباياه، ولا يعطيك كل أسراره إلا إذا أنت وضعته في إطاره العام، وجعلته مرتبطا بالزمان والمكان

---

(1) نفسه، 43.

والإنسان، فإذا علمنا أن هذه التنبيهات صدرت في أوائل النصف الأول من القرن العشرين، وأن موطنها هو السنغال، وأن كاتبها امرأة، أدركنا قيمتها الحقيقية، ووضعنا أيدينا على مواطن الجمال والحق فيها.

ففي تلك الفترة ما تزال معركة السفور والحجاب على أشدها في العالم الإسلامي، وأن دعاة السفور كانوا أبواقا للمستعمر الغربي، يزعمون ألا نهضة لهذه الأمة إلا إذا اتبعت الغرب الغالب شبرا بشبر وذراعا بذراع، ويقرنون بين نهضة المرأة وتعلمها ومشاركتها، وبين تخليها عن دينها وقيمها التي جعلوها قرينة التخلف والسقوط، وجعلوا الاختلاط سببا للتقدم والنهوض، وسبيلا إلى الأخذ من العلم بنصيب.

كما أن بلاد السنغال كانت ترزح تحت نير الاستعمار، وكان المتغربون فيها والمتنصرون يهيئون ليرثوا المستعمر في شئون الحكم والحياة العامة، وكانت محاربة العربية عندهم هدفا وغاية، لأنها مرتبطة بالإسلام، وهي عنوان الأصالة والهوية.

ولذلك كان من شأن تنبيهات رقية نياس أن تبدو عند المستعمرين مستنكرة ومستهجنة، ولاسيما حين توصي بنات جنسها بأمور تبدو مناقضة لمخططات الغرب ووارثيه، فهي مثلا، في التنبيه العاشر، توصي المرأة ألا تخرج من المنزل إلا بإذن زوجها، وألا تدخل بيتها من لا يريد، وهذا عند دعاة التغريب من مظاهر التخلف وصوره، وهي في مقابل ذلك تدعو المرأة إلى أن تتأدب مع أصدقائه الصالحين إذا قدموا معه، مما يمكن أن يكون غير مفهوم من بعض المحافظين الذين يختلط في أذهانهم الدين بالتقاليد، فيعجبون من استقبال المرأة أصدقاء زوجها الصالحين، حتى وإن كان ذلك في إطار شرعي.

ولكن رقية لم يكن يعنيها غضب هؤلاء ولا هؤلاء بقدر ما كان يعنيها أن تبلغ كلمة الحق، مستندة في ذلك إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله المصطفى ﷺ.

ولم تكن الكاتبة تذكر النساء بواجباتهن فحسب، بل كانت تذكرهن بحقوقهن وتبصرهن بالطرق المثلى للتصرف، من أجل أخذ الحق، وتعيب على الرجال ما ينزلونه من مظالم على المرأة. تقول في التنبيه الحادي عشر "وأما الظلم الذي يخوض فيه بعض الرجال من بين النساء فلا ترضى به أبدا، كميل زوجك جورا على

ضرتك بدون مراعاة النوبات، وكعدم عدل في القسمة، أو غير ذلك. ولا تكوني معه في الدار كالمعلقة، فذلك أمر حقير جدا، لأن الزوجة كفؤ للزوج . قال رسول الله ﷺ "ما أكرم النساء إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم" (1).

وبعد، فما أريد أن أنهي كلمتي هذه عن الأديبة الفاضلة رقية بنت نياس دون أن أنبه إلى أن هذه التنبيهات تنبهنا في مضمونها وطريقة كتابتها إلى أننا مدعوون إلى إحياء الأجناس الأدبية التي هي من صلب ثقافتنا وحضارتنا، وتتناسب مع مكوناتنا وهويتنا وخصائصنا.

ولقد وقعنا ردحا من الزمن تحت الاستلاب الثقافي، فصار فن السرد مثلا إن لم يكن على الطريقة الغربية أرزينا وانتقصنا منه، هذا مع العلم أن الله تعالى يقول ﴿نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحسَنَ القَصَصِ﴾ (2) كما أن القصص النبوي كنز لا يفنى، ونحن حتى يومنا هذا لم نستثمر بعد، بالصورة المرجوة، القصص القرآني ولا القصص النبوي.

وما يقال عن القصة والسرد يقال عن أجناس أدبية أخرى، ولا أستثني الشعر الذي هو فن العربية الأول، والذي أصابه من ضروب المسخ والتغير ما أصابه، حتى صرنا نرى كلاما ينسبونه إلى الشعر وهو لا يمت إلى البيان بسبب.

كما أن تنبيهات رقية تعيد إلى الأدب رسالته الحضارية، وتجعله أدبا عاما، يتوجه إلى الناس كافة، فلا يقف دون تبليغه غموض ولا إبهام، دون أن يتخلى عن بيانيته التي هي شرط أساسي في الأدب، فيتحقق بذلك حداً الأدب الإسلامي الرفيع: البلاغة والبلاغ.

ولا ينبغي أن يفهم من كلامي هذا أنه دعوة إلى أن نقصر الأدب على طريقة واحدة أو مذهب واحد، فذلك مما يخالف طبيعة الأمور، وسيظل الأدباء مختلفين متباينين في طرائق التعبير ومذاهب القول، وذلك باب من أبواب الإبداع والابتكار في الأدب الإسلامي، إذ الأدب الإسلامي عدوٌّ للنمطية والأشكال المحنَّطة، ولكن المراد أن نبحث عن التجديد من ذواتنا وخصائصنا، وإن الاستفادة من التجارب الأدبية الإنسانية، وهو أمر مشروع ومطلوب وضروري، لا يعني النسخ والمسخ والذوبان.

---

(1) نفسه، ص 46.
(2) سورة يوسف، الآية : 3.

ملامح من أصداء الدين
في شعر أحمد قنابة

أ. د. الصيد أبو ديب (*)

تمهيد:

العلاقة بين العقيدة والأدب علاقة جدلية، ترتبط عناصر كل منهما بالأخرى ارتباطا وثيقا، فهما مرتبطان في الغاية والهدف، يخاطبان عقله ويحركان وجدانه، ويستهدفان تقويم إدراكه وأفعاله وأخلاقه وبناء شخصيته، يدعوانه إلى الخير ونبذ الشر والنفور منه، ويغرسان في روحه القيم والمثل النبيلة، بقصد إصلاح المجتمع ككل، الذي يشكل الفرد نواته، "فالعقيدة، أي عقيدة، ترتبط بالفرد، وهي المقوم الأول لشخصيته وطبيعة سلوكه، ومن حيث أراد أو لم يرد، لا بد أن يقوده التصديق للإيمان بالمسلمات والقضايا المرتبطة بهذه العقيدة، وليس في مقدور الفرد أن ينفصل ذكره ووجوده عن رباطها الوثيق، وجدانيا وشعوريا"(1).

والأدب في مفهومه العام ينطلق من ذات الفرد، فموضوعاته تستهدف الإنسان، متمثلة مشاكله وقضاياه، معبرة عن واقعه الاجتماعي وتطلعاته، مصورة مشاعره وأحاسيسه. وإذا كان الأدب في رأي البعض مسألة شعورية وجدانية تخص الأديب أو الكاتب، فهو أيضا أداة إصلاح للمجتمع، ووسيلة بناء للنفس البشرية، عن طريق وصفها ورسم الطريق الأمثل لها، وفي هذا المنحى يلتقي الأدب مع العقيدة "باعتبار الدين من ناحية، علاقة فردية بين العبد والرب، ومن ناحية أخرى يمثل جانبا اجتماعيا لإصلاح المجتمع في تكوين مجتمع العقيدة"(2).

(*) جامعة الفاتح، طرابلس - الجماهيرية العظمى.

(1) الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، الطاهر محمد علي، ص 5.

(2) نفسه، ص 6.

والناظر في طبيعة الأدب سيجده هو الآخر ذاتيا وموضوعيا في آن، وقد عبرت عن هذه المزاوجة المذاهب الأدبية، من كلاسيكية ورومانسية وواقعية ورمزية وغيرها، فمجموعها يؤكد أن الأدب ليس وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة فحسب، بل هو أيضا عمل فني يتضمن نشاطا اجتماعيا وأخلاقيا.

وعن مفهوم الأثر الأدبي وطبيعته ووظيفته، يحدده بعض النقاد بجمعهم بين مادة الفن في صورتها الذاتية "وما يتضمنه الأدب من أمور تتعلق بالمجتمع والأخلاق وسائر مقومات الحياة الفكرية العميقة، وما يتصل بالحياة الإنسانية من مشاكل، هي في الحقيقة من صميم تفكير الفنان"[1].

بمعنى آخر إن الفن يصدر عن ذات واحدة، ولكنه لا يقف داخل دائرتها الضيقة، وإنما ينطلق إلى مجال آخر أوسع وأرحب حين "يهدف في نتيجته إلى إشراك أكبر عدد من الناس في المجتمع في التمتع بالأثر الفني"[2]. وهو ما جعل النقاد يقولون إن الأدب تعبير عن واقع المجتمع، وإن المجتمع يشكل العمل الفني ويحدد قيمته، بل هو مصدر إلهام ووحي للأديب لا ينضب.

في ضوء هذه المزاوجة بين ذاتية الأدب وموضوعيته "ليس بدعا أن تقوم هذه الصلة بين الفن والدين، لأن الدين في صميمه رابطة اجتماعية بين الناس"[3]، وليس بدعا أن نؤكد أن العنصر المشترك بين الأدب والدين هو الفرد والمجتمع معا، "فالأدب في موضوعه أو في تعبيره أو في تأثيره، لابد أن ينتهي إلى غاية اجتماعية، بجانب اللغة الجمالية التي يقوم بها، ولولاها لما سمي أدبا، فهو ذاتي من ناحية تعبيره عن الأحاسيس والعواطف الذاتية، وتأتي جماعيته عن طريق ربط العاطفة الذاتية بعواطف الجماعة التي يعيش فيها الأديب"[4].

بهذه الرؤية يمكننا أن نتصور رسالة الأدب الإسلامي، وهي مستهدفة الجماعة وقضاياها، وقد حملها الأديب الداعي إلى القيم الإنسانية العامة في الحق والخير والجمال، المؤمن بالعقيدة، المستوعب لمفاهيمها السمحاء، المتسمك بمثل المجتمع الإسلامي، وبهذه الرؤية يمكننا أن نؤكد أنه لا يتأتى أدب إسلامي

---

(1) دراسات في النقد المعاصر، د. محمد زكي العشماوي، ص 169.

(2) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي، ص 5.

(3) مشكلة الفن، زكريا إبراهيم، ص 119.

(4) الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص 6.

بالاستقلال الفردي المطلق للفنان الذي لا يعنيه في شئ خروجه عن القيم الأخلاقية ومثل المجتمع أو فرائض الدين، وإنما هو الذي يصدر عن رؤية إسلامية للكون والحياة والإنسان.

وبهذه الرؤية أيضا، نقدم شاعرا من شعراء ليبيا الكبار، هو الشاعر أحمد أحمد قنابة (1898-1968م)، الذي ينتمي إلى أسرة من أصول عربية وإفريقية، متلمسين ما جاء في ديوانه من شعر العقيدة، وما اتسم به هذا الشعر من نزعة دينية واضحة، وما بان لنا من أصداء الدين الإسلامي في قصائده، قوامها التأثير القرآني على نصوصه الشعرية، لغة وتصويرا فنيا وأساليب بيانية، ومعاني إسلامية، أذاعها القرآن الكريم وغرسها الحديث الشريف في النفوس طوال أربعة عشر قرنا ولا يزالان.

إن ما يستهدفه هذا البحث هو تلمس تأثير النص القرآني على هذا الشاعر، وبيان مواطن هذا التأثير في نصوصه الشعرية، ولكن قبل أن نفعل ذلك، نرى أن نعرف بالشاعر في إيجاز.

أحمد أحمد قنابة(1):

أسرته : من أسرة عريقة في الحسب والنسب، ذات شرف رفيع وسمعة طيبة، ينتمي أصلها إلى آل بيت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ويصعد نسبها إلى تلك الدوحة الطاهرة، فهي تنحدر من أصول عربية تمثلت في أشراف مدينة ودان الواقعة في الجنوب الليبي، وكانت تعيش في هذه المدينة التابعة لفزان، وخلال القرن التاسع عشر انتقل بعض أفرادها إلى مدينة مصراتة الواقعة على الساحل، شرقي مدينة طرابلس، وكونوا قبيلة عرفت باسم الأشراف، واشتهر فرع منها بعائلة الشريف قنابة، ثم انتقلت هذه العائلة من مدينة مصراتة إلى محلة النوفليين بمدينة طرابلس، غير أن أحد أفرادها وهو السيد حسين قنابة، جد الشاعر، لم يطل به المقام في مدينة طرابلس، فقد توجه إلى مدينة ودان، ومنها إلى إفريقيا الغربية، حيث اشتغل بالتجارة التي اتخذها حرفة له بمدينة زندر، إحدى مدن جمهورية النيجر، ونزل واستقر، فقد وجد من أميرها كل المساعدة والعناية، ولقي بالغ

---

(1) أنظر ديوان أحمد قنابة، دراسة وتحقيق الصيد أبو ديب، ص 19-29.

الترحيب والرعاية، إذ قربه إليه وأسبغ عليه من النعم والخيرات ما جعله في بحبوحة من العيش الرغيد، بخاصة حين علم بصلة نسبه بآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

كانت هذه المدينة وغيرها من المدن والأقاليم الإفريقية، قد انتشر في ربوعها الدين الإسلامي الحنيف بفضل التجار المسلمين الأوائل، ونشاطات الحركات الدينية والإصلاحية، وانتشار الطرق الصوفية التي امتد إشعاعها حتى أواسط إفريقيا.

فلا غرو أن رأينا أمير مدينة زندر يكرم وفادة جد شاعرنا بحكم نسبه، ويبجل مكانته لكونه من الأشراف، بل ويزوجه بسيدة من إحدى الأسر، اختارها له لتحظى بشرف الاقتران به، ومن هذه السيدة أنجب ثلاثة أبناء هم محمد وأحمد وحسين، جميعهم ولدوا بزندر، ونشأوا وترعرعوا في أحضانها، وحين شبوا عن الطوق اشتغلوا بالتجارة حرفة والدهم.

وبدأت العودة إلى أرض الأجداد، حين فكر في ذلك الابن الأكبر محمد الذي جاء إلى ليبيا واستقر في مدينة طرابلس، أما الابن الأوسط أحمد والد الشاعر، والابن الأصغر حسين، فقد ظلا مع والدهما يتعاطى جميعهم التجارة مع السودان، ولما أصبح الابن الأوسط قادرا على السفر والترحال، استقل عن والده وبدأ يشتغل بالتجارة في مدينة كنو الواقعة بالهوسا إحدى إمارات نيجيريا آنذاك، ولكن ذلك لم يدم طويلا، فما لبث أن انتهى به المطاف هو الآخر إلى العودة إلى ليبيا والاستقرار في مدينة طرابلس.

مولده ونشأته : في عام 1898 كان ميلاد الشاعر أحمد أحمد قنابة بمدينة زندر، وبعد ميلاده بأشهر قليلة تعرضت هذه المدينة للغزو الفرنسي، فاضطرت أسرته للانتقال إلى مدينة كنو، وحين بلغ الرابعة أو الخامسة من عمره، قدم مع والده إلى ليبيا حيث استقر بمدينة طرابلس، فشاعرنا إذن ليبي الأصل، نيجري المولد.

تعليمه: في مدينة طرابلس التحق شاعرنا بمكتب العرفان الذي يعتبر من المدارس الشهيرة في العهد التركي، ثم بالمكتب العسكري التركي (المدرسة

الرشدية)، وكانت نيته متجهة لإتمام دراسته في تركيا، لكن ظروفا خاصة حالت دون ذلك.

بعد الغزو الإيطالي لليبيا عام 1911م، التحق بمدرسة روما الإيطالية حيث حصل على شهادة الصف الرابع باللغة الإيطالية، أبدى رغبة لوالده في مواصلة تعليمه في الأزهر الشريف، ولكن سفره عام 1924م إلى السودان ونيجيريا بقصد إنهاء شؤونه التجارية فيهما وعدم عودته من هذه السفرة مباشرة، وبقاءه هناك أكثر من سبع سنوات، بدد أمل شاعرنا في الالتحاق بجامع الأزهر بمصر. وجعله المسؤول الأول عن الأسرة وتلبية حاجاتها، منقطعا لشؤون تجارة والده في طرابلس.

ثقافته : دفعته الرغبة في الدرس والعلم للاعتماد على مجهوده الشخصي، والسعي لتثقيف نفسه، وذلك بالاطلاع الدائم والقراءة المستمرة، وحضور حلقات الدروس العربية والدينية التي كانت تعقد في المساجد الكبرى والمدارس الدينية، كمدرسة عثمان باشا الساقزلي، ومدرسة أحمد باشا التي كانت الدراسة بهما تشبه إلى حد كبير الدراسة بالجامع الأزهر من حيث تعدد العلوم التي تدرس فيها، والطريقة التي يتم بها تدريس تلك العلوم. وفي هذه المساجد والمدارس تتلمذ على أكبر شيوخ مدينة طرابلس وعلمائها، دارسا على أيديهم علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض، وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه، من هؤلاء الشيوخ عبد الرحمن البوصيري والشيخ الشاعر إبراهيم باكير، والشيخ أحمد العيساوي، والشيخ مصطفى الخازمي، والشيخ حسين العالم، والشيخ عثمان القاجيجي، وغيرهم من العلماء الأجلاء والأساتذة الأفاضل الذين عرفتهم الحياة العلمية والثقافية في النصف الأول من القرن العشرين، وإلى جانب هذا المنهل الديني الغزير، لم ينقطع شاعرنا عن مواصلة تحصيله الثقافي والأدبي في أوقات فراغه، بالاطلاع على أمهات الكتب في الأدب العربي، وقراءة دواوين فحول الشعراء القدامي والمحدثين، من أمثال البحتري والمتنبي وابن الرومي وابن زيدون وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والزهاوي وعلي الجارم وغيرهم.

نشاطاته : مع مطلع العقد الثالث من القرن الماضي، نجد اسم شاعرنا يأخذ الظهور في دنيا الصحافة، ونجمه يلمع في سماء الأدب والشعر، فقد بدأ ينشر

قصائده في جريدة اللواء الطرابلسي، لسان حال حزب الإصلاح الوطني الذي تأسس في فترة الاستعمار الإيطالي، موقعة بأسماء مستعارة (صوت مؤمن، مسلم صادق، وطني، وطني غيور) وغيرها، كما شارك في تحريرها بالعديد من المقالات. اشتغل مدرسا في المدرسة التي أسسها حزب الإصلاح الوطني، وحين بادرت الحكومة الإيطالية إلى قفل هذه المدرسة التي كانت تغرس في النشء معاني الوطنية، انتقل إلى التدريس بمدرسة مكتب العرفان الأهلية. وفي سنة 1926م استولت السلطات الإيطالية الفاشية على هذه المدرسة وحولتها إلى مدرسة حكومية ذات مناهج باللغة الإيطالية، فما كان من شاعرنا إلا أن توقف عن التدريس فيها، ولما منعت الحكومة الإيطالية جريدة اللواء الطرابلسي من الصدور، اقتصر نشاطه على متابعة أعمال والده في التجارة، وإنه استمر في الكتابة وقرض الشعر من حين لآخر، ونشر شئ منه في بعض الصحف، مثل جريدة الرقيب العتيد، والعدل، وكان أغلبها بتوقيع الشاب الطرابلسي.

في عام 1936م شارك الشاعر صديقه الأستاذ مصطفى العجيلي في تكوين فرقة للتمثيل من الشباب الهواة، جميعهم من طلبة مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية، محاولا إرساء الدعائم الأولى للفن المسرحي في مدينة طرابلس، ولم يقتصر على المشاركة في التأسيس، بل قام بإعداد المسرحيات وتأليف التمثيليات، مع الإشراف على الإخراج والمساهمة في إدارة الفرقة.

في أواخر عام 1938م وقع عليه الاختيار ليكون مذيعا بإذاعة طرابلس المحلية التي أنشأتها الحكومة الإيطالية، وتولى مع السيد أحمد الحصائري الأعمال الإذاعية في محطتها، ظل شاعرنا يعمل بهذه الإذاعة طوال أربع سنوات، قام خلالها بإعداد برامج ركن الأطفال والإشراف عليه والكتابة له حتى أوائل عام 1943م.

بعد الحرب العالمية الثانية أسهم الشاعر في إعادة تأسيس النادي الأدبي في مدينة طرابلس، والمشاركة في نشاطاته المختلفة، وقد تولى في أواخر عام 1945م رئاسة هذا النادي، وأشرف على نشاطه الثقافي والمسرحي، كما أسهم في تأسيس نادي العمل الثقافي الرياضي، وأسند إليه الإشراف على مناشطه الثقافية والمسرحية.

مع بدايات عام 1943م تولت الإدارة العسكرية البريطانية شؤون البلاد، فالتحق شاعرنا بمكتب الاستعلامات التابع لهذه الإدارة في وظيفة محرر صحفي، وصار أحد محرري جريدة طرابلس الغرب، التي أعيد صدورها بعد توقفها خلال العهد الإيطالي، وقد ظل يعمل في هذه الوظيفة عدة سنوات، ونتيجة للظروف السياسية التي مرت بها ليبيا في أواخر الأربعينيات، استقال من عمله بمكتب الاستعلامات، وبقي بعيدا عن الوظائف الرسمية حتى أواخر عام 1954م، حين عين مديرا لمكتب الأوقاف، واستمر يعمل بها إلى أن وافته المنية في 16 يناير 1968م، عن سن يناهز السبعين عاما.

شعره : في الصفحات السابقة عرضنا سيرة الشاعر أحمد قنابة، وقلنا إنه ينحدر من أصول عربية وإفريقية، وإنه ولد في زندر بالنيجر عام 1898م، وتوفي في طرابلس - ليبيا عام 1968م، وبين سنة الميلاد وسنة الوفاة اتصلت حياته بثلاثة عهود، هي: العهد العثماني الثاني الذي انتهى عام 1912م، وعهد الاستعمار الإيطالي والبريطاني الذي امتد حتى عام 1951، فعهد الاستقلال الوطني الذي توج بقيام ثورة الفاتح من سبتمبر عام 1969م.

في العهدين الأخيرين كان شاعرنا ينظم شعره وينشره، وقد حرصت الصحف الصادرة آنذاك على إعطاء قصائده مكانا بارزا في صفحاتها، ونستطيع أن نقول إن شعره يتميز باتجاهين، هما:

الاتجاه السياسي : ويتمثل في مجموعة من قصائده الوطنية، التي جاءت صادقة في مضامينها ومعانيها، لا افتعال في عواطفها، واضحة غير خادعة في مواقفها السياسية، تجلت فيها المرامي الوطنية النبيلة، وحرصت على إذكاء الروح الوطنية عند المجاهدين والمناضلين ضد الغزو الإيطالي، وحث بني شعبه على الكفاح وبذل النفوس والأرواح، واسترخاص كل غال وثمين من أجل كرامة الوطن وحريته، كما تمثل هذا الاتجاه في مجموعة أخرى من قصائده القومية التي تستثير العروبة وأمجاد العرب والنخوة العربية، معبرة عن مشاعره وأحاسيسه الجياشة الثائرة نحو الأمة العربية، كقضية فلسطين والجزائر، حين كانت الأخيرة تخوض معركة التحرير ضد فرنسا، والكثير من القصائد في ذكرى الثورة الجزائرية، وكان حريصا كل الحرص على المشاركة بها في الاحتفالات التي كانت تقام كل عام بمدينة طرابلس.

الاتجاه الديني : وهو الذي يعنينا في هذا البحث، ويبدو في مجموعة مراثيه التي أبانت الكثير عن أصداء نزعة دينية ورؤية صوفية عند شاعرنا أحمد قنابة، فهو في هذه المراثي لا يعبر فقط عن مشاعره الذاتية نحو فقد عزيز لديه، أو اتجاه من كانت له مكانته في المجتمع وله أثره الكبير في الناس، وإنما كان يربط بين التعبير عن حزنه على من فقد، وبين الإفصاح عن نزعته الدينية والصوفية في الحياة والعالم. لقد وظف مراثيه توظيفا دينيا واضحا، حيث كشفت عن عقيدة راسخة وإيمان صادق لديه، وأبانت عن شاعر زاهد متصوف، في عصر صعب فيه الزهد والتصوف، وحذا حذو الشعراء الأقدمين كأبي العتاهية والبرعي ومحمود بن الوراق وغيرهم، وإن لم يفرد لهذا النوع من الشعر قصائد برمتها، كما فعل غيره من الشعراء الزهاد، وإنما جاء ذلك في تضاعيف مراثيه التي ترسم لنا صورة الشاعر العابد الناسك الزاهد.

فالناظر في شعره من حيث الجانب الديني، سيجد أفكار الزهد وسماته الموضوعية واضحة كل الوضوح، وسيقف على حقائق لا تقبل الشك عند المسلمين يعتقدون فيها اعتقادا جازما لا مراء فيه، تماما كغيره من مفكري الإسلام دون اعتراض أو اجتهاد، كما يقف على مسائل دينية شغلت الفقهاء والمفسرين وعلماء الكلام زمنا طويلا، وكانت مثار بحثهم وموضوع جدالهم ونقاشهم، مسائل أصبحت من صميم موضوعات الشعر الديني، كمسألة القضاء والقدر والثواب والعقاب...، فهذه المسائل وغيرها هي التي تناولها شاعرنا أحمد قنابة في شعره الديني وتطرق إليها في مراثيه الطويلة.

استمع إليه في هذه الأبيات من قصيدة يرثي فيها (فيصل عاهل العرب) بقوله :

آمنت بالله الدوام لذي البقاء ... والخلق من عدم إلى إعدام
هذا قضاء الله هذا حكمه ... في الكون هذا أصوب الأحكام
ما الأمر للإنسان إن حم القضا ... يوما وفي يمناه كأس حمام
كم فوق هذي الأرض من ملك قضى ... مستسلما أنفاسه للسام(1)

(1) ديوان أحمد قنابة، ص 155.

ومسألة القضاء والقدر من المسائل الدينية التي ظلت قرونا طويلة، كما سبق القول، مثار جدل ونقاش بين الفقهاء والمتكلمين، وللمتصوفين رأي فيها، وهو أن كل ما يحكم به القضاء على الأشياء إنما يحكم به بوساطة الأشياء نفسها، لا بوساطة قوة خارجة عن طبيعتها، فالإنسان المسلم يؤمن بقضاء الله وقدره فيما يبتلى به ويفعله، يقول شاعرنا :

ونعتقد القضاء إذا ابتلينا ... وخير الناس معتقد القضاء

ونحفظ حرمة الإنسان فينا ... ونرعى حقه بعد الفناء[1]

ويقول في قصيدة أخرى :

فصبرا على حلو القضاء ومره ... وصبرا على ماض أساه أليم

وما أحسن الصبر الجميل مع التقى ... وفي طيه خير يجئ عميم[2]

ويقف شاعرنا في إجلال كبير أمام موت الإنسان وفناء الأشياء والمخلوقات، مرددا تلك المعاني التي ترغب الناس عن التعلق بمتاع الدنيا الزائل، وتنصحهم بأن يضعوا نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة المتعددة، في الأبيات التالية يصوغ هذه المعاني ممزوجة برائحة الزهد وعطر الصوفية :

الله أكبر كل شئ هالك ... سبحان ربك أحكم الأحكام

سبحان قيوم السماوات العلى ... من ميز الإنسان بالأحلام

جل المهيمن لا مرد لحكمه ... فيما قضى من صحة وسقام

إنا لنعلم والخلائق كلها ... ما هذه الدنا بدار مقام

والموت مهيع كل موجود ترى ... في الأرض والأفلاك والأجرام

ويستحسن شاعرنا نغمة الزهد التي ترفض المتاع الدنيوي، وتحذر من تشبث الإنسان بالحياة والانغماس في ملذاتها وتدعوه إلى الانصراف عن كل نعيم زائل، يقول في إحدى قصائده :

---

(1) الديوان ، ص 106.

(2) المصدر نفسه، ص 151.

أي عـــقل لا يحـــار والفنا كـــأس يدار
كل حي منه يحـــسو مـــا به قـــر القـــرار
لا كـبيـر القـوم ينجو منه لا القـوم الصـغـار
كل مـــخلوق على الأر ض إلى الحتف مصار
ليس للمـــرء تجـــاه الـ مـوت فكر واخـتـيـار
قـل لمـن رام خـلـودا مـــا إلى الخلد انتظار
لا يغـــــــرنك دهـر إن بدا منه افـــتـــرار
مـوقف فـيـه جـلال الـ موت وعظ واعـتـبار[1]

تكرر مثل هذه المعاني في شعر أحمد قنابة، التي تؤكد أن العمر رحلة قصيرة وإن طال، وأن الدنيـا دار فناء وإن أجـزلت فـي العطاء، لذلك ينبـغي أن تكون هذه الدنيا، في نظر شاعرنا، دار زاد نتزود به لدار المعاد، يقول:

فـخذ من جلال الموت وعظا وعبرة بهـا فـاتعظ أولا فـأنت قـصـيم
فقد مات خير الخلق قدرا ورفعة ومـــات خليل قـــبلـه وكليم
ومات الألى ماتوا وفي الموت عبرة وكل امـرئ لم يعـتـبـر فـملوم[2]
فمـا دامت الدنيا لمن كـان قـبلنا ومن بعـدنا الدنـيـا لمـن سـتـدوم؟

يستمر شـاعرنا في صـياغـة تأملاته الصـوفية وأفكاره الدينية التي أودعـهـا بعض شعره وأسكنها أبيات قصائده، يقول :

هكذا الكون ينقـضي ويمـر الـ وقت بـالنـاس بكرة وعـشـيـا
مـا حـيـاة المـخلوق إلا سـراب ظل يعـزي رواؤه وقـــتـيـا
عِـبَـرٌ كلهـا الحـيـاة وحـرب فـاز من جـازهـا وكـان تقـيـا[3]

---

(1) الديوان، ص 151.

(2) المصدر نفسه، ص 141.

(3) المصدر نفسه، ص 161.

تجربة عميقة ونظرة بعيدة، ووقفة طويلة أمام الحياة، هذا السر المجهول واللغز المحير والطلسم الغامض المبهم، وأمام الموت ومصير الإنسان إلى الفناء والهلاك وإن طال عمره، يقول مسجلا تجربته ونظراته التأملية :

وما الدنيا بخالدة ولكن نفوس طامحات في البقاء
فأهل العلم تأبى عيش ذل وأهل الجهل في حجب العماء
ومن يسبر صروف الدهر يعلم بخبرته المصير إلى الفناء[1]

فإذا تابعنا خطواتنا مع مثل هذه المعاني الدينية والتأملات الفلسفية التي تزخر بها قصائد شاعرنا أحمد قنابة، فسنجد أنفسنا أمام الكثير منها، بل إن بعضها يذكرنا بشعر ابن الفارض، ويحسسنا بمعانيه الصوفية، يقول أحمد قنابة:

فلا تحسبن الموت إيقاظ نائم تقول له قم وانتبه فيقوم
فيقظتنا موت وفي الموت يقظة وفوق الذي نال العلوم عليم
أجل فوق أرض الله عين مفكر تجد أن ما تحت السماء رسوم[2]

وقد سبق أن ذكرنا أن شاعرنا كان يختلف إلى حلقات الدروس الدينية ومجالس العلماء والوعاظ الذين ما فتئوا يذكرون الناس بوحدانية الله وباليوم الآخر، وما ينتظر الصالحين من نعيم مقيم، والعاصين من سوء المصير والخلود في الجحيم، وفي هذا المعنى يقول أحمد قنابة:

هل الموت إلا أن نقيم بعالم محلان فيه جنة وجحيم
جحيم لمن عصى الإله بكفره جزاء وفاقا والعذاب أليم
وهل من جزاء للذي مات مؤمنا على الله إلا جنة ونعيم
وقد جاء في الآثار أعمار أمتي وما قال محي الدين فيه قويم[3]

إن ما نلحظه من أصداء الدين الإسلامي ومعانيه في شعر أحمد قنابة، تردد لفظة (الحق)، بصورة تلفت النظر وتسترعي الانتباه، وامتزاج معانيها عنده بين

---

(1) المصدر نفسه، ص 100.

(2) المصدر نفسه، ص 141.

(3) المصدر نفسه، ص 145.

مفهومها الديني والصوفي وبين اصطلاحها الشعري كقيمة من القيم العليا وهي الخير والحق والجمال، وحول هذه الظاهرة يقول الأستاذ محمد الصادق عفيفي: والشاعر شغوف بالحق والحقيقة، وتظهر هذه الصفة بوضوح في شعره الذي يعد صورة من نفسه[1]، ولنستمع إلى شاعرنا في بعض الأبيات من قصائد مختلفة، مرددا كلمة (الحق)، يقول :

ومن يعتصم بالحق في كل أمره | يصادف نجاحا في مساعيه ساميا[2]

ويقول :

فاختر طريق الحق خير طريقة | والزم أخا التقوى فإنك كامل
واعلم بأن ألحق أعظم ناصر | ومعانق العلياء لا يتكاسل
ونجاتنا في الصدق إذ نتكلم | وهلاكنا في المين حين نعامل[3]

ويقول في قصيدة أخرى :

فلا وأبيك لا نرضى حياة | يكدر صفوها أهل الضلال
وحبل الحق مشدود بعزم | وحبل الظالمين إلى انحلال [4]

ويقول :

وصوب له سهما من الحق صائبا | فليس بنفاع إذا كان نائيا
فخير الورى من كان للحق صابيا | وشر الورى من كان للحق قاليا[5]

وأختتم رحلتي في بيان أصداء الدين في شعر أحمد قنابة بالإشارة إلى موقفه الواضح من سفور المرأة والاختلاط بين الجنسين، أملته عليه غيرته الإسلامية وتكوينه ونشأته الدينية، يقول في إحدى قصائده :

---

(1) الشعر والشعراء في ليبيا، محمد الصادث عفيفي، ص 187.

(2) الديوان، ص 107.

(3) المصدر نفسه، ص 108.

(4) المصدر نفسه، ص 104.

(5) المصدر نفسه، ص 106.

عـجـبـا نـؤخـر من ألم بـعـصـره ونقـدم الحـدث الـذي جـهـل الأنام

عجـبـا نحض على السفـور فـتـاتنا ونقـر مـهـزلة الفـتـاة مع الغـلام

عـجـبـا ندوس تـراثنا وشـعـورنا ونظل نسأل ما الحلال وما الحرام؟[1]

فشاعر يتعجب في الأبيات السابقة من المتناقضات الغريبة لهذا الزمن الذي دفع بالعالم المدرك لأمور عصره، والمزود بالتجارب والخبرات إلى المؤخرة ومنطقة الظل، وقدم عليه الذي لا يملك أية خبرة أو تجربة، كما يتعجب لتركنا مبادئنا وقيمنا وتعاليم ديننا الإسلامي، ثم نقتل الوقت في الجدل والنقاش وطرح الأسئلة فيما هو حلال وحرام.

من الواضح بعد رحلة مع جانب من شعر أحمد قنابة، تلك المعاني الدينية التي ترددت في الكثير من قصائده، بخاصة مراثيه، أساسها تعاليم الدين الإسلامي التي تحث على سلوك السبيل المستقيم، والتحلي بالفضائل والأخلاق الحميدة التي تؤدي إلى نعيم الآخرة والتشبث بالحق والالتزام به، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، والاتعاظ بالموت، والدعوة إلى حياة الزهد الخالصة، من تبتل وعبادة وتقشف ومناجاة روحية وعزوف عن الاستمتاع بملذات الدنيا، والانصراف عن كل نعيم زائل، لما عند الله من نعيم سرمدي لا يزول، فالعمر رحلة قصيرة وإن طال، والدنيا دار فناء وإن أجزلت في العطاء.

لقد تركت تلك الدروس والمواعظ الدينية التي كان يلقيها في مساجد طرابلس العلماء الأجلاء وشيوخ الفقه وأهل الورع آثارها في مسمع شاعرنا أحمد قنابة، وتركت بصماتها في شعره، وخلفت معانيها في ثنايا قصائده، كما تركت قراءاته للقرآن الكريم وعلوم الشريعة والدين آثارها من حيث التعبيرات والألفاظ والجمل في أسلوبه، ولا يخطئ القارئ في الوقوف على استخداماته للكثير منها في شعره، لتدلنا دلالة أكيدة على تأثره بتعابير الأدب الصوفي، وأسلوب النص القرآني على وجه الخصوص ومعانيه وألفاظه وصوره.

لذلك كله جاء شعره الديني متسما بالترفع عن سفاسف الحياة والتعفف عن ملذات الدنيا وشهواتها الزائلة، مبرزا موضوعاته وهي محاطة بهالة وضاءة من

(1) المصدر نفسه، ص 47.

التبجيل والتقديس، موضحا المعاني الدينية والأفكار الصوفية في إطار مشرق وهيئة متقنة كأجمل ما يكون الاتقان في صور فنية وقوالب جمالية تتجلى فيها دقة الوصف وجودة التصوير للنفس المؤمنة الصادقة في إيمانها، ورهافة الحس ولطافة المشاعر ورقة الذوق الذي هذبته معاني الشعر الديني وأفكاره، وصقلته روح الدين وتعاليمه السمحة. وفوق هذا وذاك تتجلى في شعره تجارب روحية عميقة، وما يضطرب في نفسية صاحبه من حب ووجد للنور الإلهي الأزلي، ومن تعظيم للذات العلية، وبذلك جاءت أصداء الدين واضحة قوية متمثلة في خليط من العواطف الجياشة والمعاني السامية والتعابير الرقيقة التي أكسبها التحام المزاجين الشعري والديني عند شاعرنا أحمد قنابة شفافية غير متناهية.

والله من وراء القصد.

المصادر والمراجع

1. أحمد أحمد قنابة، دراسة وديوان، جمع وتحقيق الصيد محمد أبو ديب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1968م.

2. الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، د. الطاهر محمد علي، السودان، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة النشر، 1984م.

3. دراسات في النقد الأدبي المعاصر، د. محمد زكي العشماوي، بيروت، دار النهضة العربية، 1986م.

4. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي، بيروت، دار النهضة العربية، 1979م.

5. مشكلة الفن، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، د.ت.

6. الشعر والشعراء في ليبيا، محمد الصادق عفيفي،القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1957م.

*** الدوريات:**

1. مجلة الفصول الأربعة، رابطة الأدباء والكتاب بالجماهيرية، العدد 60، السنة الثانية عشرة، مايو 1992م، ص 50-64.

مساهمة الشيخ أبي بكر المسكين البرناوي النيجيري في تتويج الأشعار

ذ.عبد الله غوني التيجاني(*)

لقد اعتنت العرب بلغتهم اعتناء بالغا، استجابة لما ورد في الأثر: " **تعلموا العربية وعلموها الناس**"، فكانت تلك العناية البالغة سببا لما نالت هذه اللغة من تطور مرموق، فارتقت آدابها ارتقاء رائعا، وتنوعت فنون شعرها بما استحدثه أبناء هذه اللغة، وبما أخذوه من غيرهم، انطلاقا من الحكمة التي يأمر الأثر بأخذها أينما وجدت، فانتشرت العربية مع الإسلام إلى أقطار العالم، فأخذ المسلمون غير العرب يحاكون إخوانهم العرب في الاعتناء بشأن هذه اللغة والمساهمة في تطورها.

وبلاد برنو من ضمن هذه الأقطار التي نالت هذا الشرف العظيم منذ زمن مبكر، فقام علماؤها بدراسة العلوم العربية بجانب دراساتهم القرآنية والفقهية والتوحيدية، فطفقوا يعبرون عن بنات أفكارهم بالعربية نثرا وشعرا، وينظرون إلى الشعر نظرة الإعجاب، إذ هو " أكثر إيقاعا من النثر"(1)، وأكثر إثارة للخيال، فنظموا منظومات عديدة في أغراض شتى، وساهموا في فنون شعرية متعددة.

وهذه المقالة الوجيزة تميط اللثام عن فن ساهم فيه أديب من أدباء هذه البلاد، برنو، وهذا الفن هو تتويج الأشعار، والأديب هو الشيخ أبوبكر المسكين البرناوي النيجيري.

(*) جامعة ميدغري - نيجيريا.

(1) أنظر فاطمة محجوب، دائرة المعارف للناشئين، ص 197، دار العلوم، بيروت.

وعلى هذا يكون تقسيم المقالة على النحو التالي :

1. نبذة عن تتويج الأشعار.

2. التعريف بالشيخ أبي بكر المسكين.

3. عرض موجز لمساهمته في فن التتويج.

4. نصوص مختارة من مساهمته في هذا الفن.

5. خاتمة المقالة.

نبذة عن تتويج الأشعار:

تتويج الأشعار هو تركيب كلمة أو اسم أو أسماء أو عبارة ما من أوائل الأبيات الشعرية، وبعبارة أخرى هو بناء قصيدة تكون الحروف الأوائل من أبياتها اسما أو أسماء أو كلمة أو جملة أو جملا.

فالقصيدة المبنية على هذا تسمى قصيدة "متوجة"، ويسميها بعض الكتاب بقصيدة "اكروستكية" كما في كتاب "حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا" نقلا عن مقدمة قصيدة لأديب يسمى إبراهيم عمرو[1].

وهناك من يسميها بقصيدة "مشجرة"، أو "مطرزة" كما يقول صاحب "البلاغة العربية في ثوبها الجديد" " إن شعراء العصور المتأخرة ابتدعوا لونا من النظم دعوه تارة بالتشجير وأخرى بالتطريز، ويعتمد هذا النظم على جعل أوائل الحروف من الأبيات اسما معينا..."[2].

هذا وممن سمى هذا الفن بالتتويج، الشيخ أحمد سكيرج المغربي الفاسي (1295-1362هـ) [3] ، وذلك في كتابه كشف الحجاب، حيث يقول: " وقد دعاني لسان

(1) راجع شيخو أحمد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 170، ط 2، 1414 هـ، 1993م.

(2) الدكتور بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج 3، ص 171، ط 2، 1991، دار العلم للملايين، بيروت.

(3) أنظر محمد الأمين عمر، الشيخ أبوبكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان، ص 58، مطابع الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

المحبة لأتوج أبيات قصيدة بهذه الحروف، فأجبته امتثالا لأمره ..." [1]، فأتى بقصيدة على حروف "أحمد التجاني سيد الأولياء وأحمدهم".

فاختياري لهذه التسمية "التتويج" عن غيرها لما يلي :

1. كونه أشبه بتتويج التاج منه بالتطريز، لأن التتويج يكون على الرأس خاصة، أما التطريز فيكون على الرأس أحيانا وغالبا على الصدر.

2. التشجير نوع آخر "من النظم يجعل في تفرعه على أمثال الشجرة" [2].

3. الأكروستكية كلمة أجنبية من (Acrostic).

فالناظر إلى الأشعار المتوجة يرى أنها على ثلاثة أنواع، يمكن أن نسميها على التوالي:

أ) مقبلة غير مكررة.

ب) مقبلة مكررة.

ج) مكررة معكوسة.

المقبلة غير المكررة :

هي التي يكون تتويجها في صدر الأبيات دون أعجازها، وتكون حروف التتويج مقبلة من بداية الأبيات إلى نهايتها، مثل تتويج علي آدم بحر التشادي [3] لقصيدة في مدح الشيخ أحمد أبي الفتح :

الشيخ أحمد والسماحة خلقه   وفتوح أحمد كاللجين صفاؤه
حمدت سجاياه وشيد باسمه   شرقا وغربا قد سرت أنباؤه
ما مر يوم لم تصل لدياره   أعلام قوم إنهم أبناؤه
دسقت حياض من مناهل فيضه   فهو الخضم ولن تجف مياؤه [4]

---

(1) الحاج أحمد العياشي سكيرج، كشف الحجاب، ص 10، الطبعة الأخيرة 1408 هـ 1988م، المكتبة الشعبية، بيروت.

(2) راجع الدكتور بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج 3، ص 168.

(3) كان أستاذا يدرس اللغة العربية في كلية محمد غوني للقانون والدراسات الإسلامية بولاية برنو، نيجيريا، فاستقال وعاد إلى تشاد.

(4) علي آدم بحر، قصيدة علي حروف أحمد علي، مخطوط بتاريخ 21 / 3 / 1405هـ.

المقبلة المكررة:

هي التي يكون التتويج فيها في صدر الأبيات وأعجازها، وتكون حروف التتويج مقبلة من بداية الأبيات إلى نهايتها، كقول مناجي الرسول صلى الله عليه وسلم بحروف "حسن":

حشاك رسول الله تطرد من أتى　　حماك لعله يفوز بنظرة (*)

سألتك بالسبطين رؤية وجهكم　　سؤال غريق في ذنوب عظيمة

ننال بها خير المنى والمواهب　　نفوز بها بمحض فضل ومنة[1]

المكررة المعكوسة:

هي ما تكون حروف تتويجها مدبرة على صدر الأبيات من نهايتها إلى بدايتها، ومقبلة على الأعجاز من بداية الأبيات إلى نهايتها، كقول قائل بحروف "غربيه":

هيفاء كالشمس ولكنها　　غربيه يا قوم عند الشروق

يفتر منها الثغر عن لؤلؤ　　رطب ويبدو منه لمع البروق

بالله يا عذال عني فذا　　بارده السلسل فيه يروق

رفقا فما للعذل لي طاقة　　يمكن منها لعذولي الطروق

غبت عن العاذل فيها فما　　هزل وجد لذوات الفروق[2]

ثم بقي أن نتساءل هل هذا الفن الرائع عربي أو أجنبي؟، فالإجابة في رأي الباحث هو فن أجنبي على رغم وجود ما يشبهه في العربية من المهارات الشعرية كالشعر الذي تصح قراءته عموديا وأفقيا، كقول الحريري :

اسكن تقو فعسى　　يسعف وقت نكسا[3]

(*) صدر البيت لا يستقيم وزنا، (الحوليات).

(1) محمد عبد الواحد النظيفي، الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة، ص 68، ط 2، 1346هـ، مطبعة السعادة، مصر.

(2) أنظر الدكتور بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج 3، ص 172.

(3) أبو محمد القاسم بن علي الحريري، المقامات الأدبية، ص 117، الطبعة الثالثة، 1396هـ 1950م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

وكالشعر الذي استحدثه المغاربة من افتتاح الأبيات بحروف الروي، كقصيدة مالك بن المرحل المولود سنة 604 هـ بسبتة، المتوفي سنة 699هـ (1207-1299م)[1] التي "التزم فيها افتتاح أبياتها بحروف الروي على أن يجعل كل حرف منها عشرين بيتا"[2]، ومنها ما يلي:

أيا عتقاء المصطفى إن حقه عظيم فكونوا أكرم العتقاء

أما كنتم من قبله في شقاوة فلولاه هل كنتم من السعداء[3]

ومع هذا التشابه بين تتويج الأشعار والمهارات الشعرية العربية، فإن الباحث يرى أن فن التتويج غير عربي للأدلة التالية:

الدليل الأول : مماثلته لما يسمى (Abbreviation)، "وهو شكل مختصر لكلمة أو عبارة"[4]، ولما يسمى (Acronym) "وهو كلمة مركبة من أوائل حروف كلمات أخرى"[5]، فاستعمال Abbrevation و Acronym في العربية نادر جدا بالنسبة إلى استعمالها في اللغات الأجنبية[6]، لأن الكلمات العربية لا تحتاج إلى الإيجاز كما تحتاج إليه الكلمات الأجنبية التي تكتب صوامتها وصوائتها.

الدليل الثاني : ثبوته ـ فن التتويج ـ عند الأدباء الغربيين القدامى أمثال يوحنا دايفيس (John Davys) وهو شاعر وملاح إنكليزي، ولد سنة 1550م، وتوفي سنة 1605م[7]، كتب هذا الشاعر ستا وعشرين قصيدة تبتلية على حروف إليزبيث ريجينا (Elizabth Regina)[8]، وعلى هذا يمكن القول بأن هذا الفن ثابت في الغرب منذ القرن السادس عشر أو على الأقل منذ مطلع القرن السابع عشر.

---

(1) الدكتور محمد الصادق عفيفي ومحمد تاويت، الأدب المغربي، ص 207، ط 2، 1969م، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت.

(2) المصدر نفسه.

(3) المرجع السابق، ص 208.

(4) منير البعلبكي، المورد قاموس إنكليزي عربي، ص 18، ط 35، 2001م، دار العلم للملايين، بيروت.

(5) المرجع السابق.

(6) ومن استعمالها النادر في العربية مثل (د. : للدكتور) ، و(ج : للجزء)، و(ص : للصفحة)، و(حماس: لحركة المقاومة الإسلامية)، و(إلخ : إلى آخره)، وآخرها بسملة: بسم الله الرحمن الرحيم.

(7) أنظر منير البعلبكي، معجم الأعلام، ص 24، ملحق بالمورد قاموس انكليزي عربي، ط 35،2001م، دار العلم للملايين.

(8) أنظر مادة في Funk and Wangnalls, New encyclopedia VLI A Acrostic.

الدليل الثالث: وروده باسم أجنبي (اكروستكية) في بعض الكتب العربية، كما أشرنا آنفا أنه ورد بهذا الاسم في كتاب حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا للأستاذ شيخو سعيد غلادنثي.

فبهذه الأدلة يرى الباحث أن تتويج الأشعار فن أجنبي أدخل في العربية، ولكن من أين دخل هذا الفن إلى العربية ؟.

يرى الباحث أنه دخل العربية بواسطة المغاربة، استدلالا على كثرة استعماله عند علمائهم، وعلى وجود التبادل العلمي المبكر بين بلاد المغرب وأوربا، مما أدى إلى إدخال الأرقام العربية من المغرب إلى أوربا، ويقال إن أول من أدخلها إلى أوربا هو البابا سلفستر الثاني (Pape Sylvestre II)، وكان ممن أخذ العلم ببلاد الأندلس والمغرب[1]، وترجم إلى اللاتينية كتبا عربية كثيرة، وتولى منصب البابا سنة 999م[2] .

ومهما يكن من أمر فإن فن التتويج قد شاع استعماله في بلاد المغرب بين الأدباء والعلماء، فأخذه عنهم علماؤنا في غرب إفريقيا بصفة عامة، وفي بلاد برنو بصفة خاصة، وقلما نجد في هذه المناطق عالما له ملكة شعرية إلا وله هذا النوع من الأبيات، وهذا الشيخ عمر الفوتي (1212-1282هـ، 1796-1864م)، يكتب أرجوزة نصحية لما شجر بين مسلمي برنو وصكتو على حروف قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3]، بداية هذه الأرجوزة هي:

وقال باسم ربي الفوتي عمر	الكدوي ابن سعيد ما افتخر
الحمد لله الذي قد أوجبا	إصلاح ذات البين ثم هذبا
نفس الذي يصلح بين الناس	فصار طاهرا من الأدناس[4]

---

(1) راجع عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج 1، ص 289، ط 3، 1395 هـ، 1975م، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت.

(2) الأب لويس معلوف، المنجد في الإعلام، ص 305، ط 28، س 1986م، دار المشرق، بيروت.

(3) سورة الحجرات، الآيتان: 9-10.

(4) الشيخ الحاج عمر الفوتي، تذكرة الغافلين في اختلاف المؤمنين، مخطوط.

وفي دواوين الشيخ إبراهيم انياس الكولخي السنغالي المتوفي سنة 1975م عدة قصائد من هذا النوع، منها على سبيل المثال قصيدة على حروف ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] مطلعها :

لقلبي من الأشواق ما حير الفكرا وأفنيت فيه السجع والنظم والنثرا[2]

وأخرى على حروف ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3] مطلعها :

وثقت بماحي الكفر أحمد حاشر محمد المختار خير المعاشر[4]

وفي أدباء نيجيريا يوجد - مثلا - في ديوان الشيخ أبي بكر عتيق (كنو) المتوفي سنة 1974م، قصيدة على حروف (أهم سقك حلع يص) بدايتها:

الله أحــــــــد إلــه أنت المنادى لذا الأريب

هادي هو الله أنت ربي إني دعوتك يا مجيب[5]

وفي أشعار الشيخ أحمد أبي الفتح البرناوي (برنو) المولود 1923م، قصيدة على حروف ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[6] مطلعها:

لقد جاء خير الخلق بالنور والهدى رسولا من الله الكريم به هدى[7]

ويوجد في أشعار الشيخ مصطفى أحمد التجاني (برنو) المولود سنة 1364هـ قصيدة على حروف اسم والده أحمد التجاني مطلعها:

إنه مقتد بسنة خير الـ ـعالمين وحافظ ووفاء[8]

---

(1) سورة الأنبياء، الآية : 87.

(2) الشيخ إبراهيم انياس، نزهة الأسماع والأفكار، ص 76، ط 3، 1386هـ.

(3) سورة الأنبياء، ص 107.

(4) المرجع السابق.

(5) محمد الأمين عمر، الشيخ أبوبكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان، ص 143.

(6) سورة التوبة، الآيتان : 128-129.

(7) الشيخ أحمد أبو الفتح، ترياق الأنفاس في أمداح خير الناس، مخطوط.

(8) محمد المصطفى، مسرة الطالب في ترجمة نجمنا الثاقب، مخطوط بتاريخ 1416هـ.

وفي أشعار عبد الله الكانمي (برنو) المولود سنة 1378هـ/ 1958م، قصيدة على حروف "محمد العربي أحمد أبو الفتح" مطلعها :

مــحـــسن داع إلى الله الأمم   قائد الفتيان أصحاب الهمم[1]

أما الشيخ أبوبكر المسكين البرناوي - لب الموضوع - فقد برع في هذا الفن وساهم فيه مساهمة مرموقة كما سنرى بعد التعريف به.

التعريف بالشيخ أبي بكر المسكين:

هو الشيخ أبوبكر المسكين بن أحمد البرناوي النيجيري، ولد فجر يوم الأحد التاسع من ربيع الأول عام 1337هـ "وحفظ القرآن كله ولم يتجاوز سبع سنين وبضعة أشهر"[2]، وشب في ظل العلم، وأخذ عن علماء بلدته ثم سافر إلى جمهورية الكاميرون وأخذ عن معلم بكر، وموديبو يحيى، وموديبو بخاري، ثم جاوز إلى جمهورية تشاد وأخذ عن الحاج الأمين، وذهب إلى جمهورية النيجر وأخذ عن الشيخ آدم الدمغري والشيخ الشريف[3]، ثم ارتحل إلى القاهرة وأخذ عن الشيخ محمد الحافظ المصري، وإلى بيروت وأخذ عن الشيخ محمد الحريري تلميذ يوسف النبهاني، وإلى الرباط واستفاد من ابن الشيخ النظيفي، وإلى العريش واستفاد من الأستاذ محمد القائد[4]، ثم عاد إلى مسقط رأسه مدينة ميدغري لنشر ما جمعه من العلوم.

خدمته للوطن:

قدم الشيخ المسكين، ولا يزال يقدم، كثيرا من الخدمات العلمية إلى وطنه العزيز، فتولى عدة مناصب، منها منصب القضاء في محكمة الشريعة العليا ببرنو، وذلك عام 1957م، ثم استقال من هذا المنصب عام 1967م عندما أدخلت الحكومة

(1) عبد الله الكانمي، قصيدة على حروف " محمد العربي أبو الفتح"، مخطوط بتاريخ ديسمبر 1994م.

(2) انظر عبد الله غوني التجاني، أدب الرحلة عند الشيخ المسكين، دراسة تحليلية لرحلتيه القدسية والكولخية، ص37، بحث لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية بجامعة بايرو، كانو - نيجيريا، عام 1996م.

(3) راجع أحمد عبد الله الشعلي، الشيخ أبوبكر أحمد البرناوي وأنتاجاته في الشعر العربي، ص 15، بحث لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدبها بجامعة ميدغري، عام 1994م.

(4) راجع عمر يونس، الشيخ أبوبكر المسكين وحياته الأدبية، ص 29، بحث لنيل شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها بجامعة بايرو، كانو - نيجيريا، عام 1990م.

النيجيرية في المحاكم ما يسمى بقانون العقوبات (Penal Code) الذي يعارض كثيرا من حدود الشريعة الإسلامية. ومن المناصب التي تولاها، منصب الرئاسة لهيئة رعاية الحجاج بولاية برنو، تولاه عام 1979م، كما تولى منصب الرئاسة لهيئة إدارة كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية بولاية برنو عام 1989م [1].

إجازات نالها :

لقد نال الشيخ أبوبكر المسكين عدة إجازات علمية وتقديرية، وقد أثبت عمر أحمد عمر أن عددها يبلغ ألفي وستمائة إجازة، وأورد (عمر أحمد) في بحثه عددا كبيرا من هذه الإجازات مع ذكر الجهات التي منها نالها[2].

جهده في نشر العلوم :

قام الشيخ المسكين بتدريس العلوم وإقراء القرآن الكريم لمدة تزيد على نصف قرن، ابتداء من عام 1940م إلى اليوم، ولا يزال مجلسه العلمي بداره في مدينة ميدغري، يتدفق إليه كبار العلماء وطلاب العلم، يدرسهم أمهات الكتب الإسلامية والعربية.

إضافة إلى هذا التدريس، ألف الشيخ المسكين مؤلفات عديدة في الثقافة العربية والإسلامية، مما أدى بالباحثين وطلاب الجامعات إلى القيام بالبحث في إنتاجاته، ولا يزال قلمه بين أنامله، ومن مؤلفاته العديدة قصائده المتوجة التي نستعرضها في هذه المقالة كما يلي :

عرض موجز لمتوجاته:

هناك عشر متوجات كتبها الشيخ المسكين في أربعة أغراض كالتالي :

الدعاء: ست قصائد في هذا الغرض على النحو التالي :

1. قصيدة على حروف ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [3]، وهي غير مؤرخة.

---

(1) أنظر عبد الله غوني التجاني، أدب الرحلة عند الشيخ المسكين، دراسة تحليلية لرحلتيه القدسية، والكولخية، ص 39-40.

(2) أنظر عمر أحمد عمر، مساهمة الشيخ أبي بكر المسكين البرناوي في الثقافة العربية والإسلامية، بحث لنيل شهادة الليسانس في اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة ميدغري-نيجيريا، عام 1990م.

(3) سورة المائدة، الآية: 67.

2. قصيدة على حروف ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، تاريخها ربيع الثاني عام 1382هـ.

3. قصيدة على حروف ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[2]، تاريخها 1382/4/20هـ، الموافق 1961/9/20م.

4. قصيدة على حروف ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[3]، تاريخها 1385/6/6هـ، الموافق 1965/10/2م.

5. قصيدة على حروف ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[4]، تاريخها 1368/8/27هـ.

6. قصيدة على حروف ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[5]، تاريخها 1404/2/22هـ، الموافق 1983/11/27م.

وقد حققناها جميعا بموافقة صاحبها يوم السبت 1421/5/5هـ، الموافق 2000/8/5م.

الشكر والابتهاج : وله في هذا الغرض قصيدة واحدة على حروف "لا إله إلا الله"، كتبها شكرا وابتهاجا لاستجابة دعوته على أعدائه، وهي غير مؤرخة.

المديح : هناك قصيدتان في هذا الغرض، وهما:

1. على حروف "الشيخ عبد السلام بن الحسنين"، تاريخها رمضان 1388هـ.

2. على حروف "أحمد بن علي أبو الفتوح"، تاريخها رجب 1406هـ، مارس 1986م.

---

(1) سورة الروم، الآية : 47.

(2) سورة الزمر، الآية : 38.

(3) سورة الأنبياء، الآية : 70.

(4) سورة آل عمران، الآية : 4.

(5) سورة القمر، الآية : 45.

البراءة : هناك قصيدة واحدة على حروف ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ﴾[1]، كتبها براءة من جماعة ادعوا الولاية والكشف، وادعوا أن زعيمهم هو المهدي المنتظر، فدعاهم إلى الحق فامتنعوا، فكتب هذه القصيدة، وهي غير مؤرخة.

وتاريخ تحقيق هذه القصائد السالفة، يوم الجمعة 2001/11/16م.

هذه هي متوجات الشيخ المسكين البرناوي النيجيري، وفيما يلي نورد نص قصيدة واحدة من كل غرض من الأغراض الأربعة.

نصوص مختارة من متوجات الشيخ المسكين

في الدعاء : قصيدة على حروف ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، تاريخ نظمها 1386/8/27هـ، وتاريخ تحقيقها بموافقة صاحبها، يوم السبت 1421/5/5هـ، 2000/8/5م.

النص :

ولي المؤمنين أيا مذل ... عزيز ذو انتقام يا شهيد
أمرت العبد أن يدعوك لبيـ ... ـك لبيك دعوتك يا مبيد
لتهلك ذا المريد ومن تلاه ... من الأعلاج إنهم جحود
لقد جحدوا بأن الله حق ... يحب الحق ليس له ضديد
عتوا وطغوا وعافوا الحق جهرا ... وظنوا أنهم أبدا خلود
زووا للدين ألوية وشادوا ... بناء الكفر إنهم كنود
زنام كلهم للدين ربي ... أَبِدْهُمْ لا يذر لهم جنود
ولا تذر الإله على الأراضي ... لهم أو منهم أحدا يسود
إلهي كاف ها يا عين صاد ... دعوتك أن تجيب وأستزيد
نوائب كل شئ بالخزايا ... عليهم أن يموتوا أو يبيدوا
ترى الله ما هم فاعلونا ... وأنت الله احكم يا شهيد
قِنَا اللهم شرهم جميعا ... وكل الصالحين كذا المريد

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 117.

أدم ربي صـــلاتك بـالســـلام   على المخـتـار أفـضل من يقـود
مـحـمـدك النصـيـر وكل آل   وأصـحـاب حـمـدتك يا مجـيد

الشكر والابتهاج: قصيدة على حروف "لا إله إلا الله"، عدد أبياتها اثنا عشر بيتا، تاريخ نظمها غير مذكور، حققت بموافقة صاحبها بتاريخ 2001/11/16م.

النص :

لك الحمد مولانا على كل نعمة   مننت علينا ربنا ولك الحمد
أجبت دعانا إذ دعوناك ربنا   وأعطيتنا مسئولنا لك الحمد
أريت لنا فضلا بنور إجابة   بأن العدا قد قطعوا ولك الحمد
لك الحمد إذ قطعت دابر هؤلا   لما ظلموا يا ربنا ولك الحمد
هديت عبيدا للدعا فدعا به   أجبت له لما دعا ولك الحمد
إلهي إلهي يا نصير محمد   فصل عليه دائما ولك الحمد
لقد قتلوا أولاء ثمت قطعوا   بأيدي غلاظ ربنا ولك الحمد
أريت بقرب الفجر أول حجة   غلاظا شدادا قطعوهم لك الحمد
أمرت غلاظا رب فامتثلوا به   وليسوا عصاة ربنا ولك الحمد
لك الحمد يا ربي على نعمة الدعا   ونعمى استجابات له ولك الحمد
لك الحمد يا رب البرية زدهم   فضائح في الدنيا وأخرى لك الحمد
هو الله لا إله إلا هو الذي   له الحمد في الأولى وأخرى له الحمد

في المديح : قصيدة على حروف "أحمد بن علي أبو الفتح"، عدد أبياتها سبعة عشر بيتا، تاريخ نظمها 2 رجب الفرد 1406هـ، 12 مارس 1986م، وتاريخ تحقيقها بموافقة صاحبها 2001/11/16م.

النص :

إمام الهدى ما زاغ قط وما غوى   لعلمي به حقا وما مال للأهوا
حمود تبوع للرسول محمد   عليه صلاة الله في الجهر والنجوى

مـحب رسـول اللـه حـافظ عـهـده بأقـوالـه والفـعل أكـد بالـتـقـوى

دليل على الرحـمن في حـركـاته وسكْناته والله يشـهـد لا غـروا

به فـتـح الله البـلاد وأهلهـا نكور إلى أن شام كلهم الفـحوى

نعم هكذا لما استـتم بدعـوة إلى الله مولاه المفضل في يروى

عـلا بتـقـاه الحق سرا وجـهـرة عُـلاً لا يرى بين الأنام له شـروى

له اعـتـرف الأقطاب في كل بلدة على أنه قد جاز بالرتبة القصوى

يرى نفسه دون الحقير من الورى على أنـه فـوق الأعـالـى من الأنوا

أقـام يربي الأوليـا بالطريقـة الـ تجانية العليا فيسقي من استروى

به فـاز وصـلا بعـد فـصـل أئمـة هداة إلى الرحمن زينها التقوى

ولي إلـه العـرش خـاتم خـتـمـه وجامع أوصـاف الكمال بـلا زكوا

ألـمّ إمـام الـوقت حـال بداية فـأورثه كل الكمـال بلا مطوى

لمـا شـام منه من تمـام كـمـالـه وأورثه بعـد التـمـام له الأروى

فكاتمـه شـيخ الـحـقـيـقـة أحمـد وأعلـنه برهـام قـال لك الشـأوا

تول أمـور المـشـرقـين ولا تقف لدى فتح سد المغربين بلا شعوا

حوى بزمـام الأمر شرقا ومغربا وملكا وملكوتا فيـا نعم ما يحوى

في البراءة : أرجوزة على حروف ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ ﴾، عدد أبياتها 18، تاريخ نظمها غير مذكور، حققت بموافقة صاحبها يوم الجمعة 16 نوفمبر 2001م.

نصها:

رب إلهي رب خـيـر مـرسل سـيدنا مـحـمـد المـفـضل

بلـغ إليـه أفـضل الصـلاة وآله وصـحـبـه الســادات

إلـهـي إن هـؤلاء الـنـاس أتيـتـهـم بأحسن القيـاس

نصـيـحـة لك وللرسـول صل عليـه مـا أنيل سولي

قلوا الذي جئت وكـذبون		إيه وكـادوا أن يقـاتلون
واتبعوا من هو أغوى الناس		وأجـهل الناس برب الناس
مـقـصـدهـم بأنه المنتظر		عمـا شهـور يبتـدي ويظهر
يا ليتـهم يمتحنون يومـا		بفـرضـه إذاً رمـوه لومـا
كـانوا يكذبونـني والـحق		مـعي ورأيي ظاهـر والحق
ذكـرتهـم بآيـة القـرآن		وسنـة الرسـول والبـيـان
بغوا جميعا وطغوا وكانوا		قد أخطأوا الحق وربي خانوا
وأعلنوا أن عـتـيقـا يسلب		والشيخ فـوق خـمسـة لا يربو
نومـا تمـادى فـيـه هؤلاء		وأوقـعـوا في أسـوإ البـلاء
فـافتـح إلهي بيننا جـمـيعـا		فتحا وكن يا رب لي سميعا
أجب دعـائي إنمـا مـرادي		إعـلاء سنة النبي الهـادي
فــصل ربنا صــلاة منكا		عليـه واغش المبطلين ضنكا
تبّ جـمـيـع المبطلين تبـا		والكـاذبين جـملة وجـبّـا
حقق رجـاءنا وآت السؤلا		لنا وكل الصالحين الفضلا

الخاتمة

لقد حاول البحث في هذه المقالة أن يلمح إلى تتويج الأشعار، وإلى أجنبيته - برأيه - في العربية، ثم التفت إلى اعتناء علماء غرب إفريقيا بهذا الفن، مشيرا إلى أنهم أخذوه من المغاربة، ثم اختار الباحث من ضمن هؤلاء العلماء عالما برنويا نيجيريا يسمى الشيخ أبوبكر المسكين، فعرف به وعرض موجزا من متوجاته، ثم استعرض نصوصها.

ومن هذه النصوص وغيرها مما أوردناه من نماذج المتوجات؛ يتضح لنا أن المتوجين يختارون من الآيات القرآنية ما يناسب موضوعهم وغرضهم الشعري، أو يختارون غالبا اسم الممدوح إذا كان الغرض مدحا لغير النبي صلى الله عليه وسلم، أما إذا كان مدحه فيختارون -كما رأينا - ما يشير إلى مرتبته من آي الذكر الحكيم.

ثم رأينا من هذه النصوص والنماذج السابقة أن ما أسميناه من المتوجات بالمقبلة غير المكررة هي السائدة عند هؤلاء العلماء المتوجين.

هذا ونرى أن هذا الفن - تتويج الأشعار - فن يستحق بحثا مكثفا لاعتناء علمائنا به، ونرجو أن نكون قد فتحنا الباب في هذا المجال للطلاب الباحثين في تراث الأدب العربي الإسلامي الإفريقي.

قائمة المراجع

1. القرآن الكريم.

2. الحديث الشريف.

3. إبراهيم إنياس (الشيخ)، نزهة الأسماع والأفكار، ط 3، 1367 هـ.

4. أبو محمد القاسم بن علي الحرير، المقامات الأدبية، ط 3، 1369هـ، 1950م، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

5. أحمد أبو الفتح (الشيخ)، ترياق الأنفاس في أمداح خير الناس، مخطوط.

6. أحمد العياش سكيرج (الحاج)، كشف الحجاب، الطبعة الأخيرة، 1408هـ، 1988م، المكتبة الشعبية، بيروت.

7. أحمد عبد الله الشعلي، الشيخ أبوبكر أحمد البرناوي وإنتاجه في الشعر العربي، بحث لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بجامعة ميدغري، نيجيريا، 1994م.

8. بكري شيخ أمين (الدكتور)، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج 3، ط 2، 1991م، دار العلم للملايين، بيروت.

9. شيخو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط 2، 1414هـ، 1993م.

10. عبد الله الكانمي، قصيدة علي حروف "محمد العربي أبو الفتح"، مخطوط بتاريخ ديسمبر 1994م.

11. عبد الله غوني التجاني، أدب الرحلة عند الشيخ المسكين، دراسة تحليلية لرحلتيه القدسية والكولخية، بحث لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بجامعة بايرو، كانو، نيجيريا، عام 1996م.

12. عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج 1، ط 3، 1395هـ، 1975م، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت.

13. علي آدم بحر، قصيدة علي حروف " أحمد علي"، مخطوط بتاريخ 1405/3/21هـ.

14. عمر أحمد عمر، مساهمة الشيخ أبي بكر المسكين البرناوي في الثقافة العربية الإسلامية، بحث لنيل شهادة الليسانس في اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة ميدغري، نيجيريا، عام 1990م.

15. عمر الفوتي (الشيخ الحاج)، تذكرة الغافلين في اختلاف المؤمنين، مخطوط بلا تاريخ.

16. عمر يونس، الشيخ أبوبكر المسكين وحياته الأدبية، بحث لنيل شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها بجامعة بايرو، كانو، نيجيريا، عام 1990م.

17. فاطمة محجوب، دائرة المعارف للناشئين، دار العلوم، بيروت.

18. لويس معلوف (الأب)، المنجد في الأعلام، ط 15، 1987م، دار المشرق، بيروت.

19. محمد الأمين عمر، الشيخ أبوبكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان، مطابع الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

20. محمد الصادق عفيفي (الدكتور) وزميله، الأدب المعربي، ط 2، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت.

21. محمد المصطفى، مسرة الطالب في ترجمة نجمنا الثاقب، مخطوط، ط 2، 1416هـ.

22. محمد عبد الواحد النظيفي، الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة، ط 2، 1346هـ.

23. منير البعلبكي، المورد قاموس انكليزي عربي، ط 35، 2001م، دار العلم للملايين، بيروت.

24. Funk and Wagnalls, New Encyclopedia

الوزيران عبد القادر مشطو وأخوه جنيد
وقضية الصدق الفني

د. سمبو ولي جنيد(*)

المقدمة :

الحمد لله الذي جل شأنه، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فإن المقصود بهذه العجالة عرض سريع لما تصدى له الشاعران الأخوان في قصيدتيهما حين الاستيلاء الانجليزي على جمهورية نيجيريا الفيدرالية، وعلى عاصمة الخلافة الإسلامية صكتو.

ينحدر الشاعران من أسرة واحدة، فكلاهما من أبناء الوزير محمد البخاري بن أحمد بن عثمان غداد. وقد شاءت الأقدار أن يتولى كل منهما الوزارة في فترة الاستعمار. فالوزير عبد القادر مشطو كان وزيرا لخلافة صكتو ما بين 1912-1925م، في حين كان أخوه جنيد وزيرا من سنة 1948-1997م.

وتتناول هذه العجالة عرض أربع نقاط : النقطة الأولى : تاريخ وجيز عن الوزارة في خلافة صكتو. النقطة الثانية: ترجمة يسيرة للشاعرين. النقطة الثالثة : عرض متواضع لمضمون قصيدتيهما ضد الاستعمار الانجليزي. النقطة الرابعة : وضع القصيدتين في ميزان الصدق الفني الإسلامي.

(*) جامعة عثمان بن فودي ، صكتو، نيجيريا.

لمحة موجزة عن الوزارة في خلافة صكتو:

إن الوزارة وليدة الحركة الإسلامية التي قادها زعيم الجهاد، العالم الكبير المجدد عثمان بن فودي رضي الله عنه. فقد قام بالجهاد في بلاد الهوسا حتى أنشأ دولة إسلامية على غرار الدولة الإسلامية الأولى في عهد الخلفاء الراشدين.

وقد كتب الله لهذه الدولة الثبات والاستقرار فتوسعت حتى شملت ما يعرف اليوم بولايات شمال نيجيريا، وجزءا من أراضي جمهورية الكاميرون والنيجر الحالية، ولم تفتأ تسير على نهجها الإسلامي القويم، إلى أن شن المستعمر الإنجليزي الغاشم الحرب عليها عام 1903م، وذلك في عهد أمير المؤمنين محمد الطاهر الأول بن أحمد (1902-1903م)، وتمكن من الإستيلاء عليها بعد معارك دامية.

ويذكر بعض المؤرخين أن أمير المؤمنين الطاهر الأول قام بعملية انسحاب استراتيجي بعد انهزام جيشه، في حين يرى البعض[1] أنه هاجر قاصدا الوصول إلى مكة مع جمع كثير من أتباعه، معتمدا في ذلك على ما أفتى به القاضي عبد الله إمام مسجد الشيخ عثمان بن فودي، في رسالة سماها: "**رسالة نصيحة إلى المعاصرين المعتنين بما يدخلهم في زمرة المسلمين الناجين**[2]". فقد أفتى القاضي عبد الله بأن الهجرة هي الواجبة لا المهادنة لإجماع المسلمين على تحريم إقامة المسلم تحت حكم الكافر[3]، وفي ذلك يستشهد بكثير من الآيات والأحاديث النبوية واستنباطات العلماء، مؤيدا ما يميل إليه بمثل قوله في الخاتمة " وإذا تأملت هذا علمت أن هجرتنا واجبة في هذا الوقت لأن قتالنا مع الروم لا نكاية فيه، والمهادنة لا تجوز لما قدمنا، فتعين الفرار والهجرة حفظا للإسلام وإبقاء له، لأن بقاءنا على هذه الحالة التي لا طاقة لنا معها في دفعهم عنا وعن الإسلام، سبب لاستئصالهم الإسلام وأهله"[4].

بينما رفض الوزير محمد البخاري والد الشاعرين الهجرة مع أمير المؤمنين الطاهر الأول، معتمدا على فتوى أفتى بها الشيخ أحمد بن سعد بن عبد الرحمن أحد

(1) عمر بلو، تحقيق وترجمة رسالة إلى المعاصرين، ص 22.

(2) عمر بلو، ص 22.

(3) نفسه، ص 28.

(4) نفسه، ص 37.

تلاميذ الشيخ عبد الله بن فودي، حيث أقر للوزير جواز البقاء مع النصارى وعقد الصلح معهم، وذلك في رسالته التي سماها "**رسالة الوزير إلى أهل العلم والتدبير**"، وقد استدل، هو الآخر، بنصوص قرآنية وأحاديث نبوية ليبرهن على جواز الصلح مع المستعمرين، فقال في الرسالة : " إن فعلكم هذا (مهادنة المستعمرين) هو عين الصواب، والله أعلم، لأن بلادنا هذه بلاد الإسلام، وإذا هاجرنا منها صارت بلاد الكفر، مع أن الهجرة الواجبة التي يقدمها الإنسان المسلم على كل شئ، حتى على النفس، هي الهجرة عن محل صده الكفار فيه عن قواعد الإسلام الخمس، أو صيّروه عبدا، وأما هؤلاء فلم يصدوا عن الدين، وشعائر الإسلام قائمة في بلادنا، وغايتهم طلب الترؤس في أمر الدنيا والبلاد، وأما الإسلام فلم يصدوا أحدا عنه من فَوتَ إلى هنا، فالأفضل لكم أن تهادنوهم وتصالحوهم، لأن المهادنة جائزة للإمام ونائبه إذا عجز المسلمون عن القتال، كما في المختصر، وقيده بشروط، ولكن تترك جميع تلك الشروط"[1].

وختم رسالته، مؤيدا ما يراه الصواب، بقوله: " وأما ما استدل به الأخ عبد الله في مهادنتنا معهم أنه ذهاب للإسلام فليس كذلك، بل هو استنباطه وتخمين ظنه، فعسى الله أن يقوي دينه بإذهابهم عنا بقدرته، هذا قدر فهمي في هذه المسألة"[2].

ولذلك لم يهاجر الوزير محمد البخاري مع أمير المؤمنين الطاهر الأول، بل بقي وعقد الصلح مع النصارى، وولّى المستعمرون محمد الطاهر الثاني الخلافة تحت إمرتهم عام (1903-1915م).

كان لدولة الخلافة العثمانية في بدايتها أربعة وزراء، فالوزير الأكبر هو الشيخ عبد الله بن فودي شقيق الشيخ عثمان بن فودي الأصغر منه، والوزير الثاني محمد بلو بن الشيخ عثمان، والوزير الثالث عمر ألكم، والوزير الرابع ابن عم الشيخ عثمان سعدار[3].

---

(1) الوزير محمد البخاري، رسالة الوزير إلى أهل العلم والتدبر، ص 6، مخطوط في مكتبة إبراهيم جنيد الخاصة.

(2) نفسه، ص 8.

(3) أحمد سعد، ترتيب الأصحاب، ص 49، مخطوط في مكتبة إبراهيم جنيد الخاصة.

ولما استتبت الأمور، تنازل الشيخ عثمان بن فودي عن الرئاسة المباشرة، وشطر الدولة شطرين، وسلّم الشطر الشرقي لنجله محمد بلو، والشطر الغربي لشقيقه عبد الله ابن فودي، واستمر الوزير الأكبر وزيرا للخلافة ورئيسا للقسم الغربي من الدولة، وما فتئ يواصل الجهاد ضد الكفار بأرض كب، إلى أن تمنعت عليه طائفة من العدو، واستعصى عليه فتح مدينتهم.

وبينما هم في ذلك إذ سمع محمد بلو بالأمر، فقاد جيشا ليساعد عمه، وفتح المدينة بدون كبير عناء، وفي ذلك يقول محمد بلو في قصيدة له :

وردنا قلمبينا فما راع أهلها   سوى الخيل في الأرجاء كالليل أليلا

فسمناهم سلما وهم قد تكبروا   وطاغوتهم قد شاظ غيظا وأذفلا

وسمناهم قتلا ذريعا كأنهم   بوادي قلمبين يحاكون حنظلا[1]

ثم أرسل محمد بلو خادمه عثمان غداد ينبئ الشيخ عبد الله بن فودي بأن قرية قلمبين قد فتحت، ولما وصل الخبر قام الشيخ عبد الله وحشمه ليتلقى محمد بلو.

ويُذكر أن الشيخ عبد الله بن فودي لم يكن قد بايع محمد بلو بالخلافة بعدُ لجملة أسباب منها: أن عثمان غداد خادم محمد بلو سد أبواب مدينة صكتو في وجه الشيخ عبد الله بن فودي، فرجع الشيخ من حيث أتى، ومنها أنه كان ينتظر الإذن من الشيخ عبد القادر الجيلاني كما صرح بذلك رجال التصوف، أو أنه لم ير وصية الشيخ عثمان لتولية محمد بلو، وأنه لما رآها بايعه[2] خليفة.

وبانتصار محمد بلو على أهل قلمبين بايعه الشيخ عبد الله خليفة، ثم نزع عمامة الوزارة وقدمها لعثمان غداد خادم محمد بلو[3]، فانتقلت الوزارة منذ تلك الحادثة إلى بيت عثمان غداد، وتزوج الوزير غداد أخت محمد بلو نانا أسماء، فصار غداد صهر أمير المؤمنين ووزيره، والسيدة أسماء زوجة الوزير وأخت الأمير[4].

---

(1) الوزير جنيد، إفادة الطالبين، ص 22-23.

(2) أحمد سعد، ترتيب الأصحاب، ص 10.

(3) نفسه، 12.

(4) يفهم من هذا أن الحادثة وقعت بعد موت الشيخ عثمان بن فودي رضي الله عنه.

ومـا زالت الوزارة منذ ذلك العهـد متداولة في أسرة الوزير عثمـان غداد إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إن شاء الله.

ومن سلالة هذا الوزير ينحدر الوزيران الشاعران اللذان تصديا بالشعر، من ضمن ما تصديا به، للاستعمار البريطاني.

ترجمة الوزير عبد القادر مشطو Maccudo:

هو الوزير عبد القادر بن الوزير محمد البخاري بن أحمد بن الوزير عثمان غداد بن أبي بكر سمبو ليم، ويلقب بمشطو، ومعناها الولد الذي بقي بعد وفاة عدد من الأولاد بلغة الفلانيين.

ولد عبد القادر مشطو في بيت الوزارة بمدينة صكتو سنة 1870م تقريبا [1]، واشتغل بطلب العلم منذ الصغر، وقرأ كتبا في فنون متعددة على مجموعة من الشيوخ كما هي العادة المتوارثة.

وتولى الوزارة في أيام أمير المؤمنين محمد الطاهر الثاني بن علي الأكبر (1903- 1915م)، ومكث فيها إلى عهد أمير المؤمنين محمد تمبر (1924-1931م)، الذي عزله بعد سنة من توليه الإمارة.

ثم انقلب الوضع فعُزل أمير المؤمنين محمد تمبر، ورجع الوزير عبد القادر مشطو من منفاه، بعد تولية أمير المؤمنين حسن (1931-1938م) سدة الخلافة، فولاه هذا الأخير منصب قاضي القضاة، وهو المنصب الذي مكث فيه إلى أن وافته المنية سنة 1933م، بعد أن أمضى فيه سنتين.

مؤلفاته :

من مؤلفاته : 1. تبشير الإخوان 2. سرد اللآلي من كلام القوم 3. منن الوهاب 4. بعض القصائد.

---

(1) دراسات عربية، العدد الأول، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو - نيجيريا، ص 168.

ترجمة الوزير جنيد:

هو الوزير جنيد بن الوزير محمد البخاري، ولد عام 1906م، وذلك بعد استيلاء المستعمرين على دولة الخلافة العثمانية بثلاثة أعوام، ويوافق مولده انفجار فتنة ساتر، وهي ثورة أثارها بعض الشعب ضد الاستعمار.

انخرط في سلك طلب العلم ولما يتجاوز السادسة من عمره، وقرع أبواب العلماء الفحول، حتى تضلع من فنون عديدة، كالنحو والصرف والعروض والبلاغة والآداب والتاريخ، فاجتمعت فيه خصال الأدباء والمؤرخين، وأنتجت قريحته قصائد رائعة، ونثرا بارعا في رحلاته.

وفي عام 1948م عُين وزيرا، وذلك بعد وفاة أخيه الوزير عباس، ولم يزل نشطا في الآداب والتاريخ، رغم ما كان ينوء به من أثقال الوزارة، وما زالت هوايته العظمى، إلى عام وفاته، طلب العلم وبثه، وكان ممن لا يمل المطالعة والاستماع إلى ما يزيده علما، وألّف ما لا يقل عن ستين مؤلفا، نظما ونثرا، أدبا ولغة وتاريخا.

توفي يوم الخميس الأول لشهر رمضان 1417هـ، الموافق لتسع يناير عام 1977م.

وقد سجل صاحب هذه العجالة تاريخ وفاته في مرثية له بقوله :

من سائلي عن كنه يوم وفاته　　صبح الخميس حظيت باستذكار

في شيتز[1] رمضان أول يومه　　فقد الوزير جرى قضاء الباري

ويلاحظ أن الوزير عبد القادر مشطو (1912-1925م) هو الوزير التاسع للخلافة، بينما الوزير جنيد هو الوزير الحادي عشر في سلك وزراء الخلافة.

مؤلفاته:

له مؤلفات كثيرة كما أسلفنا، وأشهرها : **1. ضبط الملتقطات من الأخبار المتفرقة في المؤلفات 2. الرحلة إلى أقدس 3. ديوان الشعر 4. كتاب مرتع الأذهان لمن يريد لغة الفلان (نظم)**، وغيرها.

---

(1) شيتز يعني 1417 هجرية.

عرض وجيز لمضمون قصيدة الوزير عبد القادر مشطو.

تولى الوزير عبد القادر مشطو الوزارة بعد تسع سنوات من استيلاء المستعمرين على الخلافة، خلفا لعمه الوزير محمد سمبو شقيق الوزير محمد بخاري الذي عقد الصلح مع النصارى، كما ذكرنا سابقا.

والوزير عبد القادر من الذين شاركوا في الحرب ضد النصارى، وقيل إنه نظم قصيدته البائية في إحدى رحلاته إلى زاريا، وهو في حالة من التحسر والحيرة لما رأى من انقلاب الأمور، وترديها إلى مثل ما حكاه القرآن الكريم على لسان السيدة بلقيس عليها السلام: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1]، وما لمسه من سوء تدبير المستعمر، في تولية من لا يستحق تدبير أمور الخلافة، وما لاحظه من محاولات تغيير النظام الديني المعهود منذ تأسيس الخلافة إلى نظام لا ديني، فلم يملك نفسه إلا أن وصف حالة المجتمع وصفا دقيقا، وقال إن ظلمة الليل اسودت حتى صار الببر والثعلب يصطادان في الليل الأليل، وهذا مخالف لعرفهما، إشارة إلى تغير مجتمع خلافة صكتو الذي بدأ يصطبغ بصبغة أوربية.

وفي هذه الحالة المضطربة وثب الضأن والأرنب مع ضعفهما على الأسد، وهذا مخالف لطبيعة هذين الحيوانين اللذين يعتبران من فرائس الأسد، ووقوع العكس غريب.

ومن زاوية أخرى لاحظ الشاعر أن ثعابين الأرض بسمها الناقع، تفر خوفا من ضفدع ضعيف، ولعل هذا إشارة من الشاعر إلى الوضع المتردي الذي تهاوى فيه المجتمع، حيث أصبح الضعيف الخامل من الرعية بالأمس، قويا نافذا اليوم في سدانة المستعمر الإنجليزي، لا لشئ إلا لأنه يتكلم لغة هذا المستعمر، ويكتب بحروفها لغته المحلية، فطفق يشدد على الناس ويضيّق عليهم ليُرضي سادته المستعمرين.

---

(1) سورة النمل، (الآية: 35).

أما الذين ورثوا شؤون الحكم والخلافة كابرا عن كابر، وتضلعوا من علوم الدين والسياسة، ونهلوا من مختلف ينابيع العلم، فقد هُمِّشوا ورُموا بالأمية والجهل، مع ما لهم من التآليف الكثيرة، لا لشئ إلا لأن اختيارهم قد وقع على اللغة العربية، كلغة للعلم والثقافة والتواصل، فاحتضنوها وكتبوا لغاتهم المحلية بحروفها، وهو ما لم يكن ليسكت عليه المستعمر الغاشم الذي كان يسعى بكل طاقاته إلى محوها من الوجود، ووضعها في وعاء النسيان الأبدي، حتى لا يكون للإسلام ذكر في تلك المناطق إلا في دفاتر التاريخ، كما وقع له في الأندلس.

ولكن رغم هذه الأجواء القاتمة التي كانت تلف المجتمع النيجيري في تلك الأوقات العصيبة، فإن العلماء الراسخين وأولياء الله الصالحين كانوا موقنين بأن محاولات المستعمر صائرة إلى الفشل مهما طال الزمن، وإلى هذا يلمح الوزير عبد القادر مشطو في قصيدته بأنه رأى هندا وزينب تزرعان في الأرض المالحة، وذلك كناية عن مصير ما يبثه المستعمر من سموم في أوساط الشعب، كتوظيف بعض أفراده في مناصب عالية للإغراء، بأن ذلك كمن يزرع في أرض سبخة، لا يلبث الزرع أن يذبل وييبس لأنه زرع في أرض غير صالحة.

ثم أعرب الشاعر عن أسفه وإحباطه، لأن بعض أفراد المجتمع لا يدركون أبعاد الفتنة التي أوقد المستعمر نارها، فارتموا بين أحضانه، وتعاونوا معه، وباعوا وطنهم ودينهم بمتاع من الدنيا زهيد.

ثم وجد عزاءه في أن الفطنين المخلصين من أبناء المجتمع بقوا في مأمن من هذه الإغراءات، فلم يغيروا ولم يبدلوا.

ثم اختفى الشاعر في ظل الألغاز العويصة لوصف ما رآه في عصر الاستعمار من أناس ضعيفي النفوس، شديدي الطمع، يسعون بكل قواهم لإلقاء السرور في ضمير المستعمر، واستغرقت أربعة أبيات من القصيدة تصف هؤلاء بالأذناب، فأتى بكلمات شاردة، لو استخرج الباحث معانيها من القواميس لما أدرك من مخدرات الألفاظ إلا نزرا، وكل ذلك حفاظا على عرضه، وتلميحا إلى ما يكنّ للمستعمر من بغض وعداوة، وإن كان يتعامل معه من باب الضرورات التي تبيح المحظورات.

قال في هذه الأبيات ملغزا:

وأخبرت الصيدان أن طملسا رأى النار في الشعوف والظبي تزحب
فولت فرارا ثم غرت وأقبلت فيا ليت شعري هل رأى الظبي عسرب؟
وأخبرني الغيذان أن قهنبا يساوي به في ذلك القدر قهزب
وخاصمه العيذان والأمر هين لدي كما يقضي عن الوتر عيهب

ثم وقف الشاعر، بعد ذلك، يدعو أحبته ويقول إنه يبيت في غنى عن ما يغري به المستعمر، وحمد الله قائلا إن من يتولى الله أمره لا يغلبه أحد، وختم القصيدة بالصلاة على المصطفى وآله والثناء على الله عدد تكرار المقيم والراحل.

عرض وجيز لمضمون قصيدة الوزير جنيد.

هذه القصيدة دالية يصف فيها بيئته التي كانت مكتظة بالناس الأفاضل من العلماء والحكام، ولكنها اليوم صارت بيئة وعرة لأن سكانها ماتوا، ووقف الشاعر متحيرا وهو يسائل عن هؤلاء الكرام الذين عهدهم في هذا المكان، ويبكي بكاء حمامة، والدمع يجري على نحره كالماء الجاري في مسيل الوادي، فأجاب نفسه بأنه يبكي لما رأى من تغير المكان، وقد صار قفرا بعدما كان خصبا ومأوى لذوي الحاجات، وما ترتع في حافاته اليوم إلا الوحوش من الناس، وقد غبر الصالحون، والباقي منهم ضعفاء بعد صولتهم، وأذلة بعد عزتهم، وأُمّيّون بعد تضلعهم من مختلف فنون العلم، وذلك لأن لغة تعبيرهم ولغة معاملتهم هي لغة الضاد، وأما الآن فاللغة الانجليزية هي السائدة المستعملة، أو اللغات المحلية المكتوبة بالحروف اللاتينية.

ومن هذه المقدمة المؤثرة تخيل حوارا مع حرباء ضعيفة لا تكاد تقوى على المشي إلا بالاستعانة بالأعواد اليابسة، لما أصابها من سوء معاملة المستعمر، وهذه الحرباء ما هي إلا مجتمعه المضطرب المتقلب، وحاولت الحرباء أن تعبر عما في ضميرها، ولكن هزالها وتراكم ما يسئ لها من تغيرات الزمان وتقلباته، أعياها عن التلفظ ببنت شفة، فكان السكوت أبلغ في التعبير عما يجيش في قلبها من مشاعر القلق والغم والضجر، وكأنها تسأله هل لم يلاحظ تغير الدهر؟ ثم لونت جسدها، وفهم من هذا التلون تلوّن أحوال الدنيا.

ثم انتقل الشاعر إلى وصف حال أذناب الاستعمار، فشبههم بالطيور المنعمة فوق غصون الأشجار تزغرد وترقص، في حلل فاخرة، تحت سلطة الاستعمار، ثم أبدى حزنه الشديد، لا سيما حين خاطب من بهذا المكان الذي عهده، وما أجابه إلا صدى صوته :

ناديتـه يا أيهـا ذا النادي   فأجابني يا أيها ذا النـادي

ولما رأى فشله في اتصاله بالذين عهدهم سكت برهة، ثم رأى حمامة مغبرة، كناية عن حزنها الشديد وتحسرها العميق، ولعلها من بقايا الذين ألفهم، فدنت إليه وأخذت تعزيه وتسليه، حتى استأنس بها واطمأن إليها، ودار بينهما حوار، فسألها عن الذين عهدهم، فأجابت بأن كلهم ماتوا، وسألها عن عن الوضع السئ والحالة المزرية التي يعيشها الشعب، فأخبرته بأن الذين تسلموا مقاليد الأمور قوم ديدنهم الفساد والحسد، وإظهار الشنيع من الأقوال والأفعال.

ولما سألها عن هذا الأمر المتناقض من أنهم هم الحكام ومع ذلك يحسدون رعيتهم، أجابت بأن ذلك مما جبل عليه المستعمرون، ثم سألها عن سبب هزالها وتغير لونها، فأجابته أنها ما تزال تلبس ثوب الحداد على ضياع مجد الخلافة وذهاب هيبتها ومكانتها العلمية (1).

وختم بسؤاله عن سبب توحشها ووقوفها على الأطلال؟، فأجابت أنها لن تزال في هذه الحالة، وهي تنادي سلالة الذين مضوا أن يستردوا مجدهم الذي غبر، ثم أجابته عن سؤاله عن عدم التحاقها بالذين هاجروا بعد الهزيمة، فأجابت بأنها حاولت الالتحاق بهم، ولكنها عجزت لانتهاء الزاد وهي في الطريق، فرجعت من حيث بدأت.

وبيانا لهذا الوصف الدقيق لجو الاستعمار يشرح المرحوم الدكتور محمد تكينة ما كان يختلج في ضمير الشاعر بقوله شارحا "ماضي الخلافة العريق وما أصابها من اضمحلال وتدهور، حيث أفَلَتْ شمسها على يد الاستعمار البريطاني الغاشم، فيقارن بين ماضي الخلافة وما لها، وبين نظام الحكم أيام سادات الخلافة وخلفهم، وبين الانجليز وسيطرتهم وسوء أخلاقهم"(2).

---

(1) نفسه، ص 448.

(2) محمد المبارك محمد التكينة، الأبعاد الفنية في أشعار الوزير جنيد، ص 447، بحث مكمل للماجستير، عام 1980-1981م، جامعة أحمد بلو - زاريا، نيجيريا.

الصدق الفني الإسلامي في القصيدتين.

قبل الخوض في الحديث عن الصدق الفني الإسلامي في القصيدتين، يجدر بنا أن نشير إلى ما توافق فيه الشاعران، وما انفرد به كل منهما في قصيدته، وليس من غرضنا الحكم على أيهما أشعر، وإنما نهدف إلى عرض ما نراه في هذا الشاعر وذاك من المميزات، ونترك الحكم للناقد البصير والقارئ الخبير، وذلك كمقدمة يسيرة قبل التصدي لنظرية الصدق الفني الإسلامي في القصيدتين، على ضوء ما تبناه المرحوم البروفيسور علي نائبي سويد في كتابه "**كيف نتذوق الأدب العربي**".

قصيدة الوزير عبد القادر مشطو من البحر الطويل، النوع الثاني، والقافية بائية، بينما قصيدة الوزير جنيد من بحر الكامل والقافية دالية.

وقصيدة الوزير عبد القادر مشطو تحتوي على خمسة عشر بيتا، بينما تحتوي قصيدة جنيد على تسعة وعشرين بيتا، فهي إذن ضعف قصيدة الوزير عبد القادر، وكلاهما بدأ شعره بالمقدمة التقليدية، فبدأ الوزير عبد القادر مشطو بوصف الليل البهيم الذي أمكن للببر والثعلب أن يصطادا في ظلامه الحالك، وكذلك الأمر بالنسبة للوزير جنيد، فقد بدأ بالبكاء على الأطلال على منوال الشعر الجاهلي، وذكر من سكنوا في الديار الخالية الآن، وذرف دموعه عليها، وهو يرثي مجد الخلافة الصكتية وماضيها المجيد، ثم ختم كِلاهمَا قصيدته بالصلاة على النبي وآله وأصحابه، سنة الشعر الإسلامي.

والوزير عبد القادر قرض قصيدته وهو في طريقه إلى زاريا، حين استوقفه الليل تحت شجرة، فنظم القصيدة قائلا في التقديم لها: "ولما سافرت في الصحراء وجنّ عليّ الليل وقفت تحت شجرة عظيمة، ونظمت هذه القصيدة، لما غشيني من الخوف والوحشة وبعد الأحبة وشدة الشراسة، ولا أبالي فيها بما قيل من فصاحة المفرد، من عدم تنافر حروفه لما غشيني من التنافر، ولا بما قيل في المركّب من ضعف التأليف لما لحقني من الضعف، ولا أبالي بتعقيد ولا تنافر كلمات ولا خفاء قصد في انتقال، ولا غير ذلك، والله أسأل أن يعصمني من جميع الآفات وهو أرحم الراحمين"[1].

---

(1) نسخة مخطوطة في مكتبة الباحث الخاصة.

وأما الوزير جنيد فلم يقرض قصيدته في حال السفر، ولكنه عانى مما عانى منه الوزير عبد القادر من شر الاستعمار، وما حاكه، هو وأذنابه، من مكائد ضد الدولة الإسلامية، وكلاهما عبّر عما رأى وعاش من شراسة الاستعمار وظلمه وفساده.

وفي حين ملأ الوزير عبد القادر قصيدته بالشوارد من الكلمات، ونسجها بالألغاز الغامضة والمتناقضات من العبارات، حتى لا يهتدى إلى كنهها إلا بالتخمينات، فإن الوزير جنيد رصع قصيدته بحكم وألفاظ رقيقة وكلمات تدل على الهزال والتحسر، ثم تصور حوارا بينه وبين الحرباء والحمامة ليحذر مجتمعه من كيد المستعمر وألاعيبه، وقصيدته أقل غموضا؛ لأن شراسة الاستعمار في عصره أخف مما كان عليه في عصر الوزير عبد القادر.

وعلى أية حال فإن كلاهما قد كتب قصيدته في عصر الاستعمار، وكلاهما تولى الوزارة تحت سيطرته، فالوزير عبد القادر تولاها عام 1912-1925م، وتولاها الوزير جنيد في عام 1948-1977م، وقد أمد الله في عمر هذا الأخير حتى رأى رحيل المستعمر الغاشم عن وطنه بعد الاستقلال، ولعله أدرك بذلك شيئا من أمنياته، ويبقى السؤال الكبير بعد ذلك: هل عاد مجد الخلافة برحيل المستعمر أم لم يعد؟.

الصدق الفني الإسلامي فيهما:

يقول المرحوم البروفيسور علي نائبي سويد في كتابه "**كيف نتذوق الأدب العربي**"، إذا نظم الشاعر قصيدة يدعي فيها أنه أحب أو أبغض، فرح أو حزن، ضحك أو بكى، فإن أول سؤال يجب أن نسأله حين نقرأ قصيدته هو: هل شعر حقا بهذا الشعور الذي يدعيه؟ أو انفعل بذلك الانفعال الذي يزعمه؟ وهل نرى حقا تلك التجربة التي يحاول نقلها إلينا؟[1]، والجواب عن هذه الأسئلة هو الذي يثبت إيجابا أو سلبا ما يمكن أن يعتبر الصدق الفني الإسلامي في شعره.

والصدق الفني هو كما يقول نائبي " أن يصدق الأديب في التعبير عن عاطفته التي اعتقدها..."[2].

---

(1) علي نائبي سويد، كيف نتذوق الأدب العربي، ص 14.
(2) نفسه، ص 16.

من هذا المنطلق يمكن أن نوجز القول مرجحين كون الشاعرين صادقين فيما عبرا عنه في قصيدتيهما، نظرا لأنهما عاشا في عصر الاستعمار في فترات مختلفة، فالوزير عبد القادر كما يقول التاريخ كان من الذين شاركوا في الحرب لحفظ بيضة الإسلام والخلافة، حين طغى المستعمرون واستولوا عليها قهرا[1].

فقد ذُكر أن الوزير محمد البخاري أرسل غلامه عبد القادر مشطو إلى العلامة أحمد بن سعد "ليسأله عن بيان حقيقة أمرنا هذا"[2]. ويقول الوزير محمد البخاري في الصفحة التاسعة من الرسالة "ثم أتاني الغلام عبد القادر بشرح المختصر وقرأه وازداد سروري وحمدت الله وشكرته"[3].

فهذا يؤكد كون الوزير عبد القادر مشطو قد بلغ سن الرجولة حينئذ، وكان ممن يمكن التعويل عليهم في حالات الشدة، حتى أرسله والده إلى غوندا لاستفتاء أحمد بن سعد، كما يؤكد كونه من طلاب العلم الضليعين، لأنه أتى بشرح المختصر وقرأه على والده، وكل هذا لا يتأتى إلا لمن له إلمام جيد، وإدراك واسع، بمجريات الأمور في مجتمعه.

ثم تولى الوزارة بعد عمه الوزير محمد سمبو (1910-1912م)، وشراسة الاستعمار في ذروتها، مما أدى إلى عزله ونفيه إلى غَنْدِ، ثم نقل ثانيا إلى كدونا، وبقي في منفاه مدة ثلاث سنوات[4]، قبل صدور العفو عنه ورجوعه إلى صكتو، بوصول أمير المؤمنين حسن بن معاذ (1931-1938م) إلى عرش الخلافة، فولاه منصب قاضي القضاة، الذي مكث فيه إلى وفاته عام (1933) بعد سنتين من توليه.

فهو إذن من الذين ذاقوا مرارة الاستعمار وناضلوا في الحرب ضد النصارى، ومن الذين شاءت الأقدار أن يتولووا الوزارة تحت حكومة الاستعمار، ثم عزل ونفي، لتدخل المستعمر في تدبير أمور الخلافة، وكان يتعرض طوال الشطر الأخير من حياته لمضايقات حكومة الاستعمار وضغوطها واستفزازاتها، فهو إذن فيما يقوله ضد الاستعمار صادق وخبير.

---

(1) دراسات عربية، العدد الأول، ص 176.

(2) رسالة الوزير إلى أهل العلم والتدبر، ص 5.

(3) نفسه، ص 9.

(4) مجلة مالم، العدد الرابع، شعبة اللغة العربية، جامعة عثمان بن فودي، صكتو -نيجيريا، ص 5.

وقد دفعه ذلك إلى غموض الألفاظ في قصيدته، نظرا لما ذاق من المرارة وإفشاء السر، لا سيما من أذناب المستعمرين الذين يدسون الدسائس لينالوا من المستعمرين ما كانوا يطمعون فيه منذ القديم، فانتهزوا كل الفرص لإيجاد الثقة بينهم وبين النصارى، وبث الحقد بين النصارى وبين سادات الخلافة، وفي ذلك يقول الوزير عبد القادر:

وأبصرت أقواما مع اللصت أنزلوا   أهاليهم في الدشت والنار تلهب

وأيقن الشاعر أن لا منجي له من المستعمر إلا الله، ولذلك حمد الله وفر إليه لا منه بقوله:

حمدت إله العرش مولي وخالقي   ومن يكفه في أسره لا يغالب

قصيدة الوزير جنيد :

وما يقال عن قصيدة الوزير عبد القادر مشطو، يصدق كذلك على قصيدة الوزير جنيد، وكان ممن عاش في عصر الاستعمار البريطاني، ولم ينضم إلى مدارس المستعمرين تلميذا، ولكنه تثقف بثقافة إسلامية صرفة، وكان كثير من أقرانه في تلك الآونة تلاميذ في المدارس الحديثة التي اعتنت ببث العلم بالحروف اللاتينية، حيث تخرجوا وصاروا القادة في إدارة الحكومة الاستعمارية المعادية للثقافة الإسلامية الموروثة.

وفي فترة من الفترات، اشتغل الوزير جنيد بتدريس اللغة العربية والإسلاميات في هذه المدارس الحديثة، بعد أن أبدى الشعب المسلم رغبته في دراسة هذه المواد بهذه المدارس التي أنفق فيها المستعمر كل غال ونفيس، في حين لم تكن المدارس القرآنية ودهاليز العلوم الإسلامية تحظى بشئ يذكر من عون الحكومة المستعمِرة، فعنّف الشعب هذا الانحراف البين والظلم القاتم، وكره الثقافة الأوربية وألقى بها عرض الحائط.

ولما رأى المستعمر أن لا محيد عما يرغب فيه الشعب أقحم المادتين رغما عنه، بتوظيف أمثال الوزير جنيد في مدارس النصارى، وهذا ما أتاح له فرصة العمل مع المستعمر، حيث وُظف في إحدى كليات البنات والمدرسة الوسطى للأولاد، ولجده في العمل ورسوخه في اللغة العربية والإسلاميات نال إعجاب المستعمرين، وعمل معهم في ترجمة بعض المخطوطات إلى لغة الهوسا لتدريسها في المدارس، ووضع كتبا تاريخية مدرسية، ثم ترجم المستعمرون هذه العلوم إلى الانجليزية

ككتب مقررة للمدارس والكليات، ولم يزل يخالطهم باللسان دون القلب، لما يراه من ظلمهم وفسادهم وسوء تدبيرهم لأمور الخلافة.

وبمرور الزمن تعلم بعض الكلمات الانجليزية نتيجة مخالطته معهم ومع بعض أقرانه الذين تثقفوا بالثقافة الانجليزية، وظهر هذا التأثر في إحدى مقطعاته الشعرية باللغة العربية وقافيتها الانجليزية، وذلك في الأبيات التي أنشأها في رحلته الأولى إلى لاغوس في الأربعينات، يصف بها ما شاهده في العاصمة الفدرالية حينئذ:

وما ذي الدنا إلا تدي بعد يستدي   وكل امرئ ما سوف يلقاه وسرد
وليس مقامي وسط لاغوس سرني   ولست أرى ممن تعودت سم بد
ولولاك عبد الله ما طاب مسكني   بلاغوس صارت لي شبيها بكستد
ولست لأختار المقام بها ولو   يكون عطائي ألف وألف بها أد

وليس أدل على بغضه للاستعمار من قصيدته الدالية التي نحن بصدد الحديث عنها، ففي هذه القصيدة يسأل الحمامة حين دار بينهما الحوار:

قلت اخبريني من تخلف بعدهم   قالت تخلف دولة الأكراد
مالي أرى دول الكرام وضيعة   قالت علتها دولة الأوغاد
فسألت ما خلق الذين تخلفوا   قالت ذوو فحش وذوو أحقاد

ثم ختم القصيدة يسترحم للذين غبروا من أهله ويدعو على المستعمرين بقوله :

رحم الإله جميع من مكثوا بها   أهل التقى والجود والإرشاد
وأعاد دولة من عهدت بهم هنا   آمينْ وشتتَ دولة الأوغاد

بهذا يمكن القول بأن الشاعرين كانا يعبران تعبيرا صادقا عما كان يغلي في ضميرهما، وذلك أن أحدهما شهد طلوع الاستعمار وعاش فيه وتولى الوزارة تحت وطأته، والآخر معاصر له وإن لم يشهد طلوعه، وعاش إلى أفول نجمه باستقلال نيجيريا عام 1960م، فعبر كل منهما تعبيرا صادقا عما يختلج في قلبه، ولهذا وذاك يتصدى الباحث لحكم المرحوم البروفيسور علي نائبي سويد في كتابه المذكور آنفا بأن الصدق في الكلام ما هو إلا "مطابقة الكلام لعقيدة المتكلم"[1]، وأن الصدق الفني الإسلامي ظهر في قصيدتي الشاعرين ظهور الشمس في الهاجرة.

---

(1) علي نائبي سويد، كيف نتذوق الأدب العربي، ص 17.

خاتمة

فيما سبق عرض سريع لقصيدتي الوزير عبد القادر مشطو وأخيه الوزير جنيد في تصديهما للاستعمار، الذي كان هدفه الرئيسي هدم الإسلام وطمس معالمه في الدولة الإسلامية، وقطع الجسر الثقافي الإسلامي الذي ربط بين ماضي هذا الشعب المسلم وحاضره، مع عزم قوي على تشويه مستقبله، ليكون هذا الشعب المسلم الغيور على دينه، شعبا عديم التاريخ والثقافة، مع بذل كل المحاولات لتبديل اللغة السائدة، وهي اللغة العربية، بالانجليزية لغة الاستعمار، وبحروفها في كتابة اللغات المحلية.

وكان يرمي من وراء ذلك كله إلى أن ينتج شعبا أوروبيا في أفكاره وأخلاقه ومعتقداته، إفريقيًّا في موطنه، ولكن الشكر لله وحده، فقد تنبه الشعب المسلم، لاسيما العلماء منه. وفشلت هذه المكائد في محو هذه الثقافة الإسلامية الأصيلة، وعبر هذا الشعب عن مقاومته للاستعمار ورفضه له، بل ومحاربته إياه بالفكر والقلم، وضيّق نطاق التعاون والتعامل معه إلا عند الضرورة القصوى، واستقذر أخلاق النصارى، ورفض زيّهم والكلام بلسانهم، وامتنع عن بناء البيوت على نمطهم المعماري.

وبالجملة فقد رفض الشعب ثقافة المستعمرين غثها وسمينها، ففشلوا بذلك في إغرائه لاعتناق عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم المعوجّة، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

الملحق:

1. قصيدة الوزير عبد القادر مشطو ابن الوزير محمد البخاري:

عسا الليل حتى اصطاد ببر وثعلب	وساورت الهرماس ضأن وأرنب
تفر أفاعي الأرض من خوف ضفدع	وتزرع هند في السباخ وزينب
وزخهما في سربخ مغث شصلب	وصاءت على أذنيهما الليل شوشب
وأبصرت أقواما مع اللصت أنزلوا	أهاليهم في الدشت والنار تلهب
وأما ملوك الأرض فيما لديهم	فما مسهم ضر وما خاب طالب
ولكنهم في نعمة أي نعمة	بلادهم فيها أمان وزغرب
وما فيهم إلا غني صمخدد	ولم تلهه عما يحاول كثعب
وأخبرت الصيدانة أن طملسا	رأى النار في الشنعوف والظبي تزحب[1]
فولت فرارا ثم غرت فأقبلت	فيا ليت شعري هل رأى الظبي عسرب
وأخبرني الغيذان أن قهنّبا	يساوي به في ذلك القدر قهزب
وخاصمه العيذان والأمر هين	لدي كما يقضي عن الوتر عيهب
وقفت بقفر اللص أدعو أحبتي	لنا منزل فيه مكان غضارب
حمدت إله العرش ربي وخالقي	ومن يكفه في أمره لا يغالب
صلاة كعد الرمل دأبا بلا انتها	على المصطفى الهادي الذي ليس يصخب
كذاك سلام الله ما دامت السما	وآل له ما دام آت وذاهب

2. قصيدة الوزير جنيد بن محمد البخاري:

ظعن الذين عهدت في ذا النادي	ماذا وقوفك في الطلول تنادي
وعلام تبكي بكاء حمامة	في أيكة تشدو على الترداد
والدمع يجري فوق نحري سائلا	كالماء يجري في مسيل الوادي
ذهبوا فغير رسم دارهم البلى الـ	ـمردي وطول تهجر وبعاد
حتى كأن ذراهم لم يغشها	ذو حاجة من رائح أو غاد

(1) البيت لا يستقيم عروضيا.

صارت مراتع للوحوش بعيد أن كانت مقاصد حاضر أو باد

أقوت فلست ترى بها أبدا سوى الـ حرباء لائذة على الأعواد

قامت تخاطبني فعز كلامها فلكم سكوت معلم بمراد

وتدير عينيها تشير بذاك دو ر الدهر غير ما ترى في الناد

وتلونت ففهمت منه تلون الـ أحوال في الدنيا فعز رقاد

لم لا أنادي في الطلول وهذه الـ أطيار فوق غصونهن شوادي

ألوانها ما بين أبيض ناصع أو أحمر أو مشرب بسواد

تشدو وترقص في حلى أرياشها رقص القيان بحلة الأعياد

أسفي على طلل يمازحني متى ناديت خالفني على المعتاد

ناديته يا أيها ذا النادي فأجابني يا أيها ذا النادي

لما سكت دنت إلي حمامة مغبرة تبدو كلون رماد

فسألتها أين الذين عهدتهم قالت لقد بلغوا على الميعاد

قلت اخبريني من تخلف بعدهم قالت تخلف دولة الأكراد

مالي أرى دول الكرام وضيعة قالت علتها دولة الأوغاد

فسألت ما خلق الذين تخلفوا قالت ذوو فحش وذوو أحقاد

لا تكذبيني يا حمامة اكشفي قالت ذوو حسد ذوو إفساد

هل يحسد الرجل الكبير صغيره قالت كذلك عادة الأكراد

فسألتها مالي أراك هزيلة قالت لكثرة لوعتي وسهادي

ما بال لونك مغبرا متغيرا قالت لبست عليّ ثوب حداد

ماذا وقوفك ها هنا في وحشة قالت لأندبهم على الأوتاد

هلا قفوت إليهم آثارهم قالت قعدت لقلة الأزواد

رحم الإله جميع من مكثوا هنا أهل التقى والجود والإرشاد

وأعاد دولة من عهدت بهم هنا آمينْ وشتت دولة الأوغاد

ثم الصلاة على النبي وآله وصحابه أبدا إلى الميعاد

المصادر والمراجع

1. أحمد سعد، **ترتيب الأصحاب**، مخطوط في مكتبة إبراهيم جنيد الخاصة، صكتو ـ نيجيريا.

2. الوزير جنيد بن الوزير محمد البخاري، **إفادة الطالبين ببعض قصائد أمير المؤمنين محمد بلو**، مخطوط في مكتبة الباحث الخاصة.

3. سمبو ولي جنيد، **مواقف سلبية ضد ثقافة الاستعمار البريطاني في صكتو**، بحث مقدم للمؤتمر الدولي عن أثر الاستعمار في التربية الإسلامية وتقاليدها، بين فترة 1903-1960م، بالمركز الإسلامي، جامعة عثمان بن فودي، بتاريخ 8-11 ذي الحجة، سنة 1408هـ.

4. الوزير عبد القادر بن الوزير محمد البخاري، **قصيدته البائية**، مخطوط في مكتبة الباحث الخاصة.

5. عمر بلو، **تحقيق وترجمة مع مقدمة لرسالة القاضي عبد الله إلى المعاصرين**، نشر المعهد الإسلامي، صكتو ـ نيجيريا.

6. علي نائبي سويد، **كيف نتذوق الأدب العربي**، دار العربية، بيروت، 1986م.

7. الوزير محمد البخاري، **الرسالة إلى أهل العلم والتدبير**، مخطوط في مكتبة إبراهيم جنيد الخاصة، صكتو ـ نيجيريا.

8. محمد المبارك محمد التكينة، **الأبعاد الفنية في أشعار الوزير جنيد العربية**، بحث مكمل لدرجة الماجستير، جامعة أحمد بلو، زاريا، 1980-1981، نيجيريا.

9. يحيى الحاج بوي، **تحقيق الديوان الأول للدكتور الوزير جنيد بن الوزير محمد البخاري**، بحث تكميلي لدرجة الماجستير، سنة 2002م.

10. Ahmad Mohammad Kani et al, State and Society In the Sokoto caliphate, Sokoto, 1990.

11. Jean Boyd et al, The Collected Works of Nana Asma'u,Ibadan, 1999.

الشيخ عثمان نليمن وإسهامه في تطور الأدب العربي الإفريقي والثقافة الإسلامية

د. محمد حبيب (*)

المقدمة:

إن الثقافة العربية في القرن التاسع عشر ازدهرت ازدهارا عظيما، وبلغت أوج مجدها، حيث كان ملوك تلك الفترة والوزراء والقضاة والعلماء وغيرهم يدرسون اللغة العربية لأنها لغة رسمية للدولة التي أسسها الشيخ عثمان بن فودي رضي الله تعالى عنه.

ولما استولى المستعمر على هذه البلاد في مطلع القرن العشرين، حوالي سنة 1903م ووجد الناس على تلك الثقافة يتنافسون ويتسابقون إلى المدارس القرآنية والمعاهد العلمية لدراسة اللغة العربية وثقافتها للحصول على مناصب عظيمة في الدولة كالقضاء والوزارة والإمامة وغير ذلك، لم يظهر للغة العربية عداوته بادئ ذي بدء، ولم يشجعها لأنها تختلف عن الثقافة التي يريد نشرها في البلاد.

وعلى هذا فإن أول ما فعله لهدم هذه الثقافة هو أنه قسم البلاد إلى تسع مديريات، ثم إلى اثنتي عشر مديرية، وأعلن أنه سيحكم البلاد حكما غير مباشر(1)، وتعهد أنه لا يتدخل في الأمور الدينية والشرعية إلا فيما يتعلق بتجارة الرقيق

(*) جامعة عثمان بن فودي، صكتو - نيجيريا.

(1) لعله ما يسمى الآن في بعض البلاد العربية (باللامركزية)، أو استعمال السلطة الأهلية.

وقطع يد السارق، فأعلن إلغاءهما واعترف بالمحاكم الشرعية [1]، وقام بحركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغات المحلية، وترجمة دواوين الحكومة إلى هذه اللغات، ثم بعد ذلك حاول بكلما يستطيعه من جهد أن يستبدل بها لغته، فجعلها في المحل الثاني من لغته، وجعل لغته هي الرسمية للدولة، أصبحت الدواوين الحكومية والمحاكم الشرعية كلها تستعملها بدلا من العربية، وهذه سنة المستعمرين، فقد كانوا يفعلون ذلك في كل بلد يدخلونه[2]، وما زال المستعمرون على هذا حتى أسسوا المدارس الابتدائية، وفرضوا على المواطنين تعلم لغتهم، وخاصة أبناء الأمراء لما صعب عليهم الأمر على الإمارات الشمالية. وأما في الجهة الغربية والشرقية فلم يجدوا هناك صعوبات لدى السكان، ولذا سهل عليهم نشر لغتهم؛ نتيجة رغبة هؤلاء في تعلمها.

في هذه الأوضاع ولد عالم نحرير في مدينة صكتو، هو المسمى الشيخ عثمان نليمن بحارة مسلاتشن شيخ عثمان بن فودي الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذه المقالة الموجزة.

نسبه ومولده ونشأته :

هو عثمان[3] بن الإمام محمد لابد[4] بن الإمام علي بن أحمد ابن القاضي أبي بكر المعروف بلادن رامي بن عبد الله بن محمد بن عثمان بن حم ابن عال بن محمد جب، ومن هنا يلتقي نسبه مع عثمان بن فودي المجدد لدين الله، رضي الله تعالى عنهم.

وكانت هذه القبيلة من قبيلة الفلاني المدعوة بتورنكاوا التي خرجت من فوت تورو واستوطنت هذه البلاد، وكان رئيس هذه القبيلة يدعى موسى جكل، وهو الجد السادس لعثمان بن فودي.

---

(1) الدكتور علي أبوبكر، الثقافة العربية في نيجيريا، ص 131.

(2) شيخو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 95.

(3) محمد حبيب محمد، الشيخ عثمان نليمن مسلاتشن شيخ صكتو، بحث قدمه لنيل شهادة الليسانس، جامعة صكتو، سنة 1980م، ص 11.

(4) لابد كلمة فلاتية، ومعناها: المخلص.

وقال عبد الله بن فودي : "وأصلهم فيما نسمع[1] من نصارى الروم، وصلت إليهم جيوش الصحابة فآمن ملكهم، وتزوج بنته عقبة بن عامر المجاهد الصحابي أمير المغرب، فولد قبيلة الفلان المشهورة، وجدهم الرومي أبو عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وأمه نسمة بنت إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والله أعلم". والجدير بالذكر أن هذه الأسرة كانت من بيت علم وثقافة عربية، وقد ورث عثمان نليمن العلم كابرا عن كابر.

ولد الشيخ عثمان نليمن في أوائل القرن العشرين[2] بحارة مسلاتشن شيخ[3] في مدينة صكتو، وذلك سنة 1342هـ، الموافق لسنة 1917م، وتوفي بمدينة صكتو في يوم الاثنين الخامس من صفر سنة 1421هـ، الموافق للثامن من مايو سنة 2000م، وله من العمر حوالي 69 سنة، رحمه الله.

وقد نشأ في حجر والده محمد لابد، في بيئة تهتم بالعلم والثقافة العربية الإسلامية، إذ كانت مدرسة والده وغيرها من المدارس التي يتسابق إليها العلماء والطلاب، وهذا حقا ساعده في أن ينشأ شديد الحرص على تحصيل العلم، فأقبل عليه أي إقبال، وكان قد رزق من الذكاء النادر والبصيرة النافذة وقوة الحافظة وحدة الذاكرة والعبقرية ما امتاز به على غيره من الطلاب، مع ما أوتي من فصاحة القول وسعة البلاغة وحسن البيان وسرعة البديهة، حتى صار مضرب المثل في إتقان العلوم العربية والإسلامية في هذه البلاد. وكان معروفا بحسن العشرة وإقراء الضيف وبشاشة الوجه وطلاقته.

تعلمه:

كان من عادة المسلمين في بلادنا هذه أن يبدأ أبناؤهم بقراءة القرآن الكريم، لذا بدأ الشيخ تعلمه وهو صغير في مكتبة السيدة العابدة الصالحة عائشة زوج عمه القاضي عبد الله، حيث قرأ عليها القرآن الكريم، وعلى ولدها محمد الأمين كما

---

(1) الشيخ عبد الله بن فودي، إيداع النسوخ عمن أخذت عنه من الشيوخ، ص 3، مخطوط.

(2) محمد حبيب محمد، الشيخ عثمان نليمن مسلاتشن شيخ صكتو، بحث قدمه لنيل شهادة الليسانس، جامعة صكتو، سنة 1980م، ص 19.

(3) وهي تقع بجنوب مسجد الشيخ عثمان بن فودي.

جرت عليه العادة. ولما بلغ الحواميم أمره والده بأن يأتيه كلما جدد الكتابة في لوحه فيصحح له. وهكذا إلى أن أتم القرآن العظيم وهو ابن تسع سنين، ثم قرأ على أبيه محمد لابد مبادئ العلوم الإسلامية والأدب إلى أن توفي والده وهو يقرأ الرسائل المختلفة عليه وهو آنذاك ابن إحدى عشرة سنة. بعد ذلك قرأ على الأستاذ الفاضل العارف بالله الأديب البارع محمد ليم نجل أمير المصالح ووالي النصائح فأخذ عنه كثيرا من علوم النحو والصرف والبلاغة والأدب والفقه والحديث وعلوم التوحيد، ثم بعد ذلك أخذ على الحبر الدراكة العالم العامل الصالح ألفا نوح المغربي، كما أخذ عن الوزير الصالح فريد دهره ووحيد عصره الدكتور جنيد بن الوزير محمد البخاري عليهم رحمة الله.

علاوة على ذلك كله فإن الشيخ أخذ العلوم عن كثير من العلماء الذين نبغوا وتمهروا في فنون كثيرة مختلفة، إلى أن صار علما وخاصة في العلوم العربية.

إسهامه في تطور الأدب العربي والثقافة الإسلامية.

التدريس والوعظ : لعب الشيخ عثمان نليمن أدوارا هامة في تطور الأدب والثقافة الإسلامية في هذه البلاد بعد أن أخذ العلوم عن أربابها وأتقنها إتقانا.

كان يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، كما كان يأمرهم بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وقد كون لذلك معهدا علميا في بيته بجهده وهمته الفعالة ونيته المخلصة منذ سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف ميلادية، وكان رحمه الله تعالى منذ ذلك الوقت يدرس في معهد اللغة والنحو والصرف والأدب والبلاغة والفقه والتفسير والحديث، وغير ذلك من فنون العلم، بل حتى في الليل كان شغله التدريس إلى أن قاربته الوفاة فتوقف عن التدريس لما اشتد عليه المرض.

وكان رحمه الله إذا شرع في البيان كأنما يوحى إليه، حيث أنه يستشهد في كل مسألة بآية من آي الذكر الحكيم أو بحديث من الأحاديث النبوية الشريفة.

هذا الذي جعل الطلاب يأتون إليه أفواجا ويأخذون عنه علوما شتى، وكانوا يأتون إليه من المدن والقرى النيجيرية، كما كانوا يأتون من البلاد المجاورة كجمهورية النيجر.

ومن مساهمته في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية أنه عين (نائب العميد) لمعهد أمير المؤمنين محمد بلو، وكان يدرس في هذا المعهد علوم الفقه والحديث والتوحيد وعلوم القرآن واللغة العربية بفنونها. ثم إنه لما عين عميدا لهذا المعهد خلفا للعالم الجليل يحيى النووي، قام خير قيام على تهذيب الوعاظ والمفسرين، من أجل نشر الثقافة الإسلامية في البلاد، لأن من تخرج منه يفوز بشهادة الوعظ والتفسير.

إضافة إلى هذا فإن الشيخ كان يعظ ألوفا من الناس في أيام الجمعة في مسجد الشيخ عثمان بن فودي، زد على ذلك أنه كان من أعضاء لجنة الوعظ والتفسير بولاية صكتو كما كان عضوا من أعضاء جماعة نصر الإسلام بولاية صكتو.

هذا وإن الشيخ كانت له دعوات إلى الثقافة الإسلامية، وذلك حيث كان يعظ الناس في مناسبات مختلفة، يرغبهم في تعليم دين الله ومعرفة شريعته وثقافته، لأن في معرفة ذلك معرفة لحقوق المعاملات بين الناس.

هذا وإن الشيخ ساهم كثيرا في بث اللغة العربية والثقافة الإسلامية، إذ كان دائما يدعو إلى تعليم الدين وتعليم الكتب التي ألفها المجاهدون، ليعرف الناس دينهم ويمارسونه في حياتهم اليومية، ويشير إلى أن الثقافة الإسلامية هي التي تعين الإنسان على معرفة حسن المعاملات والمعاشرات.

مؤلفاته :

وللشيخ عثمان نليمن مؤلفات عديدة، ويمكننا أن نأخذ هنا على سبيل المثال ما يلي:

1. **تاريخ الخلفاء في الدولة العثمانية :** كان أصل هذا الكتاب نثرا منجده الإمام علي المتقدم ذكره في الأسرة، ثم تناوله الشيخ عثمان نليمن بعد أن طالعه وجعله نظما وزاد فيه ما شاء الله له أن يزيد ونقص منه ما نقص.

بدأ كتابة هذا الكتاب بالشيخ عثمان بن فودي أول أمير للمؤمنين في نيجيريا، وذكر أول أمره وما جرى بينه وبين ملوك هوسا، كما ذكر من بايعه من أهل الحل والعقد، وذكر أيامه ومدة خلافته، ومن توفي من الأخيار في مدة خلافته. وهكذا تجده في كل خليفة يذكر المكان الذي بويع فيه وأيامه ومدة خلافته وما جرى في زمنه ومن مات في مدة خلافته من الأخيار، إلى أمير المؤمنين أبي بكر بن

أمير المؤمنين محمد بلو، الذي ولي الخلافة بعد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهم، ولا تنس أنه افتتح كتابه بالحمد على الله العلي القهار، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، كعادة من سبقه من العلماء، ثم عقبه بعد ذلك بفصول إلى آخره.

اقرأ معي هذه الأبيات في مطلع الكتاب، حيث يقول :

الحمد لله العلي المنان   باري الورى ذي الطَّوْلِ والإحسان
رب الورى معز من والاه   سبحانه مذل من عاداه
ثم الصلاة والسلام سرمدا   على ختام الأنبياء أحمدا
وآله وصحبه الأبرار   ما انسلخ الليل عن النهار
وبعد فاعلم أنني أردت   نظم الأمارات التي وجدت
منثورة لجدنا علي   تيسير ذا أرجو من الولي
وربما ذكرت ما لم يذكر   وربما نقصت مما يعتري

صاحب هذا الأمر وأصله :

صاحبه وأصله عثمان   يعمه من ربه الإحسان
والأصل في ذا أن أمات البدعه   فاسود وجهها وأحيا السنه
جاهد في الله بلاد الكفر   فافتتح الله له بالنصر
واختاره أهل الإله سيدا   يهديهم لدينهم مجددا

بيعته:

بايعه أهل الذكا والفطنة   على الكتاب واتباع السنة
أولهم أخوه عبد الله   فشيعة من صحبه النباه
ولم يزل مستظهرا للعدل   يجاهد الكفار أهل الزل
حتى انتهت بيعته بغرب   مالي فبايعوا بغير ريب

وهكذا استمر في هذا النظم إلى أن ختمه بالصلاة والسلام على خير البرية كعادة السلف الذين تأثر بهم.

2. **تنبيه العوام على ما دب إليهم من ثعابين الأوهام** : كان موضوع هذا الكتاب "السياسة"، أي السياسة الموجودة آنذاك في هذه البلاد، أعني في الستينات.

هذا الكتاب نفسه شاهد ودليل قاطع على أن الشيخ خبير بما يجري في عصره، وليس مكبا على الكتب فقط، وإنما هو عارف باختلاف آراء الناس حتى في السياسة، وألف في ذلك كتابا قيما.

وقد اشتمل هذا الكتاب على مقدمة وفصلين وخاتمة، وجعل مقدمة الكتاب في حقيقة الخلافة العثمانية وما يجب على المسلمين فيها من السمع والطاعة، وتناول في الفصل الأول من الكتاب الكلام عن الجمعية المسماة ينيف والمسماة بأكشن غرب، وأردفه بفصل ثان في حكم من والاهما، ثم ختم الكتاب بخاتمة فيما يجب على ولاة أمور المسلمين من نصر الدين وإحياء شعائره وإقامة شرائعه.

استمع إليه يتكلم في خاتمة هذا الكتاب عما يجب على أمراء الإسلام حيث يقول:

" يجب على كل أمير ووزير من أمراء الإسلام أن يحافظ على جميع أركان الإسلام، ويحمل الناس على ذلك حسب الحال والإمكان، ويقيم الصلاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ... ﴾، ويجب عليهم إحياء العلم الذي به حياة الإسلام، ويجب عليهم نصب المدارس الإسلامية والمدرسين من الفقهاء والأدباء" ا.هـ.

وللشيخ مؤلفات أخرى غير هذين اللذين سبق ذكرهما، وإنما أوردناهما لنضرب مثلا على ما قام به من تآليف مختلفة لتثقيف الناس بالثقافة الإسلامية وتعريفهم بدينهم.

شعره:

أغراضه وأسلوبه وتأثره بغيره : على الرغم من أن موضوع الشعر عند علماء هذه البلاد لا يتجاوز الشئون الدينية، فقد طرق عثمان نليمن كثيراً من أبواب

الشعر، ونظم قصائد جمة في موضوعات مختلفة، وأنا لا أريد في هذا المجال دراسة مفصلة لهذا الشعر، وإنما قصدي العرض والإشارة العجلى، فأخص بالذكر ما يلي: الرثاء والمدح.

1. الرثاء : يقول الأستاذ علي نائبي سويدي رحمه الله: "كثيراً ما يقول الأدباء إن الرثاء نوع من شعر المدح، غاية ما في الأمر أن المدح ذكر محاسن الأحياء والرثاء ذكر محاسن الأموات"[1].

وعلى هذا فالمحاسن التي يذكرها الأستاذ عثمان نليمن في الرثاء كلها محاسن إسلامية بحتة، ويتجلى لك ذلك في مرثيته لمُعَلِّمَتِهِ عائشة المعروفة بلقبها "أيي"، ففي رثائه لها يبين لك حزنه على فقد معلمته التي كانت أمّا له، وحين يصور لك حزنه فإنك تشاركه في هذا عند قراءتك لقصيدته هذه، ثم ينتقل بعد ذلك ويصور لك حسن أخلاقها، وأنها كانت كثيرة الصوم والصلوات في الليل، كما كانت دارسة للقرآن الكريم في آناء الليل بعد صلواتها، ثم ينتهي بعد ذلك بالدعاء وطلب المغفرة والرحمة على المفقود، متوسلا بالرسول والأنبياء والأصحاب وأهل بدر والشهداء في دعائه.

استمع إليه حيث يقول في لاميته، وهي من الكامل :

سالت على خدي دموع هطل	فكأنها ديم همت أو وابل
وَتَقَلْقَلَتْ أحشاء بطني وانتحى	للقب والصدر الحزين تقلقل
لم لا تسيل ولا تقلقل والأسى	والهم مطوي بها ومثقل
فقدي لعائشة الحليمة يا لها	من أمة خيراتها تتسبل
صوامة قوامة دراسة الـ	قرآن في الآناء ليست تأتل
أكرم بها من مألف من ملجأ	وزر لمن أعيا عليه المنزل
غفر الإله لها وأسبل فوقها	عيشا من الرضوان دوما يهطل
ويحفنا كلا بلطف شامل	ويعمنا بالفضل منه ويمهل

(1) مقالة لعلي نائبي سويدي، دراسات عربية، مجلة القسم العربي، جامعة بايرو، كنو، ج 3، ص 49.

بمــلاذنا وغيـاثنا وشـفـيـعنا　　يوم القـيامة وكل من قـد أرسلوا
وبالانبـيـاء وبالمـلائك جـملة　　وبأربع الأصحاب من قد فضلوا
وبأهـل بدر ثـم بالشــهــداء في　　أحد وكل الصحب من قـد عدلوا
صلى عليـه الله مـا الهم انجلى　　بنوافح من لطفـه تتـعـجل

2. **المدح** : سبق أن المدح هو ذكر أخلاق الممدوح الحسنة، وللشيخ قصائد كثيرة في هذا النوع، وخاصة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومدح الشيوخ وغيرهم من علماء الدين.

وقد عرفت أن مدح النبي صلى الله عليه وسلم موضوع يتنافس فيه الشعراء المسلمون، لأنهم يرون أن ذلك من أحسن القربات التي تؤهل المرء في نيل الشهادة من الممدوح.

وقد طرق الشيخ عثمان نليمن هذا الباب طرقا، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد كثيرة، منها قول من البحر البسيط

هل من حظوظ أسـيـر سـده الوزر　　لمح إلى طيبة المخـتـار والنظر
مـأوى حـبـيب إله العـرش مـسكنه　　طابت لمن نزلت في مـدحـه السور
مأوى لمن هاجروا في الله واجتهدوا　　ومن نبـيـهـم آووه وانتـصـروا
روحي لطيبة خيـر الخلق منسحب　　والجسم مني بقيد الذنب منحصر
والقلب مني بآمـال مـبـاينة　　للرشد منتصف مأمولها غـرر

إلى أن قال :

أحيت أحـبة خيـر الخلق مـولده　　في كل عصـر يلي من بعده عصـر
والبعض من نسله كالسيد البدوي　　بطندتا أمـره في ذاك مشـتـهـر
وبعضهم من ملوك صالحين كما　　روى الجلال الذي ازدانت به مصر
هذا ويحـيـيـه في سـودانـنا بطل　　سـمح حليم وقـور مـا به ذعـر[1]
جـزاه رب العلى من حسن نيـتـه　　خيـراً كـثيـراً يليه الفوز والظفـر

---

(1) محمد حبيب محمد، الشيخ عثمان نليمن مسلاتشن شيخ صكتو، بحث قدمه لنيل شهادة الليسانس، جامعة صكتو، سنة 1980م، ص 39-41.

وآخرها:

يا رب صل على المختار سيدنا ما انشق ضوء من الإصباح ينفجر
سلم على نورك الأعلى الذي شرفت به النبيون والأملاك وافتخروا
سلم على نورك الأعلى الذي اقتبست من نوره آله وصحبه الغرر
سلم على نورك الأعلى الذي انسلكت اتباعهم في هداه ما بدا السحر

الأسلوب:

من الأحسن أن ألقي نظرة موجزة وكاشفة عن الأسلوب الذي سلكه الشيخ عثمان نليمن في قصائده، على أن الشيخ قرأ وطالع كثيراً من الأدب العربي الجاهلي، وأدب المجاهدين الذين تأثروا بهذا الأدب وأتقنوه إتقاناً، حفظاً ومعرفةً، وسيلة إلى فهم القرآن العظيم، كما قرأ شيئاً كثيراً مما هو بأيدينا من الأدب الأندلسي من العشرينيات الفازازية، وغير ذلك من شعر المديح عامة، مثل قصائد البوصيري وغير ذلك.

ولما درس الشيخ هذا الأدب وأتقنه إتقاناً وتمكن من اللغة العربية شرع يقرض هذا الشعر الجديد، وسلك في أسلوبه مذهب من سبقوه من قدماء العرب وشعراء مدرسة المجاهدين بشمال نيجيريا في تناول الموضوعات، حتى جاءت إنتاجاته شبيهة بإنتاجات من سبقوه من هؤلاء.

وعلى هذا تجده أحياناً يبدأ في أسلوبه بذكر ما يذكر شعراء العرب الجاهليين، وتارة بما ينهجه المجاهدون وغيرهم.

ولا شك أن أسلوب الشيخ أسلوب مسترسل وخال من التكلف والبديع والسجع الذي يؤدي إلى غموض في الفكرة والمعنى، إلا ما جاء عفواً، وتنساب عباراته في سهولة ويسر، مع جمال العبارة وقوة الأسلوب والفصاحة ووضوح الفكرة.

الشواهد على سمات أسلوبه:

ومن شواهد أسلوبه السلس المسترسل قصيدته التي رثى بها أستاذه محمد ليم، وكلها مرآة صافية للاسترسال والسلاسة، كما هو واضح من هذه الطائفة من أبيات تلك القصيدة، اقرأها معي :

إلى ربي الرحمن أشكو مصيبتي فمنه أرجو كشف همي وكربتي
فهاتيك فقدي عالما ذا نباهة أديباً أريباً ذا اجتهاد وهمة
وقوراً أميناً للسرائر فاضلاً عـزيز علوم ذا ذكاء وفطنة
صبوراً سليم القلب سهلاً خصاله صفوحاً عن الطلاب عن كل هفوة
أفاض على ليم الإله فضائلاً ومنّ له في العلم أجزل منة

ومن أمثلة إجادته بغير تكلف إلا ما جاء عفوا، ما جاء في قصيدته التي هنأ بها الدكتور جنيد حين عين وزيرا، عندما وصفه بقوله :

أخا فطنة ذا يقظة وقريحة سمت واعتلت من بين أهل القرائح
جنيدُ سديدٌ رأيه سيْد قومه ملاذهم الجحجاح بين الجحاجح
فأنت بحمد الله مرجع أمرهم وفخرهم فخر يليق بصالح

انظر كيف وضع هذا البيت الرصين بين بيتين ليسا أقل منه جودة مع خلوه من التعقيد اللفظي والمعنوي، ومع كونه كشارح للمهنَّإ لورود اسمه فيه صراحة. وهذا سياق مجمل للاستشهاد على سمات أسلوبه.

تأثره بغيره:

إن أسلوب الشيخ عثمان نليمن يدل خير دليل على أنه تأثر بغيره من الأدباء في أشعاره، وقد تأثر في شعره بالجاهليين والأندلسيين، كما تأثر في المديح بالفازازي والبوصيري صاحب بردة المديح وغيرهم، وكان تأثره أكثر بشعر المجاهدين وأجداده، ولا غرابة في ذلك لأنه قرأ كل ما كتبه المجاهدون، والإنسان ابن بيئته وثقافته.

وإنك لتجد شعر عثمان نليمن أكثر تأثراً بشعر عبد الله بن فودي من المجاهدين، وحتى أنك إذا قرأت من شعره تظنه شعر عبد الله غوند، وهناك شواهد كثيرة من الأمثلة الدالة على ذلك، فمثلاً نأخذ لامية الشيخ عبد الله غوند، ولامية الشيخ عثمان نليمن ونقارنهما، وسنرى وجوه الشبه بينهما واضحة وضوح الشمس، وذلك في البحر والقافية وغير ذلك :

كان الشيخ عبد الله يرثي بقصيدته هذه عمه ثنب وكان الشيخ عثمان نليمن يرحب في قصيدته بقدوم شيخ من شيوخه وهو الأستاذ ألفا نوح.

استمع إلى هذه الأبيات المأخوذة من كلتا القصيدتين من أماكن مختلفة.

لامية عثمان مطلعها :

فحمد دائم في كل حال　　على نعم المهيمن ذي الجلال

لامية عبد الله بن فودي مطلعها :

فيا للمسلمين ليبك خالي　　محمد ثنب ذو علم وحال

قال الشيخ عثمان نليمن :

شديد الجد في تعليم علم　　مع القرآن من غير افتعال

وهو شبيه بقول الشيخ عبد الله :

فقد حمدت شمائله قديما　　بعلم والتقى قبل ارتحال

وقال الشيخ عثمان نليمن:

توجه قاصدَ الحرمين حجا　　وزورةَ أحمدٍ زينِ الرجال

وهو شبيه بقول الشيخ عبد الله :

إلى الحرمين حتى قام عشرا　　وبضعا فيهما يبني المعالي

وقال الشيخ عثمان نليمن :

فرجعه بصكت واجتباه　　معلم كل ذي علم وحال

وهو قول الشيخ عبد الله :

فرجعه إليه عام شرز　　فشمنا نحوه برق الوصال

ونذكر مثالا آخر، وهو هذه الأبيات المأخوذة من أماكن مختلفة من قصيدة الشيخ عثمان نليمن في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومن قصيدة البوصيري في نفس الموضوع، وكلتا القصيدتين من البحر البسيط.

قال الشيخ عثمان نليمن :

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته   في الهول إذ لم يكن ورد ولا صدر

وهو شبيه بقول البوصيري :

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته   لكل هول من الأهوال مقتحم

وقال الشيخ عثمان نليمن :

لولاه ما خلقت إنس ولا ملك   كلا ولا خلقت شمس ولا قمر
ولا سماء ولا أرض نقيم بها   ولا نبات ولا ماء ولا شجر
ولا طيور ولا وحش ولا نعم   ولا الطعوم التي قامت بها البشر

فما هذا إلا تفصيل لقول البوصيري :

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من   لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقال الشيخ عثمان نليمن :

إيوان كسرى تصدعت شرافته   ونارهم أخمدت من بعدما افتخروا
ونهر ساوة قد غاضت كأن خمدت   نار بها أو كأن العكس يعتبر

وهو قول البوصيري :

وبات إيوان كسرى وهو منصدع   كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف   عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها   ورد واردها بالغيظ حين ظمي

من هنا يتضح لك أن الشيخ تأثر بغيره من الأدباء، وذلك لكثرة مطالعته لكتبهم.

وأخيرا فإننا لم نرد من هذا الأمر غير عجالة، إذ لو عكفنا على ذلك لاستشهدنا بمواقع أكثر، ولكن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

الخاتمة

إن القارئ والدارس لحياة الشيخ عثمان نليمن يلاحظ بوضوح أن الشيخ ساهم كثيراً في تقدم الثقافة العربية والإسلامية في هذه البلاد خدمة للعربية والدين، وذلك لما قام به من تدريس ووعظ وإرشاد.

أضف إلى ذلك مساهمته في ميدان الأدب العربي حين طرق أبواب الشعر العربي وأتقنها، وهو ذو بصر بالخفايا في هذا الميدان، وله رأيه وموقفه في المسائل العلمية، يجيب عنها على البديهة.

فلا شك أن هذه الشخصية البارزة تنفرد في عصرها بصفات علمية معينة، وكل من حضر دروس الأستاذ وقرأ قصائده يعرف أنه عمل في تطوير الثقافة العربية والإسلامية في هذه البلاد طوال حياته، إلى أن لبى دعوة ربه سبحانه وتعالى.

ولا يسعنا في ذلك إلا أن نقول: جزاه الله عن اللغة العربية والثقافة الإسلامية والمسلمين جميعاً الجزاء الأوفى، ونور ضريحه، وأسكنه فسيح جنة الفردوس، وأن يوحد كلمة المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأن ينصرهم على عدوهم، آمين.

البيان الختامي والتوصيات

أقامت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإسيسكو)، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، والجامعة الإسلامية بالنيجر، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية، في رحاب الجامعة الإسلامية بساي في النيجر ندوة علمية تحت عنوان **"من أجل أدب إسلامي فاعل ومتفاعل"**.

وقد دارت أعمال الندوة أيام 5، 6، 7 صفر، 1423هـ، الموافق 18، 19، 20، أبريل 2002م، بمشاركة أدباء وباحثين وأساتذة من الهيئات المتعاونة في تنظيم الندوة، ومن دول عديدة من بينها : **بوركينا فاسو، تشاد، تونس، غينيا، ليبيا، المغرب، مصر، موريتانيا، النيجر، نيجيريا.**

وقد تابع أعمال الندوة جمهور غفير من أساتذة الجامعة وطلبتها، إضافة إلى أساتذة من جامعات أخرى مثل : **جامعة كانو، وجامعة عثمان بن فودي، وجامعة ميدغوري، وجامعة الملك فيصل بتشاد، وجامعة انجمينا، وجامعة عبد المؤمن بنيامي (النيجر).**

وتضمنت وقائع الجلسة الافتتاحية ـ بعد الافتتاح بآي من الذكر الحكيم ـ كلمة الدكتور عبد العلي الود غيري، رئيس الجامعة، والدكتور عبد الحميد الهرامة، ممثل الإسيسكو، والأستاذ مفتاح الواعر، مدير مكتب جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالنيجر، والدكتور حسن الأمرائي، أمين سر رابطة الأدب الإسلامي العالمية، والدكتور عبد اللطيف عبيد، ممثل منظمة الألسكو.

وقد أكد كل هؤلاء في كلماتهم أهمية الندوة باعتبار الدور الكبير الذي يؤديه الأدب الإسلامي عموما، والأدب العربي الإفريقي منه خصوصا، في تعميق الهوية الثقافية الإسلامية، خاصة في إفريقيا، وضرورة العناية به جمعا وتحقيقا، ونشرا ودراسة.

ثم ألقى وزير التعليم الثانوي والعالي والبحث العلمي والتكنولوجيا كلمة افتتاحية أعطت الانطلاقة لأعمال الندوة، وقد استهلها بالتذكير بإدانة حكومة

النيجر لأعمال العدوان التي تجري الآن في فلسطين، كما أكد أهمية الأدب الإسلامي في ترسيخ الهوية الإسلامية، ونوه بما أعلن عنه الدكتور عبد العلي الودغيري من إحداث الإسيسكو، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية كرسيا للآداب والفنون والحضارة الإسلامية الإفريقية لتعزيز ثقافة السلام.

وقد حضر الجلسة الافتتاحية عدد من ممثلي الهيئات الدبلوماسية، وبعض الوجوه الثقافية النيجرية، وفي مقدمتها الدكتور حامد الغابد، الأمين العام الأسبق لمنظمة المؤتمر الإسلامي، إضافة إلى أجهزة الإعلام الوطنية.

وتخللت الجلسة قصيدة بعنوان (صوت الحق) ألقاها الدكتور محمد الأمين ولد باه، الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالنيجر، أشار فيها إلى دور الأدب في الصدع بقضايا الأمة الإسلامية، والإفصاح عن همومها.

وبعد رفع الجلسة الافتتاحية، زار المشاركون معرضا للمخطوطات والمطبوعات نظم بهذه المناسبة، ثم بدأت الجلسات العلمية.

وقد انتظمت على هامش الندوة دورة تدريبية لفنون الخط في نطاق كرسي الآداب والفنون الإسلامية الإفريقية قام بتأطيرها الخطاط التونسي الأستاذ المنجي عمار، كما انتظمت أمسية شعرية شارك فيها عدد مهم من الشعراء البارزين، وتناولوا فيها هموم الأمة الإسلامية، وفي مقدمتها مأساة الشعب الفلسطيني.

هذا، وإن المشاركين، إحساسا منهم بخطورة المرحلة التي تمر بها أمتنا الإسلامية، ولاسيما مع الهجمة الإسرائيلية ـ الأمريكية الشرسة على شعبنا الفلسطيني، ومحاولات الاستيلاء على مقدسات الأمة، وفي مقدمتها المسجد الأقصى المبارك، ليندّدون بالإرهاب الإسرائيلي ـ الأمريكي الساعي إلى اقتلاع وجودنا الحضاري، وضرب القيم الإنسانية كلها، ويهيبون بأدباء الأمة إلى أداء رسالتهم، وتسخير مواهبهم لخدمة قضيتنا المركزية الأولى في فلسطين.

كما يدعون المنظمات والهيئات والاتحادات الأدبية في العالمين العربي والإسلامي إلى القيام برسالتها الحضارية، والاتصال بمختلف الهيئات والمنظمات والاتحادات الأدبية في العالم من أجل كرامة الإنسان في فلسطين، والدفاع عن القيم الإنسانية التي يهددها الإرهاب الصهيوني المنظم، والانتصار للسلام العادل الذي لا يتحقق إلا باسترجاع الشعب الفلسطيني كامل حقوقه المغتصبة.

التوصيات

وانطلاقا من أهمية هذه الندوة، وتحقيقا للأهداف المرجوة منها في إطار تعزيز الذات الإسلامية، وتأصيل هوية الأمة، أوصى المشاركون بما يأتي:

1. العناية بالأدب الإسلامي في جميع لغاته وبيئاته، وتحديدا المكتوب منه بالعربية، لما في ذلك من دور فعال في تعزيز القيم الإسلامية، والتعبير عن آمالها وتطلعاتها الإنسانية الرفيعة.

2. السعي إلى وضع موسوعة للشعر العربي الإفريقي، يتم فيها العمل على جمعه وتحقيقه وفهرسته ودراسته، وحفظه بمختلف الوسائل العلمية والتقنية، والعمل على إيجاد آليات لهذا الغرض في الجامعات الإفريقية.

3. العمل على إدماج بعض النصوص الأدبية الإفريقية في المناهج المدرسية والجامعية في كل الأقطار العربية والإسلامية، وتوجيه طلاب الدراسات العليا إلى إنجاز أبحاث أكاديمية حوله.

4. دعوة المنظمات الثقافية المعنية بهذا الشأن، مثل منظمتي الإسيسكو والألسكو، إلى تنظيم جوائز سنوية للمبدعين في الأدب العربي الإفريقي، وللباحثين فيه، ودراسته دراسة معمقة.

5. إحداث مركز للبحوث والدراسات في الأدب العربي الإفريقي في الجامعة الإسلامية بالنيجر، يعنى بجمع وتوثيق وفهرسة واقتناء كل ما يتعلق بهذا الأدب مخطوطه ومطبوعه، وتزويده بالوسائل المادية والبشرية اللازمة.

6. جعل هذه الندوة دورية تنعقد بالجامعة الإسلامية مرة كل سنتين، على أن تخصص كل دورة بمحور محدد حول موضوع يتعلق بالأدب العربي الإفريقي، أو علم من أعلامه.

7. العناية بالأدب النسائي الإفريقي اعترافا بدور المرأة في الحياة الثقافية والأدبية عامة، وتوظيفا لطاقاتها لمواجهة التيارات الهدامة.

8. طبع أعمال هذه الندوة ونشرها وتوزيعها، وتعميم توصياتها في أقرب الأوقات، وبكل الوسائل المتاحة.

ويوجه المشاركون في هذه الندوة الدولية خالص شكرهم، وفائق تقديرهم إلى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم (الإسيسكو) وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، وبخاصة الجامعة الإسلامية بالنيجر وطاقمها الذي بذل جهودا لم يعرف الكلل في الإعداد الجيد ودقة التنظيم، وتسخير مختلف الوسائل في سبيل النجاح الكبير الذي تحقق من عملها، كما أن الشكر - أيضا - موصول لرابطة الأدب الإسلامي العالمية لمشاركتها الفعالة.

وختاما، فإن المشاركين يوجهون خالص امتنانهم إلى حكومة النيجر التي مثّلها مشكورا في افتتاح هذه الندوة معالي السيد وزير التعليم الثانوي والعالي والبحث العلمي والتكنولوجي على افتتاح أعمال الندوة، وتذكيره في مستهل كلمته بموقف حكومة النيجر الداعم للقضية الفلسطينية باعتبارها قضية المسلمين الأولى.

كما يباركون الخطوة الخيرة المتمثلة في إحداث كرسي الآداب والفنون الإسلامية الإفريقية في الجامعة الإسلامية بالنيجر الذي سيكون له، بإذن الله، الأثر الإيجابي الكبير في النهوض بالثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا.

ويتوجهون بالشكر أيضا إلى المؤسسات، مثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألسكو) والشخصيات المشاركة، وفي مقدمتها الدكتور حامد الغابد، الأمين العام الأسبق لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وإلى السيد حاكم مدينة ساي.

Towards an Active and Interactive Islamic Literature

Proceedings of the International Symposium held in the Islamic University in Niger

on 5-7 safar 1423 A.H. / 18 - 20 April 2002

Pour une littérature islamique active et interactive

Actes du Colloque international organisé à l'Université islamique au Niger

5-7 safar 1423H/18-20 avril 2002

عقدت هذه الندوة بهدف التذكير بقضايا الأدب الإسلامي ودوره في تعزيز ثقافة العدل والسلام بصفة عامة، وبقصد التعريف بالأدب الإسلامي المكتوب بالعربية في منطقة جنوبي الصحراء الكبرى بصفة خاصة، وذلك انطلاقاً من الإحساس بضرورة الاهتمام بماضي الأدب والثقافة الإسلاميين وبحاضرهما، في تلك المنطقة التي استهدف الاستعمار شخصيتها الإسلامية، وبيئتها الثقافية التي زخرت بأسماء العديد من الشعراء والكتاب والمؤلفين والمبدعين الذين جعلوا من لغة القرآن والحرف العربي أداة لتواصلهم، ووسيلة لتعبيرهم، إلا أن حظهم من الدراسة والمتابعة والتعريف قليل. ولذلك كانت هذه الندوة بمثابة التفاتة ضرورية نحو هذه المنطقة من مناطق العالم الإسلامي ذات التراث الثقافي العربي الإسلامي الزاخر.

ص ب : 2275 – ر ب : 10104
الهاتف : 713267 / 713266

